”كتاب ’نعمة القلب المُنكَسِر‘ لشيري ماندل هو رحلةٌ روحية نحو الإيمان، والأمل، والفداء. كلُّ صفحةٍ فيه تنبض بالجمال والعمق، وقد كُتبت بمشاعر جياشة وصدقٍ عميق. إنّ هذا الكتاب هو نشيدٌ مشرقٌ للحياة ينبثق من أعماق الظلام، ويجب على الجميع قراءته.“ - فاي كيليرمان
شيري ماندل
نِعْمَةُ القَلْبِ المُنْكَسِرِ
THE KOBY MANDELL FOUNDATION
קובי מנדל
Bar-Ilan University
אוניברסיטת בר־אילן
The Sir Naim Dangoor Centre For Universal Monotheism
DANGOOR EDUCATION
The Connecting Hamza
همزة الوصل המזה החיבור
Toby

نِعْمَةُ القَلْبِ المُنْكَسِرِ

إِشَادَةُ النُّقَّادِ بِـ"نِعْمَةِ القَلْبِ المُنْكَسِرِ"

أهرون أبلفيلد:

"إنه كتابٌ مؤثّر للغاية - سيبقى رفيقًا لروحك لزمنٍ طويل."

نعومي ريغن:

"لا تملك شيري ماندل موهبة الكلمات فحسب، بل تمتلك روح شاعرة عظيمة. 'نعمة القلب المُنكَسِر' كتابٌ نادرٌ للغاية؛ من النوع الذي لا يمكن للقارئ أن يدخله دون أن يغادره شخصًا أفضل. إنه هديةٌ ونِعمةٌ حقيقيّةٌ لقارئيه".

فاي كيليرمان:

"كتاب 'نعمة القلب المُنكَسِر' لشيري ماندل هو رحلةٌ روحية نحو الإيمان، والأمل، والفداء. كلُّ صفحةٍ فيه تنبض بالجمال والعمق، وقد كُتبت بمشاعر جياشة وصدقٍ عميق. إنّ هذا الكتاب هو نشيدٌ مشرقٌ للحياة ينبثق من أعماق الظلام، ويجب على الجميع قراءته."

جون بودهوريتز:

"كتاب شيري ماندل المؤلم والشجيّ والعميق والجَميل ليس مجرد عملٍ من أعمال الذكرى، بل هو عملٌ من أعمال النعمة."

بريت ستيفنز، صحيفة 'جيروزاليم بوست' *The Jerusalem Post*:

"هذا الكتاب هو رحلةٌ في معنى أن تكون يهوديًا في إسرائيل في هذه الأيام: أن تحيا تحت وطأة الإرهاب وقد تفقد حياتك بسببه؛ أن تختبر أقسى ما يمكن أن تختبره أي أم، ثم تجد العزاء في النعمة؛ أن تشتعل غضبًا وتتشبث بالذكرى؛ لكنك في النهاية، تعود لتبني من جديد."

كينيث كول:

"'نعمة القلب المُنكَسِر' هو القصة الحقيقية لعائلة أمريكية ملهَمة ومُلهمة ذهبت إلى إسرائيل لتبحث عن الروحانية، لكنها واجهت خسارةً لا يمكن تفسيرها بعد أن فقدت ابنها على يد الإرهابيين. إنه كتاب

يحمل الأمل وسط لحظات اليأس المطلق. من خلال حكايات مؤثرة عن ابنها وعائلتها ودينها، نجحت شيري ماندل في أن تروي قصةً جميلة عن جريمة بشعة بأسلوبٍ يتحدّى كل منطق أو عقلانية."

غاري روزنبلات، صحيفة 'الجويش ويك' *The Jewish Week*:

"أعترف أنني كنت مترددًا في قراءة كتاب 'نعمة القلب المُنكَسِر' لشيري ماندل، لعلمي بأنه سيحكي قصة مأساوية مليئة بالألم الذي لا ينتهي. وهو كذلك. ولكن بطريقةٍ ما، يمرّ هذا السرد الذي تصفه أمٌّ فقدت ابنها قوبي، الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، عبر المأساة إلى الجانب الآخر منها، مقدمًا انعكاسًا مُلهِمًا عن دروس الحياة المستخلصة من موت عبثي ولا مبرر له... إنها حكمة اكتسبتها من التصالح مع المأساة وقبولها، وهي تشاركها معنا بسخاء."

يوسي كلاين هاليفي، مجلة 'ذا نيو ريببلك':

"بإدراكٍ مذهل لذاتها، تقودنا شيري ماندل عبر أعماق الألم، وتُرينا طريق الخروج. تصف النقطة الدقيقة التي تعجز فيها قدرة الإنسان على التحمل، وتنتصر فيها حكمة الروح. هنا تكمن قوةٌ عظيمة، في ملاحظاتها عن عملية الحزن والتعافي الخاصة بها، في الكتابة، وقبل كل شيء في إيمانها الذي تعمّق بصورة مدهشة. مثل ماندل، ستخرج من هذه الرحلة مكسورًا في داخلك، وفي الوقت نفسه أقرب إلى الكمال والتّمام. إنه كتابٌ ملحٌّ ولا غنى عنه، يهزّك من الأعماق، ويترك فيكَ أثرًا رائعًا في آنٍ واحد."

مايكل ب. أورين، مؤلف كتاب 'ستة أيام من الحرب':

"قويٌّ ومشحونٌ بالعاطفة، يجمع كتاب شيري ماندل 'نعمة القلب المُنكَسِر' بين الإلهام والآلام المفجعة في آنٍ واحد. بأسلوبٍ يأسر الأنفاس، يأخذ القارئ إلى أعماق الألم وصولًا إلى ذروة الإيمان. إنه شهادةٌ خالدة على محبة امرأة لابنها، ولوطنها، ولله عزّ وجلّ، وهو كتابٌ يترك أثرًا لا يُمحى في ذاكرة قارئه."

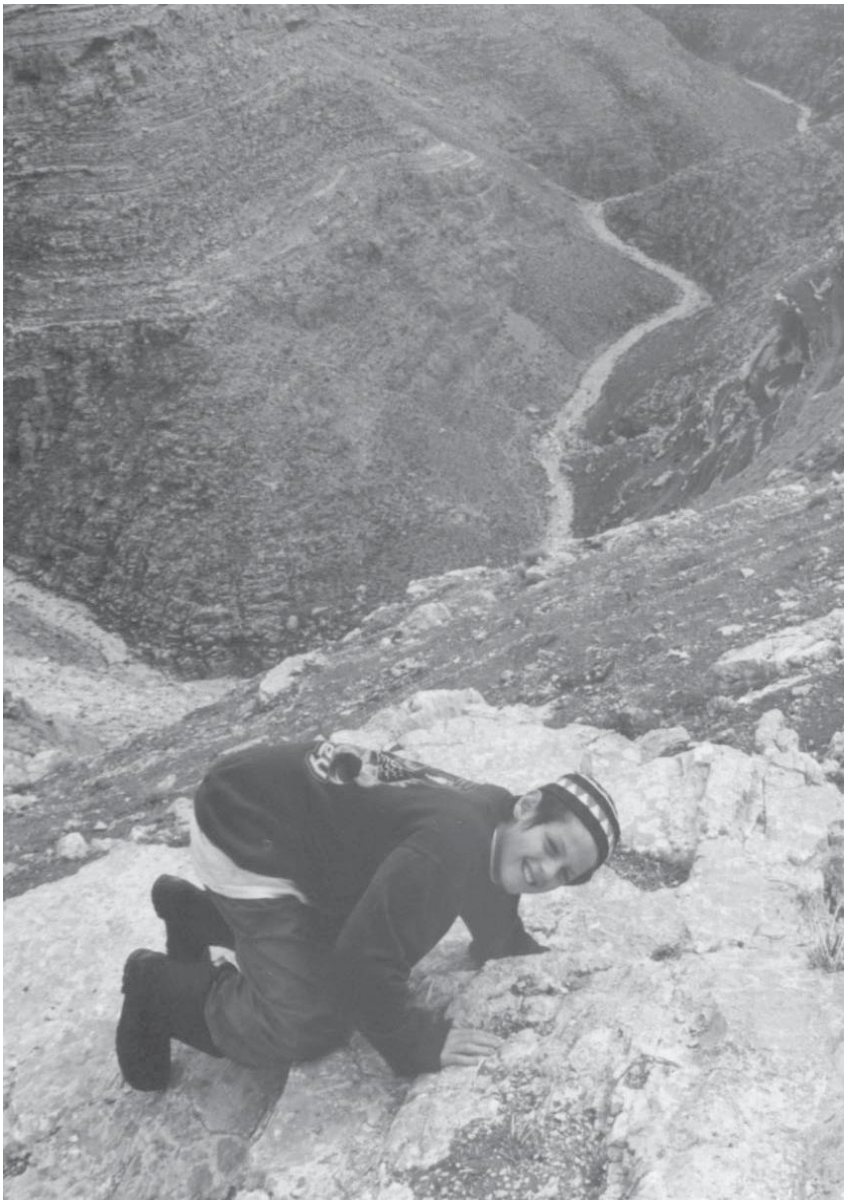

قوبي ماندل

شيري ماندل

نِعْمَةُ القَلْبِ المُنْكَسِرِ

الترجمة من اللغة الإنجليزية:
The Connecting Hamza NGO

نِعْمَةُ القَلْبِ المُنْكَسِرِ

The Blessing of a Broken Heart

Translation to Arabic by The Connecting Hamza NGO
https://theconnectinghamza.org

Translation by arrangement with Koren Publishers Jerusalem

Email: theconnectinghamza@gmail.com

The right of Sherri Mandell to be identified as the author of this work has been asserted by her in accordance with the Copyright, Designs & Patents Act 1988

The Toby Press Paperback English Edition 2009 The Toby Press LLC

Front and Back cover Images © Michal Reznic

The translation to Arabic and digital edition
was made possible through the generous funding of
The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism

يوسف

قوبي

في ذكرى

يعقُوف ناتان ماندل

(14 حزيران/يونيو عام 1987م – 8 أيار/مايو عام 2001م)

ويوسف إشران

(3 كانون الثاني/يناير عام 1987م – 8 أيار/مايو عام 2001م)

مع محبّتنا الخالدة لهما

قائمة المحتويات

إِشَادَةُ النُّقَّادِ بِـ"نِعْمَة القَلْبِ المُنْكَسِرِ" III

تقديم الطبعة العربيّة بقلم ميخال رزنيك XIV

القسم الأول: 1

الكهف .....

الفَصْلُ الأَوَّلُ 2

الكَهْفُ .....

الفَصْلُ الثَّانِي 4

الوِعاءْ .....

الفَصْلُ الثَّالِثُ..... 7

العَالَمُ الجَدِيدُ.....

الفَصْلُ الرَّابِعُ 9

اِنْقِبَاضَاتُ الْمَوْتِ .....

الفَصْلُ الخَامِسُ 16

مَوْتُ قُوبِي.....

الفَصْلُ السَّادِسُ 22

المَشِيحُ وَاليَوْمُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ قُوبِي.....

الفَصْلُ السَّابِعُ 26

ظُهُورُ النَّبِيِّ إِلْيَاهُو (إِلْيَاس) فِي خِتَانِ قُوبِي.....

الفَصْلُ الثَّامِنُ 35

العَالَمُ الآخَرُ.....

الفَصْلُ التَّاسِعُ 38

الشِّيبْسُ فِي الجِنَازَةِ .....

الفَصْلُ العَاشِرُ 42

الـ"شيفْعاه" وتَجَلِّياتِ اللهِ المُتَعَدِّدَةِ.....

الفصلُ الحادي عَشَر 47

الوَادِي والنَّبْعُ .....

الفَصلُ الثَّانِي عَشَرَ 53

اِسْتِقْبَالُ يَوْمِ الشَّبَّاتِ الْمُقَدَّسِ.....

الفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَر..... 58

مُسْتَوَيَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الأَلَمِ .....

الفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ 61

الرَّصَاصَةُ وَعُلْبَةُ المُجَوْهَرَاتِ .....

الفَصْلُ الخَامِسَ عَشَرَ 67

الشِّهَابُ الثَّاقِبُ .....

الفَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ 70

عِيدُ مِيلادِ قوبي - حين أصبحنا مُتَسَوِّلِينَ مُقَدَّسِينَ.....

الفَصْلُ السَّابِعَ عَشَرَ 74

ال"بار ميتسڤاه": الاحتِفالُ بِبُلوغِ سنِّ التَّكليفِ الدِّينيِّ .....

الفَصْلُ الثَّامِنَ عَشَرَ 78

الجُدْجُدُ (صَرْصُورُ اللَّيْلِ) .....

الفصلُ التاسِعَ عَشَرَ 80

الكَأسُ المَكْسُورةُ .....

الفَصلُ العِشرونَ..... 82

شِمعون بار يُوحاي .....

الفَصلُ الحادِي والعِشرونَ..... 86

الذَّنبُ.....

القِسمُ الثّاني:..... 90

عُشُّ العُصْفُورِ.....

الفصلُ الثاني والعِشرونَ..... 91

الأَمَلُ .....

الفصل الثالثُ والعِشرون 93

قِصَصٌ عَنِ الطُّيُورِ.....

الفصلُ الرابعُ والعشرونَ..... 99

نِعَمُ عِيدِ الشُّكْرِ .....

الفَصْلُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ.....103
الوَلَدُ البِكْرُ .....
الفَصْلُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ.....108
حانوكاه – عِيدُ الأَنْوَارِ .....
الفصلُ السابعُ والعشرونَ.....111
الإيمانُ .....
الفصلُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ.....115
لُغَةُ اللهِ .....
الفَصلُ التّاسِعُ وَالعِشرُون.....118
الإِشَاراتُ وَالأَحلَامُ .....
الفصلُ الثّلاثونَ.....120
العائِلَةُ.....
الفصلُ الحادي والثلاثونَ.....124
الصَّحافِيُّونَ .....
الفصلُ الثَّاني والثَّلاثونَ.....127
الألَمُ وَالمَغفِرَةُ.....
الفصلُ الثّالثُ والثّلاثونَ 129
صَمْتُ اللهِ .....
الفَصْلُ الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ.....132
مَرَاتِبُ المُعَانَاةِ.....
الفَصْلُ الخامِسُ وَالثَّلَاثُونَ.....134
عِيدُ البُورِيم - عيدُ المَساخِر.....
الفَصْلُ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ.....137
مَانْتَرَا جَدَّتِي.....
الفصلُ السّابعُ والثّلاثونَ 141
التَّواضُعُ.....
الفَصْلُ الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُونَ.....144
الجَنَّةُ.....

الفَصلُ التّاسِعُ وَالثَّلاثُون 146

الغَزالَةُ .....

الفَصْلُ الأَرْبَعُونَ 149

ذِكْرَى زَوَاجِنَا .....

الفَصْلُ الحَادِي وَالأَرْبَعُونَ 151

ما لم أكن أعرِفُه .....

الفَصْلُ الثَّانِي وَالأَرْبَعُونَ 153

عِيدُ الْفِصْحِ الْيَهُودِيُّ عَامَ 2002 .....

الْفَصْلُ الثَّالِثُ وَالأَرْبَعُونَ 155

سُلَّمُ يَعْقُوبَ .....

الفَصْلُ الرّابِعُ وَالأَرْبَعُونَ 159

قِصَّةٌ أُخْرَى عَنْ شِمْعُونَ بَار يُوحَاي .....

الفَصْلُ الخَامِسُ وَالأَرْبَعُونَ 161

مُؤَسَّسَةُ قُوبِي مَانْدِل .....

الفَصْلُ السّادِسُ وَالأَرْبَعُونَ 164

نَوَارِسُ عَلى الشَّاطِئِ .....

الفَصْلُ السَّابِعُ وَالأَرْبَعُونَ 166

عُشُّ الطَّائِرِ .....

الفَصْلُ الثَّامِنُ وَالأَرْبَعُونَ 172

بَعْدَ عامٍ مِنَ الفَقْدِ وَالجُرْحِ .....

الفَصْلُ التّاسِعُ وَالأَرْبَعُونَ 174

مَقالَتانِ لِقوبي .....

مُلحَق: عن المؤسّسة 178

الشكر والتقدير 180

"كان عليّ أن أتعلم كل ما أستطيع عن الروح. لقد انتقل إلى عالم آخر الآن. ولو كان قد ذهب إلى الصين، لكنتُ سأرغب في معرفة كل شيء عن الصين. أردتُ أن أتعمّق في كلّ ما يتعلّق بمكان وجوده."

شارون وينستوك، والدة يتسحاق، الذي قُتل في عام 1993م في هجوم إرهابي في إسرائيل.

"مَن يُهَيِّئُ لِلْغُرَابِ صَيْدَهُ، إِذْ تَنْعَبُ فِرَاخُهُ إِلَى اللهِ، تَائِهَةً لِغِيَابِ قُوتِهَا؟"

سفر أيوب، المقطع الثامن والثلاثون، الآية الحادية والأربعون

تقديم الطبعة العربيّة بقلم ميخال رزنيك

ليس كتاب "نِعمةُ القلبِ المُنكَسِرِ" مجرّدَ مذكّرات، بل هو صرخةٌ من أعماقِ النّفس المُحطّمة، نفسِ أمّ مفجوعة، تمتدُّ نحو السماء بعد أن خسرَتْ أغلى من على قلبها.

شيري ماندل، هي كاتبةٌ أمريكيّة – إسرائيليّة وأُمٌّ مفجوعة، فقدت ابنها البكر، قوبي، وهو في الثالثة عشرة من عمره، في عملٍ إرهابيٍّ وحشيّ. إذ قُتل مع صديقه يوسف إشران على يد إرهابيّين فلسطينيّين قرب مستوطنة تكواع اليهوديّة في شهر أيّار عام 2001. لكنّ هذا الكتاب لا يروي تفاصيل الجريمة، وليس كتابًا سياسيًا ولا يهدف إلى توجيه الاتهامات.

بل هو كتاب عن الحزن والحداد، وعن الحبّ، وعن الإيمان والروحانيّة. عن الطرق الغامضة التي يمكن للنفس أن تنكسر فيها... ومع ذلك تستمرّ. يُعبِّر هذا الكتاب عن رحلةٍ مقدّسةٍ تخوضها أمٌّ في دروب الفقد، والأمومة، والروحانية اليهوديّة، وصولًا إلى نور الشفاء.

بشجاعةٍ مذهلة وصدقٍ نادر، تفتح شيري أعماق روحها المجروحة أمامنا، وتدعونا للدخول لنشهدَ كيف تعلّمت أن تعيشَ مع ما لا يُحتمل، وكيف تُحوِّلُ ما تضيق العبارات عن وصفه إلى صلاةٍ، وذكرى، ومعنى، وشفاء.

هذا كتابٌ متجذّرٌ في الإيمان اليهوديّ، لكنّه ينبع من أسئلةٍ ذات صدىً إنسانيٍّ وعالميّ: كيف نحتمل ألمًا لا دواء له؟ كيف نكلّم الله حين يغدو الوجع أثقل من الكلام؟

لماذا قرّرتُ ترجمة هذا الكتاب إلى العربيّة، وهي لغة من وُصفوا على الدوام بأنّهم "الطرف الآخر" في صراعٍ مؤلمٍ لا نهاية له؟ وهي لغة الذين قتلوا قوبي، ابن شيري؟

لأنّ قوّة هذا الكتاب تتجاوز اللغات، والحدود، والحروب. لأنّه ليس كتابًا يتمحور حول السياسة، بل هو كتابٌ عن الحقيقة الإنسانيّة الخالصة.

ابن شيري، قوبي ماندل، قُتل على يد إرهابيّين، لا على يد "العرب"، ولا على يد "الفلسطينيّين"، بل على يد رجالٍ اختاروا الكراهية بدل الإنسانيّة.

وإنّ ترجمة هذا الكتاب إلى العربيّة ليست طمسًا للألم، بل تحدٍّ له. وهي إعلان بأنّه رغم محاولة الإرهابيّين أن يُسكتوا صوت هذا الطفل ذي الثلاثة عشر عامًا، فإنّ قصّته ستُروى، لا لأولئك الذين أحبّوه فحسب، بل لأولئك الذين تربّوا على كراهيته أيضًا.

أهدي هذه الترجمة إلى القارئ العربيّ بإخلاصٍ وإيمان: إيمانٌ بأنّ حزن أمٍّ يهوديّة يمكن أن يُسمَع ويُحترم، حتى من قِبَلِ أولئك الذين لم يتعوّدوا على رؤية الأمهات اليهوديات إلّا عبر عدسة السياسة. وإيمانٌ بقوّة الحكاية حين تلامس القلب، حتى قلب من اعتُبروا أعداءً. وإنّه إيمانٌ مؤلم، وجريء، بل يكاد أن يكون معجزة من قبل شيري، بأنّ الروح قادرة على الكلام، حتى بلغَة أولئك الذين قتلوا ابنَها.

وهذه الترجمة أيضًا دعوة صريحة للعرب:

هل ستُصغون إليها، لا كخصوم، بل كبشرٍ يشاركونها الإحساس والفقد؟
هل ستسمحون لقلوبكم أن تشعر بألم الأم اليهودية؟
هل سيكون اللقاء بينكم وبينها في الحقل المقدّس للفقد والحبّ، بدل ساحة المعركة؟

هذه الترجمة لا تنكر الصراع، بل تخترقه، لا بتجميل الحقيقة، بل بتكريمها:
طفلٌ في الثالثة عشر من عمره قُتل بوحشيّة.
أمٌّ وجميع أفراد عائلتها تحطّموا.
ومع ذلك، لجأت إلى الكتابة لتداوي جراحها، وأسّست مؤسسةً لتقدم يد العون إلى غيرها من الثكالى.
لم تُعِد بناء حياتها على أساسٍ من الانتقام، بل على التعاطف.

هذه الترجمة لا تهدف إلى إقناع الناس أو تغيير وجهات نظرهم، بل تسعى إلى أن تفتح بابًا ينفذ منه صوت أمٍّ مكسورة القلب، هامسًا عبر المسافة بهذه الكلمات: قُتل ابني، لكنّني اخترتُ الحياة بلا انتقام. اخترتُ أن أروي قصّتي، وقصّة قوبي، بلغتك أنت.

تقول شيري:

> "لن أستسلمُ للغضب أو اليأس .غالبًا ما يسألني الصحفيون: 'ألا تشعرين بالغضب؟' فأجيبهم قائلةً: بالطبع، أنا غاضبة. لكن هذا ليس ما أُكرّس طاقتي له، وليس ما يدفعني للاستيقاظ كل صباح ... لكنني أؤمن بأن من بلغ هذا الحد من الكراهية والوحشية قد مات بالفعل .تمامًا كما يقول التلمود: الأشرار ميتون حتى وهم أحياء، والصالحون أحياء حتى بعد موتهم."

هذا الكتاب هو هديّة وتحدٍّ في الوقت ذاته، وهو نداءٌ للإصغاء.

فالصراع الإسرائيليّ الفلسطينيّ عميقٌ ومؤلمٌ ومستمرّ بلا حلول، لكنْ إذا نظرنا خلف السياسة، فإننا نشاهد أُمًّا مفجوعةً لم تختر الكراهية ولا الثأر، بل اختارت بدلًا منهما الإيمان والتحلّي بالشجاعة وإيثار الرحمة.

تمسّكت شيري ماندل بإيمانها اليهوديّ وسط عذابٍ لا يُحتمل. ناضلت ،وصرخت، وبحثت عن الله، ثم اختارت أن تحيا. لا أن تنسى ولا أن تغفر ما لا يُغتَفر بل أن تحوّل الحزن إلى نورٍ يجلب الحياة.

اختارت أن تخدم مجتمعها، وأن تُقَدِّمَ الدعم للأُسر الثكلى، وتجعل من قلبها المنكسر مصدرًا للشفاء.

وتقول شيري أيضًا في الكتاب:

> "أفضل طريقة لتكريم ابني الحبيب قوبي ليست عبر الكراهية، بل في إبقاء روحه حية. إذا استسلمتُ للغضب والكراهية، فسأصبح واحدةً من الكارهين، ككائنٍ طفيليٍّ يتغذّى على الخوف والحقد. وإذا عشتُ فقط من أجل الانتقام، فهذا يعني أن القتلة قد انتصروا... لأنهم دمروني. لكنني لن أدع الكراهية تمزّق ما يربطني بهذا العالم، أو تحرق عائلتي، أو تحوّلني إلى رماد."

كلّ أمٍّ رؤوفة، مهما كانت خلفيّتها، تتمنّى لابنها حياةً آمنة وكريمة وسالمة. وهذا الكتاب هو صوتُ أمٍّ فقدت ابنها، ومع ذلك اختارت أن تؤمن، وأن تبني، وأن ترى حتى في قلبها المنكسر... نِعمة.

أودّ أن أعبّر عن امتناني العميق للدكتورة دانيئيل غورڤيتش، مديرة مركز دانغور للتوحيد الإبراهيمي، على إيمانها العميق بأهميّة ترجمة كتبٍ يهوديّة ملهمة وذات طابع إنسانيّ وروحانيّ إلى العربيّة، وعلى دعمها وتمويلها السخيّ لهذا المشروع من خلال المركز الذي ترأسه.

كما أتوجّه بالشكر الجزيل من القلب إلى مؤلفة الكتاب شيري ماندل، التي أجابت عن كلّ تساؤلاتي بلطفٍ وصبر كبيرَين، وبتشجيعٍ لا ينقطع، وجعلتني دائمًا أشعر أنّها سعيدةٌ حقًّا بأن تكون شريكةً في مشروع هذه الترجمة.

لقد أبكتني شيري حين أرسلت لي رسالة تقول فيها:

> "شكرًا لكِ. يُسعدني كثيرًا أن يُخلَّد ابني قوبي في قلوب الناس ويكون قوّة إيجابيّة في هذا العالَم. أظنّ، بل أشعر، أنّ روحه لا تزال تتحدّث إلينا... وهي تتحدّث الآن بالعربيّة من خلالكِ. لطالما كان قوبي يفاجئني، وأظنّه لا يزال حتّى الآن."

أخيرًا وليس آخرًا، أُقَدِّمُ خالص شكري وبالغ امتناني لأعضاء مؤسّستي، الذين يدعمونني في كلّ ما أقوم به، لا في هذا المشروع فقط، بل في كلّ مبادراتنا: ليؤوراه، وروتي، وشموئيل، وعزية، وچوئيل، شكرًا لكم حقًّا من أعماق قلبي.

مع كامل امتناني،
ميخال رزنيك
المؤسِّسة ومديرة المشاريع في مؤسَّسة "همزة الوصل"
The Connecting Hamza NGO

القِسمُ الأول:

الكَهْفُ

***يحتوي هذا الكتاب على صورٍ حقيقية لشيري ماندل، وابنها قوبي، وعائلتها وأصدقائها، بالإضافة إلى صور رمزية أُضيفَت لأغراض توضيحية فقط.**

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الكَهْفُ

يقعُ هذا الكهفُ في الوادي الذي يبعدُ حوالي ثمانمائة مترٍ عن منزلي في قرية تكواع*. وعلى مدى آلاف السنين، حفرت مياه الأمطار مدخلَ الكهفِ في هذا الصخر الجيريّ، وهو كهفٌ يواجه البحر الميت بينما يكون ظهره باتجاه أورشليم القدس، التي يبعد عنها حوالي ستة عشر كيلومترًا ولا يمكن لأحد أن يشق طريقه إليهِ إلا نُزولًا عبر الممرات الوعرة التي يجوبها الرعاة، وقد اكتست بالزهور البرية والأعشاب التي تمتد على مدّ البصر. وإنه لمن السهل أن يتعثر المرء على تلك الصخور الحادة التي تبرز من سطح الأرض.

وقبل ألفي عامٍ، كانَ الفارّون والهاربون الذين يريدون النجاةَ بحياتهم يلجؤون إلى هذا المكان. ولاحِقًا خلال القرن الخامس للميلاد، كان هذا الوادي ملاذًا لمن يبحثون عن الاعتزال والابتعاد عن البشر. وقام الرهبان بتجويف بعض هذه الكهوف بغرض الدراسة والصلاة فيها، بيدَ أنّ السواد الأعظم من الكهوف لا يصلحُ للسكنِ أو العيش.

ومن ضمنِ هذه الكهوف يوجدُ كهفٌ واحِدٌ على وجهِ التحديد هو أكثرها فزعًا ورُعبًا بالنسبة لي: إنّهُ الكهفُ الذي قضى فيه طِفلي وفلذةُ كبدي السّويعات الأخيرة من حياته.

إنّ الكهفَ هو مكانٌ يطغى الضيقُ والظلامُ والفَزَعُ على ملامحه، بل ويكادُ يكونُ ظلامهُ مشابهًا للظلام الحالكِ الذي كان يسودُ الكونَ قبلَ أن يخلقَ اللهُ النور. الكهفُ مكانٌ رطبٌ وزلق، وهو تجويفٌ تتردّد في أصدائه الأسرار وكلّ ما ضاع فيه. أُناسٌ مثل رسول الله موشيه (موسى) وشِمعون بن يوحاي والنّبي إلياهو (إلياس) قد عاشوا وسكنوا في الكهوف، فتعرّفوا على اللهِ ووجدوه بين شقوقِ الصخور وتصدّعاتِها. لقد ولج كل واحد منهم تلك المساحة الضيقة المُشبَعة بالخوف والألم والظلام، ليعثر على الحقائق التي ينشدها.

لكنّ الحال كان مُختَلِفًا مع طِفلي وفلذةِ كبدي قوبي ابنِ الثلاثة عشرَ ربيعًا، فقد دَخَل إلى الكَهفِ ولم يَخرُج منه. كنت أظنّ أنني وعائلتي سنظلّ تائهين في كَهفِ الحزن والأسى، ضائعين إلى الأبد في متاهةٍ من الظلام الدامس، حيث لا يمكن أن ترى يدكَ من شدّة عتمَته، ولا خيار أمامك سوى أن تثق بأن الأرض ستظلّ موجودةً تحت كل خطوة تخطوها.

ملاحظة توضيحية من المُترجِم: تكواع كانت قريةً قديمة تقع على الحدود بين صحراء يهودا وجبالها، على بُعد نحو عشرة كيلومترات جنوب شرق بيت لحم. وقد ورد ذكرها مرّاتٍ عدّة في المصادر التاريخية وفي الكتاب المقدّس اليهودي، بوصفها جزءًا من ميراث سِبط يهودا، أحد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر.

تظهر تكواع في عدة مواضع من الكتاب المقدّس اليهودي:

في سفر صموئيل الثاني، المقطع الرابع عشر، الآية الثانية: يستعين يؤاب بامرأةٍ حكيمة من تكواع لتخاطب الملك داود بمَثَل، وتساعده على المصالحة مع ابنه أبشالوم، ما يدلّ على وجود تكواع في زمن داود وارتباطها بسِبط يهودا.

في سفر أخبار الأيام الثاني، المقطع الحادي عشر، الآية السادسة: يقوم الملك رحبعام، ابن سليمان، بتحصين عددٍ من مدن يهودا، ومن ضمنها تكواع، ما يُبرز أهمّيتها الاستراتيجية.

في سفر عاموس، المقطع الأوّل، الآية الأولى: يُعرَّف النبي عاموس بأنّه راعٍ من تكواع، ما يرسّخ موقعها ضمن أراضي يهودا.

في سفر نحميا، المقطع الثالث، الآيتين الخامسة والسابعة والعشرين: يُذكر أهل تكواع (التكوعيّون) ضمن المشاركين في ترميم أسوار أورشليم القدس، تأكيدًا لانتمائهم إلى سِبط يهودا.

كما ورد ذكر تكواع أيضًا في الترجمة السبعينية، الترجمة اليونانية القديمة للكتاب المقدّس اليهودي، ضمن قائمة مدن سِبط يهودا.

الفَصْلُ الثَّانِي

الوِعاءْ

قوبي هو طفلي الأوّل، وهو من علّمني كيف أكونُ أُمًّا. وقد رَزَقني اللهُ بأربعة أطفال، فتح ثلاثة منهم عُيونَهم على الحياة خلال ثلاث سنوات متتالية، ثم جاء الرابع بعد أربع سنوات. كان طفلي قوبي بمثابة صمّام الأمان، يُساعدني على الحفاظ على حس الفكاهة في خضمّ الأوقات العصيبة التي واجهتها أثناء تربيتي ورعايتي لأطفالي. ذات يوم، عندما كان قوبي يبلغ من العمر أربعة أعوام، قدّمت لهم الحساء، فسقط حساؤه على الطاولة والأرض. بدأت بتنظيفه، وما إن انتهيت حتى أسقط طفلي الآخر دانيئيل حساءه أيضًا. وعندما انتهيت من تنظيف ذلك، سكبت طفلتي إليعانه حساءها. عندها استشطت غضبًا وصرختُ وكدت أفقد أعصابي إلى أن جاء قوبي وقال لي بهدوء: "لا تقلقي يا أمي، إنه مجرد حساء دجاج، لا أكثر." كان محقًّا، فكلماته هدّأت من روعي وأطفأت نار غضبي. في الحقيقة، كان قوبي يتمتّع بأسلوب مُذهل في وضع الأمور في نصابها وسياقِها الصَّحيح.

لقد كان بإمكاني أن أظلَّ طريحة الفراشِ طيلة حياتي وأنا أندبُ طفلي، وكان بإمكاني أن أظلَّ مُنكَسِرةً بينما مشاعر السّخط على حياتي وقَدَري تملأ داخلي، لكن هنالك أمرٌ ما بِداخلي يرفضُ تمامًا أن أكونَ مُنكَسِرةً بِغَضِّ النظر عن حَجم الألم الذي يختَلِجُ صَدري، أمرٌ يُحرِّكني من الأعماق لأمضي قُدُمًا صَوبَ النُّور.

لقد تجلَّت أمامِيَ حالة التماسك الروحي والاكتِمال هذه قبل فترة ليست بالبعيدة، تحديدًا أثناء الحفر في أحد المواقع الأثرية بصُحبة عشر عائلاتٍ ثكلى أخرى. لقد أسّسنا جمعية تُخلِّدُ ذِكرى طفلي قوبي، أطلقنا عليها اسم "مؤسسة قوبي مَاندِل" (The Koby Mandell Foundation)، ومن ضِمن أنشطة هذه الجمعية، كنّا نُخيِّمُ في الخَلاء برفقة عائلاتٍ فقدت أحباءها بسبب العمليات الإرهابية، كوسيلة لشفاء آلام الروح والتغلب على الحزن والأسى الذي تجرّعتهُ هذه العوائل. وهدفنا من جلبِ العائلات إلى هذا الموقع الأثري والحفر فيه هو تقريب العائلات من بعضها البعض عبر نشاطٍ ممتع قد يُجسِّد مجازيًا ما تحتاجه العائلة بأكملها أحيانًا في حالة الحزن: أن نغوصَ في أعماق هذا الحزن معًا، بينما يُعَبِّرُ كل فرد عن حزنه بطريقته الخاصة.

وخلال هذا النَّشاط كنّا في الموقع الأثري بيت غوفرين، الذي يقع على مرمى حجرٍ من منطقة كريات غات. تنتشرُ الكهوفُ والمغارات في هذا الموقع، وتحتوي على معاصر زيتونٍ قديمة وآثارٍ أخرى. وكانت مجموعتنا تمشي تحت المطر حتى وصلنا إلى أحد الكهوف، ونزلنا إلى أعماقه المظلمة؛ فكان الأطفال يركضون بينما الأهل يخطون بحذرٍ شديد. وبدأنا نحفر بين الأنقاض القديمة. قبل أكثر من ألفي

عام، غزت السلالة الحَشمونية هذه المنطقة، وأجبرت الإدوميين على المغادرة، تاركين ممتلكاتهم خلفهم.

وقد شَرَحَ لنا المُرشِدُ الذي كان بصُحبتنا بأننا موجودون في قَبوِ أحد البيوت التي فرّ منها أصحابها. فأخَذنا المجارف وبدأنا نحفر في باطن الأرض، ثمّ نُغَربِلُ الترابَ الموجود في الدلاء ونكتشفُ شظايا من الفخار والخزف، وهي شظايا يمكن تمييزها بأنها مقابض مكسورة لأكواب أو قواعد لمزهريات دائرية الشكل. وبالفِعل حفرنا معًا، نحن والعائلات وأبناؤهم يدًا بيدٍ لبضع ساعات، وفجأة استخرجَ أحد الموجودين وِعاءً من الأرضِ يُشبه في حجمه حجم قارورة النبيذ، وكان وِعاءً فخّاريًا مصنوعًا من الطين، سَليمًا يخلو تمامًا من أي كُسور أو صُدوع.

ويا له من أمر غريبٍ أن تجد وعاءً سليمًا كامِلًا مُتكامِلًا على الرغم من هذه السنين الطويلةِ والأجيال العديدة التي تعاقَبت فوقه! والحالُ نفسهُ ينطبقُ على من فَقَدوا أحبّاءهم وأعزّاءهم مثلنا، فهنالك أمرٌ داخلنا يجعلنا نتشبّثُ بالحياة ونرفض الاندثار أو الانكِسار تحت وطأة المِحن. إننا نحنُ البشرُ بمثابة وعاءٍ تملؤه الألوهيّة، ومهما شَقّتنا الكسورُ والتصدّعات، فإن أرواحنا تبقى في حالةٍ من الكَمال والاكتمال، حتى وإن لم نكن نحن كذلك.

إنّني لم أصِل إلى هذه القناعة وهذا الاعتقاد الكامن في مفهوم الروح بسُهولة، فعادةً ما يخبو إيماني أو يزول، لكن هذه هي طبيعةُ إيماني. والتّوراةُ تَتطرّقُ بين ثناياها إلى خلق الله عزّ وجلّ للسماوات والأرض، تحديدًا في الآية الثانية من المقطع الأول من سفر التكوين والتي تقول: "ورِياحُ اللهِ تَهُبُّ عَلى وَجهِ الماءِ". وفي هذا الصدد يُشبّه الحاخام راشي* روحَ الله بالحمامة التي تحوم فوق عشّها. فالحضور الإلهي والسَّكينة يُشبهان ذلك: لا يُجبرانك عادةً على التعرّف عليهما، بل يغطّيانك، ثم يطيران بعيدًا؛ إنهما أمران لا يظلان ساكنين بل يختفيان في اللحظة التي نبدأ فيها بالبحث عنهما.

ومنذ أن خَيَّمت علينا فاجِعةُ موتِ ابني قوبي، شَعرتُ بأنّ روحَ اللهِ تحومُ عليّ، تومِضُ وتختفي أحيانًا ثم تعودُ أدراجها. وكانت هناك لحظاتٌ تجلّ شعرتُ فيها بأنّ اللهَ يُلامسُني ويُرشِدُني ويُحرِّكني ويحتضِنُني. إنها لحظاتٌ تشعرُ بها في أعماق الذات، أشبه بنوافذ صغيرة تُفتح أمامي لكي أرى موتَ ابني بمنظورٍ مختلف، وكأنها قبسٌ من نور يكشف لي زاويةً أخرى من الحقيقة.

وكم أشعرُ في كثيرٍ من الأحيان بأنني أحاولُ أن أنسجَ شيئًا جَميلًا من خيوط هذا الكَمّ الهائل من الأسى والحزن الذي يختلجُ صدري، وكأنني أسعى لجعل غيابه حضورًا. لكنها شبكة عنكبوت في مُنتهى الوَهن والهشاشة، لدرجة أنها قد تتلاشى تمامًا بمُجرّد أن يُلامسها طَرف خنصر طفلٍ صغير. إنني أعي تمامًا هذه الحقيقة، لكنّي لا زلتُ أشعر في قرارة نفسي بأنّ رِسالتي تكمنُ في أن أنسجَ مِن قُوّةِ وجَمالِ طفلي قوبي شيئًا يترك أثرًا في هذا العالم.

---

*الحاخام شلومو يتسحاقي، أشهر مفسّري الكتاب المقدّس اليهودي، والذي عاش في فرنسا في القرن الثاني عشر.

إنني أعي تمامًا بأنّ قلبي المحطّم لن يعود أبدًا كما كان في السابق، وسأظلُّ دئمًا أتوق إلى طفلي قوبي، وسأظلُّ دائمًا أشعر بألمِ غيابه وحُرقةِ فقدانه. ومع ذلك، فإنّ بناءَ قلبٍ جديد يظلُّ ممكنًا. أستحضر هنا ما حدث الصيف الماضي بعد أن شاركت ابنتي إليعانه في مخيمٍ صيفيّ برفقة أطفال فقدوا آباءهم أو أمهاتهم أو أشقاءهم بسبب العمليات الإرهابية، حيث أوضحت لي سبب محبتها لهذا المخيم بقولها: "شعرت وكأننا لمسنا قلوبَ بعضنا بعضًا، ووضعنا قلوبنا جميعها معًا لنخلق قلبًا جديدًا". هذا بالضبط ما أتمنى أن يفعله هذا الكتاب: أن يساهم في خلق قلبٍ جديد لك، لأنّ الكثيرين منا يعيشون بقلوبٍ منكسرة. ولكن عندما تلامس القلوب ال المنكسرة بعضها البعض، يظهر قلبٌ جديد—قلبٌ أكثر انتفاحًا ورحمة، قادرًا على لمس الآخرين، وقلبٌ يسعى إلى الله عزّ وجلّ.

وهَذهِ هي نِعمَةُ القَلبِ المنكسر.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

العَالَمُ الجَدِيدُ

لم يكن لدى ابني قوبي أي نية لأن يموت شهيدًا. كل ما كان يخطط له هو التغيب عن المدرسة مع صديقه يوسف—كلاهما بريئان كأنهما إحدى شخصيات الكاتب الشهير مارك توين، توم سوير. مارك توين يكتب: "لقد تَغَيَّبَ توم عن المدرسة وقضى وقتًا ممتعًا". قوبي ويوسف كانا أيضًا يبحثان عن وقت ممتع، ولكن بدلًا من ذلك، قُتلا.

صبيان صغيران - أحدهما في الثالثة عشرة والآخر في الرابعة عشرة - يخرجان في نزهة في وادٍ على بُعد حوالي مئة متر فقط من منزلنا في قرية تكواع، يسلكان طريقًا متعرجًا باتجاه البحر الميت على بُعد ستة عشر كيلومترًا. أحيانًا، إذا كان الطقس صافيًا أو بعد أن تفتح السماء أبوابها لتمطر، يمكنك أن تنظر من أعلى تلال يهوذا لترى لسان البحر الميت، بلونه الرمادي المزرق، يظهر من خلال شق في الجبل. وإذا لم تكن تعرف هذه المنطقة ولم تألف هذا المشهد، قد تظنه سحابة، لكنه في الحقيقة لمحة من أدنى نقطة على وجه الأرض.

لقد تغيرت رؤيتي إلى الأبد، وأصابها ضرر لا يمكن إصلاحه. ومع ذلك، أحب أن أتخيل أن ابني الجميل، قوبي، لا يزال ضمن مجال رؤيتي، ولكنه غير مرئي في الوقت الحالي. لدي شعور بأن الحجاب الذي يفصل بيني وبينه سيزول يومًا ما، وستنقشع الغيوم، وسيظهر مجددًا، قويًا وشجاعًا ووسيمًا. وسأعرفه فورًا بصوته، برائحته، وباحتضانه الدافئ والقوي.

لدي إحساس عميق بأنه، رغم أنني لا أراه، فهو مع ذلك يرفرف فوقي، مثل الفراشات التي تحوم فوق رؤوسنا في الوادي. قبل أسبوع من قتله، أخبرني جاري تسفي، وهو خبير حاسوب هاجر إلى إسرائيل من كاليفورنيا، أنه كان في نزهة في الوادي وأنّ أسرابًا من الفراشات البيضاء كانت ترفرف فوق رأسه بينما كان يمشي هناك مع ابنه. وفي صباح يوم قتله، كان تسفي وابنه أيضًا في الوادي، ولكن في منطقة أخرى منه، على بُعد حوالي مئتي متر من الصبيين. لم يسمع تسفي وابنه أي شيء سوى صمت الوادي.

وعلى الرغم من أن تسفي لم يسمع مقتل ابني أثناء وقوعه، إلا أن موت ابني لم يمر دون أن يترك أثرًا، وهذا ما حدث: في وقت قريب من وقوع حادثة القتل، خرجت غزالةٌ مسرعةً من الوادي واندفعت إلى قريتنا، إلى ساحة منزل امرأة تدعى زِهافاه تعمل في حضانة الأطفال المحلية. اقتربت الغزالة حتى

وقفتْ عند نافذتها وكان فراؤها مغطى بالطين المبلّل وساقاها ملطختين بالدماء. شعرت زِهاڤاه بالخوف، فقذفتْها بحجر، لكنها لم تتحرك ولم تفهم زِهاڤاه لماذا لم تغادر الغزالة ساحة منزلها.

أعتقد أن الغزالة لم تشأ العودة إلى الوادي لأنها كانت مذعورةً، فقد رأت الفظائع التي ارتُكبت بحق طفلين بريئين. كانت خائفةً من الرجوع إلى المجرى الجاف، إلى الوادي، إلى بيتها، لأنها أدركتْ أن مكانًا كان يومًا طاهرًا قد تلطخ للأبد بالشر المحض الذي يمكن للبشر أن يُلحقوه حين يكرّسون أنفسهم للكراهية تجاه الآخرين.

الحقدُ يمكنه أن يسلبَ الإنسان روحَه، لكنني لن أدعه يفعل ذلك. بل سأتعلم عن الروح، وعن "الأرض" الجديدة، أو العالم الجديد، الذي أشترك فيه مع قوبي. سأتعلم عادات هذا العالم ولغته، وبهذه الطريقة سأتعلم أن أفسر الإشارات التي قد تفوتني لو لم أتعلم هذه اللغة وهذه العادات. وسأتعلم أيضًا كيف أتلقى الرسائل الإلهية التي أُرسِلت إليّ من خلال الإشارات عن النبي إلياهو، والحاخام شمعون بار يوحاي، والـ"مَشِياح" المنتظر (المخلص المنتظر في الديانة اليهودية)، وعن الطيور، والملائكة، وجوهرة الروح. أشعر الآن أن حياتي أشبه بلغزٍ روحي، مليء بالرموز التي تنتظر أن يُفكّ لغزها. فمنذ وفاة قوبي، مررت بلحظات شعرت فيها أنني أطل عبر ستار الواقع اليومي العادي، وألمس شيئًا أعظم وأعمق وأكثر استثنائية من ذلك الواقع. أحيانًا أفكر أن الله وابني الحبيب قوبي يتعاونان معًا ليُحضِّرا لي هذه اللحظات الاستثنائية. أنا أتواصل مع ابني من خلال الدعاء، ولا يسعني إلا أن أشعر أن قوبي يرسل إليّ بركته من السماء. وآمل بصدق أنك، أيها القارئ، حين تقرأ قصتي، ستنال البركة كما نلتها أنا، وستصبح قادرًا على أن تتعرف بشكل أفضل على البركات المختبئة وسط ألمك ومعاناتك، لكي تتعلم كيف تقود حياة مليئة بالمعنى.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

اِنْقِبَاضَاتُ الْمَوْتِ

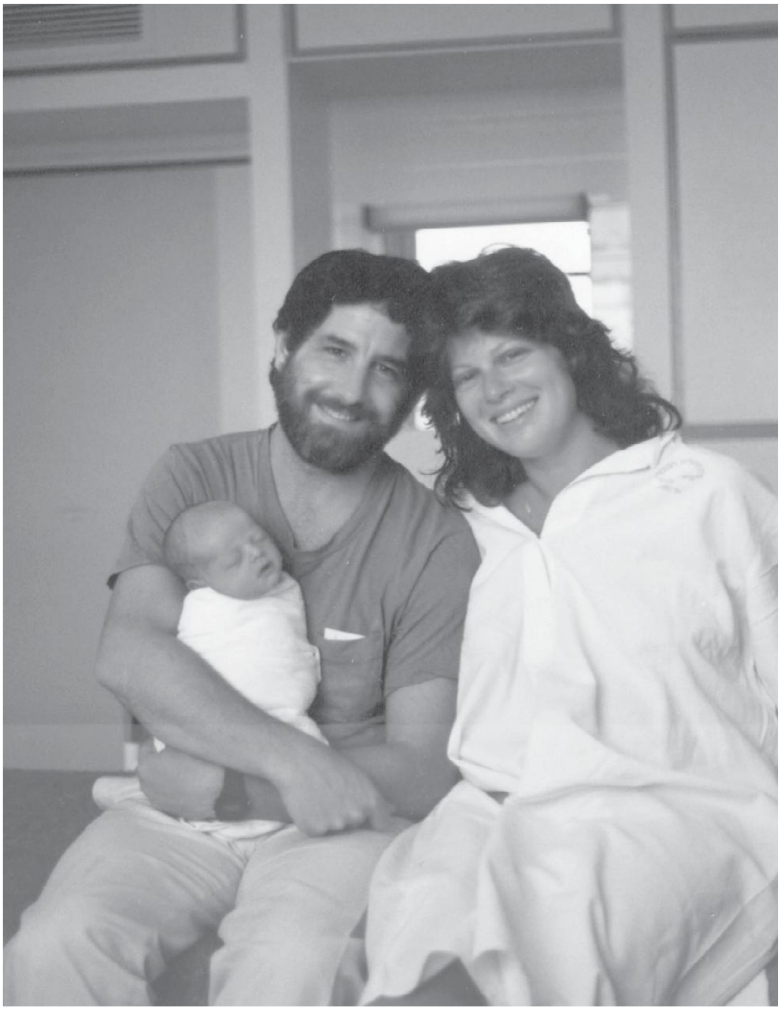

أدركتُ أن حُزني على ابني يشبه إلى حدٍّ كبير ألم المخاض والولادة، فالانقباضات المؤلمة لموته تندفع عبر جسدي كعقدةٍ تُشدّ أكثر فأكثر حتى تعصف بأنفاسي، وكأنني أموت معه. رحمي أصبح قبرًا، يجثم ثقله عليّ، فأشعر بآلامه داخل بطني محفورةً في أعماقي إلى الأبد. ورغم أنني أتمنى من الله أن يخفّف هذا الألم الجارف يومًا ما، إلا أنني أعلم أن الألم والحزن لن يغادراني أبدًا.

ومع ذلك، أشعر وكأنني أحمل في أحشائي شيئًا آخر—حملًا بالموت ذاته. وكأنني أُولد ذاتًا جديدة ، ذاتًا مختلفة وُلدت من رحم الألم، تستطيع الإبحار في أعماق المعاناة، وتواصل، رغم ذلك، السير في

دروب الحياة. أشعر بأنّ ذاتي الجديدة تعيش في عالمين، هذا العالم وعالم الروح ،وإنّي أدرك أن عليّ أن أجد طريقًا إلى الخلود الذي يسكن في داخلي، ذلك الخلود الذي يمكنني من خلاله أن ألتقي بابني الحبيب، وفلذة كبدي، حيث هو الآن.

أحاول أن أتخيّل ملامح وجه ابني، فكم يصعب عليّ أن أراه بوضوح في ذهني، وأن أستعيد حضوره الجسدي من أعماق ذاكرتي. لن يتسنّى لي بعد اليوم أن أتأمل وجهه الجميل، أن أتمعّن في تفاصيله، أن أراقب ملامحه وهي تكتسب ملامح الرجولة الناشئة، إذ بدأ حاجباه يمتلئان شيئًا فشيئًا، فيزدادان كثافة عند الحافة الداخلية، حيث يقترب أحدهما من الآخر كما لو كانا على وشك التلاقي. لقد كنتُ أجد متعة في مراقبة نموّه، فأرى قامته التي كانت تزداد طولًا، وأشعر بالغبطة كلما أصبح أطول. كنتُ أبتسم حين بدأت أولى نُدوب الشباب تتناثر على بشرته، وأتنفّس رائحته وهي تتغير مع عبوره التدريجي من الطفولة إلى الرجولة. كنتُ أشعر أنه كلما كبر، كبرتُ معه أيضًا، كأنّه لم يكن ينمو وحده، بل كنتُ أنمو معه، فتزداد قوّتي كلما أكسبه النمو قوة أكبر. كلما خطا خطوة نحو الرجولة، شعرتُ أنني أخطو معه، أنني أكبر، أشدّ قوّة، وأكثر بأسًا.

أتذكر الليلة التي سبقت مقتله، حين رفعني بين ذراعيه ليثبت لي كم كان قويًا. ثم وقفنا بعدها معًا أمام المرآة، ظهرًا لظهر، لنقيس طولينا، ونقارن بينهما، فكان أقصر مني بأقلّ من سنتيمتر واحد فقط. والآن... لن يصل إلى طولي أبدًا. أنا وحدي مَن عليه أن يكمل النمو نيابةً عن كلينا.

أتذكر يوم ولادة قوبي، وأستعيد فرحة الحمل به، وكيف شعرتُ في عام 1987، حين كنتُ حاملًا به ،بأنّي أحمل في داخلي سرًا مقدسًا، فكنتُ أمشي في العالم وكأنني أختزن في رحمي نورًا لا يدركه أحد سواي. كنتُ أتعجب لماذا لَمْ يخبرني أحد من قبل كم ستكون هذه التجربة مشعّة وسامية، كأن جوهرةً ثمينةً قد وُضعت بداخلي، تتلألأ بديعةً وتفيض بالأنوار والألوان.

قبل أسابيع قليلة من ولادة قوبي، رأيتُ في المنام أنني مستلقية على سرير المشفى، بعد أن أنجبتُ للتوّ، وأمامي استمارة عليَّ تعبئتها، كان فيها هذا السؤال: كيف هي حالة الأم بعد الولادة؟ فأجبتُ دون تردد: نَعيم.

وحين جاء قوبي إلى الدنيا، بعد ثلاث عشرة ساعةً من المخاض، احتضنته بين ذراعيَّ، وتيقّنتُ تمامًا أن ما شهدتُه في حلمي لم يكن سوى الحقيقة ذاتها... نعيم.

ورغم أن قوبي قد وُلد أزرق اللون –بسبب نقص الأكسجين عند الولادة – واضطر الأطباء إلى صفعه ليبدأ بالتنفّس، إلا أنني لم أشعر بالقلق. عرفه قلبي منذ الأزل، واتّصلت روحه بروحي حتّى قبل أن يفتح عينيه على الدنيا. نظرتُ إليه، فإذا به يشبه أفراد عائلة والدي ،وجهه وجه عجوزٍ فتيٍّ، كأنه الجدّ الذي لم ألتقِ به قطّ. لقد كان يبدو وكأنه روحٌ نقيّة جاءت من أرض بعيدة، وما زالت تتشبّث بذلك العالم الذي أتت منه.

والآن، يا بُنيّ الحبيب، يا مهجة فؤادي وقرّة عيني، لقد عدتَ إلى تلك الأرض البعيدة، ومُحِيَت كلمة الـ"نعيم" من حياتي، لكنها، رغم ذلك، الكلمة التي تُعبّر عن حالك الآن، فأنا مؤمنة أنك هناك، في

نعيم. لقد أصبحت جزءًا من تاريخنا اليهودي، ومُتَّ لأنك كنتَ في مكان معزول لا يصل إليه أحد، حيث وجدك فلسطينيون مشبَّعون بالكراهية، فصبّوا عليك جام حقدهم.

تخبرنا التقاليد اليهودية أن روح الإنسان الصالح، حين تعود إلى الله، تكون في حالة من النعيم، إذ تلتقي مجددًا بوجهه عز وجلّ. أتصوّر فرح الله حين استقبلك، حين رأى ذكاءك المتوقد، وصفاء قلبك، وخيرك الفطريّ. ها أنا أراك الآن، يا "مؤرّخ" عائلتنا، تقصّ عليه حكايا أيامنا، وتسرد عليه خبايا السنين. إنّي أتصورك تتوسل إليه أن يَفيض علينا من بركته.

وحين قُتِلتَ، مات جزءٌ مني معك. ثلاثة أيام لم يدخل في جوفي طعام، وأصدقائي يرجونني أن أتناول شيئًا، حتّى قلتُ أخيرًا: سآكل البطيخ. لم أكن أذكر آنذاك أنني تناولته بعد ولادتك، لكن حين تذوّقته، تدفّقت الذكرى أمامي، كأنني أراها رأي العين: فشاهدتُ نفسي في غرفتي في المشفى بعد يومٍ من ولادتك، أُرضعكَ وأحتضنكُ إلى صدري، ثم أتناول البطيخ الذي أحضرته لي صديقتي إيلا. ومع إشراقة الشمس، وبين أصوات العصافير التي غنّت لي سيمفونية من الزقزقات والنداءات، كنا معًا، أنا وأنت، كتلك العصفورة التي تحتضن صغيرها في عشّها، وأحسستُ أن الكون بأكمله كان يَرْضَعُ أو يُرْضِعُ.

واليوم، بعد رحيلك، صار البطيخ يرمز عندي إلى الخصب، إلى الحياة التي تتجلى في امتلاء البطن الحامل، إلى حمرة الخلق الأولى. وكأن دائرة ما قد أُغلقت... ها أنا أتناوله من جديد، وكأنني ألد روحك في ولادة أخرى، روحًا تحررت من قيود الجسد، بوسعها أن تحلّق إلى الله وتنعم بفيض النور والسرور. الألم... كهفٌ قد يضلّك فلا تجد المخرج. لكنّي ألد الآن غاية جديدة لحياتي— أن أحيا بوعي الروح، وأستشعر يد الله في حياتي. إنه مخاضٌ يملؤه الألم، مخاضٌ سيمتد لأشهر، بل لسنوات، وربما لعمرٍ بأكمله.

الألم كهفٌ قد يضلّك فلا تجد المخرج.
الألم رمال متحركة تغرقك في لحظة.

في صباح اليوم التالي للجنازة، كان رأسي يشتعل بالألم. كنتُ طريحة الفراش، أبكي، حين صعدتْ إليّ صديقتي ليئة، الممرضة، وقالت لي وهي تمدّ يدها نحوي بحبة دواء: "خذي هذه" وأعطتني حبة "فاليوم". لكنني هززتُ رأسي وقلت: "لا. لقد أنجبتُ بلا مسكّنات، وسأتجاوز هذا الألم بلا مسكّنات".

أريد أن أشعر بالألم—لأنّني إن انغمستُ في ألمي وعشته بكل جوارحي، إن غصتُ فيه حتى أعماقه، فقد أعثر على مخرجٍ من الضفة الأخرى لفقداني، فأنا لا أزال متألمة، لا أزال أصارع، لكن برؤية مختلفة. وإن لم أفعل، فسأبقى أسيرةً في أرض العذاب إلى الأبد. من يدخل هذا الألم يدرك أن الموت ليس حدثًا بعيدًا، بل هو جزء من نسيج الحياة، جزءٌ حاضرٌ على الدوام. ومن الآن فصاعدًا، الموت هو من سيحررني ويسمح لي برؤية ابني الحبيب قوبي من جديد. من الآن فصاعدًا، لم يعد الموتُ يخيفني.

***

NEW YORK TIMES INTERNATIONAL *THURSDAY, MAY 10, 2001*

2 Jewish Teenagers Are Beaten to Death in the West Bank

By JOEL GREENBERG

TEKOA, West Bank, May 9— Two schoolboys from this Jewish settlement who skipped class to go hiking in a nearby gorge were found bludgeoned to death in a cave today, and the police said they were killed by Palestinians.

Prime Minister Ariel Sharon expressed "deep shock" at the deaths and called them an escalation of Palestinian terrorism against innocent civilians. He accused the Palestinian Authority of failing to stop the violence and of inciting murder in its official news media.

A police spokesman said that the two boys, Yaakov Mandel, 13, and Yosef Ishran, 14, had been battered to death with rocks. "Their heads were crushed," he said. The blood-stained rocks were found near the bodies in Wadi Haritun, a dry river-bed near Tekoa in the Judean Desert south of Bethlehem. The police said that they believed the two boys had died in an apparent chance encounter with their attackers.

The deaths came two days after a 4-month-old Palestinian baby girl was killed by Israeli tank fire and further roiled emotions in a week of spiraling violence that neither side seems able to control.

After the bodies were found, more than a dozen Palestinians were rounded up for questioning from the neighboring village of Tukua, and the road to the village was blocked with a trench. Defense Minister Binyamin Ben-Eliezer promised to track down those responsible for the deaths, "one by one."

Saeb Erakat, a member of the Palestinian cabinet, said, "The Palestinian Authority regrets the loss of life of these two boys and all children, be it Israeli or Palestinian, Jewish, Muslim, or Christian."

He said that "killing civilians is a crime whether on the Palestinian or the Israeli side."

But Yasir Arafat, the Palestinian leader, avoided a direct response to a reporter's question about the killing of the Israeli boys, saying that a Palestinian baby who was wounded in fighting today "was exposed to the same tragedy."

He was referring to new fighting that broke out in the Gaza Strip where the baby and her mother were wounded by Israeli fire in Rafah. Elsewhere in the Gaza Strip today, Israeli troops twice entered Palestinian-controlled territory near Beit Ha- nun, uprooting orchards and demolishing a Palestinian police post after mortars were fired into Israel. The mortars landed near Kibbutz Kfar Aza, but no one was killed.

The family of one of the teenage victims, Yaakov Mandel, moved to Israel five years ago from Silver Spring, Md., and he held both American and Israeli citizenship, friends said. His aunt, Loren Fogelson, of Nassau County, said in a telephone interview today: "He was a warm, loving, peace-loving, caring boy, the kind of son that every mother would love to have. Our hearts are broken. It's a nightmare."

The American ambassador to Israel, Martin Indyk, said the United States was outraged by the "vicious murder."

The teenagers' bodies were discovered by search parties before dawn today after the boys failed to return home on Tuesday night. They skipped school and went hiking without telling their parents, who thought they had gone after classes to a demonstration in Jerusalem, where settlers protested what they said was the government's failure to ensure their security. When the boys failed to return by midnight, the parents alerted the security forces.

The boys went to hike in Wadi Haritun, a scenic gorge flanked by steep cliffs and caves that is only a 15-minute walk from Tekoa.

Teenagers from the settlement said that they regularly went there for hikes and bonfires, even during the recent months of Palestinian unrest, often without the armed escort that is required by the army. "It's our backyard," said Aviva Schick, 15. "We don't have too many places here for teenagers to hang out."

Palestinian shepherds and people from neighboring Arab villages also visit the gorge, but settlers said no violence had occurred there during the recent months of Israeli-Palestinian fighting.

Settlers reported that 100 goats were stolen on Tuesday night from Tekoa, but the police said they did not know whether the theft was related to the killings.

Shaul Goldstein, the head of the local settler's council, warned that the continuing deadly Palestinian attacks could push some settlers to seek revenge. Settlers have been a main target of the seven-month-old Palestinian uprising, and dozens have been killed or wounded, many in drive-by shootings on West Bank roads.

"If the government and the army do not respond appropriately to this criminal incident, I'm afraid that the short fuse of the settlers and the anger that has accumulated in the last seven months could ignite in an uncontrolled way," Mr. Goldstein said.

At the funeral for the two boys, Rabbi Shlomo Riskin of the neighboring settlement of Efrat called for divine vengeance against "this cruel enemy that deliberately murders in- nocent children."

In her remarks, Education Minister Limor Livnat called the killings "a moral stain on the Palestinian people that will never be erased."

"This is our country, we've come home and we're here to stay," Mrs. Livnat asserted. "The murderers will not stay, because we are stronger than them. With God's help, we shall win."

Sheri and Seth Mandel cry over the body of their 13-year-old son Yaakov, who, along with 14-year-old Yosef Ishran, was found bludgeoned to death in a cave in the Judean Desert near their West Bank settlement home.

The New York Times

Two Jewish schoolboys were found dead in a cave near Tekoa.

The Israeli police blame Palestinians, who cite a cycle of killings of civilians.

Copyright © 2001 by The New York Times Co. Reprinted by permission.

صورة تُظهر شيري وسيث ماندل وهما يبكيان بحرقة على جثمان ابنهما يعقوف، البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، الذي عُثر عليه، مع صديقه يوسف إشران ذي الأربعة عشر عامًا، مقتولَيْن بطريقة وحشية بعد أن تعرّضا للضرب حتى الموت داخل كهف في صحراء يهودا، قرب منزلهما في مستوطنة بالضفة الغربية.

ملاحظة من المترجم: النص التالي هو ترجمة لمقال نُشر في صحيفة نيويورك تايمز. وقد تم اختيار المصطلحات في الترجمة بما يتماشى مع تلك المستخدمة في المقال الأصلي.

مقتل مراهقَيْن يهوديَّيْن ضربًا حتى الموت في الضفة الغربية
تقرير: جويل غرينبرغ

تكواع، الضفة الغربية، 9 مايو – عُثر اليوم على جثتي فتيين من هذه المستوطنة اليهودية، اللذين تغيّبا عن المدرسة للذهاب في نزهة سيرًا على الأقدام في وادٍ قريب، وقد قُتلا ضربًا حتى الموت في كهف، وقالت الشرطة، في تقريرها، إنهما قُتلا على يد فلسطينيين. إزاء ذلك، عبّر رئيس الوزراء أريئيل شارون عن "صدمته العميقة"، واصفًا مقتلهما بأنّه تصعيد للإرهاب الفلسطيني ضد المدنيين الأبرياء، واتهم السلطة الفلسطينية بالامتناع عن إيقاف العنف ،وبالتحريض على القتل عبر وسائل إعلامها الرسمية.

وذكر متحدث باسم الشرطة أن الصبيين، يعقوف ماندل (13 عامًا) ويوسف إشران (14 عامًا)، لفظا أنفاسهما الأخيرة بعد ضربهما بالحجارة حتّى الموت وأضاف: "لقد سُحِق رأساهما"، مشيرًا إلى العثور على الحجارة الملطخة بالدماء بالقرب من الجثتين في وادي خريطون، وهو مجرى وادٍ جاف يقع بالقرب من قرية تكواع في صحراء يهودا، جنوب بيت لحم. كذلك، أوضحت الشرطة أنها تعتقد أن الفتيين قُتلا بعد مواجهة عشوائية مع المهاجمين.

وقعت جريمة القتل بعد يومين فقط من مقتل رضيعة فلسطينية تبلغ من العمر أربعة أشهر بنيران دبابة إسرائيلية، ثم جاء مقتل الفتيين ليؤجج المشاعر أكثر، في أسبوع من تصاعد العنف الذي يبدو أن أيًا من الطرفين غير قادر على احتوائه. وبعد العثور على الجثتين، اعتقلت القوات الإسرائيلية أكثر من عشرة فلسطينيين من قرية تقوع الفلسطينية المجاورة ،للتحقيق معهم، كما أُغلِق الطريق المؤدي إلى القرية بخندق عميق يمنع الناس من مغادرتها. وتعهد وزير الدفاع بنيامين بن إليعازر بتعقب الجناة "واحدًا تلو الآخر".

من جهته، أفاد صائب عريقات، عضو مجلس الوزراء الفلسطيني: "إن السلطة الفلسطينية تأسف لفقدان حياة هذين الفتيين وجميع الأطفال، سواء كانوا إسرائيليين أم فلسطينيين، يهودًا، أم مسلمين أم مسيحيين"، وأضاف: "قتل المدنيين جريمة، سواء أكانوا فلسطينيين أم إسرائيليين". في المقابل، تجنّب الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات الرد المباشر على سؤال أحد الصحفيين حول مقتل الفتيين الإسرائيليين، وقال إن رضيعة فلسطينية، أُصيبت اليوم خلال الاشتباكات، "تعرضت للمأساة ذاتها." كان يشير إلى اشتباكات جديدة اندلعت في قطاع غزة، حيث أُصيبَت الطفلة الفلسطينية ووالدتها بنيران إسرائيلية في رفح. وفي أماكن أخرى من القطاع، توغلت القوات الإسرائيلية مرتين في أراضٍ خاضعة للسيطرة الفلسطينية قرب بيت حانون، حيث اقتلعت أشجار بساتين وهدمت موقعًا للشرطة الفلسطينية، ردًا على إطلاق قذائف هاون من غزة على إسرائيل، والتي سقطت قرب كيبوتس كفار عزة، دون ورود أنباء عن وقوع إصابات.

أما عائلة يعقوف ماندل، وهو أحد الضحيتين اللذَيْن قُتِلا في مستوطنة تكواع اليهودية، فقد

انتقلت إلى إسرائيل قبل خمس سنوات من سيلفر سبرينغ، ماريلاند. ووفقًا لما ذكره أصدقاء عائلته، فإنّ يعقوف كان يحمل الجنسيتين الأمريكية والإسرائيلية.

وقالت خالته، لورين فوغلسون، من مقاطعة ناساو في الولايات المتحدة، في مقابلة هاتفية اليوم: "لقد كان فتىً طيّب القلب، محبًا للسلام، وعطوفًا، تتمنى كل أم أن يكون لها ابن مثله. قلوبنا محطمة حقًا. يا له من كابوس!"

من جانبه، قال السفير الأمريكي لدى إسرائيل، مارتن إنديك، إن الولايات المتحدة تشعر بالغضب الشديد من "جريمة القتل الوحشية".

قبل فجر اليوم، عثرت فرق البحث على جثتي الفتيين، بعدما لم يعودا إلى منزليهما ليلة الثلاثاء كما كان متوقعًا. كانا قد تغيبا عن المدرسة للقيام برحلةٍ سيرًا على الأقدام دون إبلاغ آبائهما ،الذين ظنوا أنهما توجها بعد انتهاء الدوام إلى مظاهرة في أورشليم القدس، حيث احتج المستوطنون على ما وصفوه بفشل الحكومة في ضمان أمنهم. وعندما لم يعودا بحلول منتصف الليل، أبلغ الآباء قوات الأمن.

توجه الفتيان إلى وادي خريطون، الذي يتميز بمناظره الخلابة، وتحيط به الكهوف والمنحدرات شديدة الانحدار، ويبعد مسافة خمس عشرة دقيقة دقيقة فقط سيرًا على الأقدام عن تكواع. وقد أكّد مراهقون من المستوطنة أنّهم اعتادوا هم الذهاب في رحلاتٍ إلى هناك بانتظام، حيث يتجمعون حول نار يوقدونها، حتى خلال الأشهر الأخيرة من الاضطرابات الفلسطينية، وغالبًا بدون الحراسة المسلحة التي يشترطها الجيش. في هذا الصدد، قالت أفيقاه سوتنيك، البالغة من العمر خمسة عشر عامًا: "إنه فناء منزلنا الخلفي، هذا تقريبًا المكان الوحيد الذي يمكننا الاجتماع فيه، فليس لدينا الكثير من الخيارات لقضاء وقتنا".

يرتاد الوادي أيضًا رعاة فلسطينيون وسكان من القرى العربية المجاورة، لكن المستوطنين قالوا إنه لم تقع هناك أي أعمال عنف خلال الأشهر الأخيرة من المواجهات بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وقد أفاد المستوطنون بسرقة مائة رأسٍ من الماعز ليلة الثلاثاء من تكواع ،لكن الشرطة قالت إنها لا تعلم إذا كان هناك رابط بين السرقة وجريمة قتل الفتيين.

بدوره، حذّر شاؤول غولدشتاين، رئيس مجلس المستوطنات المحلي، من أن استمرار الهجمات الفلسطينية الدامية قد يدفع بعض المستوطنين إلى الرد بعمليات انتقامية، وأضاف أن المستوطنين كانوا هدفًا رئيسيًا للانتفاضة الفلسطينية المستمرة منذ سبعة أشهر، حيث قُتل وجُرح العشرات منهم، معظمهم في عمليات إطلاق نار نفذها مسلحون من سيارات مارّة في شوارع الضفة الغربية. وأضاف غولدشتاين: "إذا لم تردّ الحكومة والجيش بالشكل المناسب على هذه الجريمة، أخشى أن يؤدّي الغضب المتراكم على مدى الأشهر السبعة الماضية إلى خروج الأوضاع عن السيطرة".

في جنازة الفتيين، دعا الحاخام شلومو ريسكين، من بلدة إفرات المجاورة، إلى انتقام إلهي من "هذا العدو القاسي الذي يتعمد قتل الأطفال الأبرياء." من جانبها، وصفت وزيرة التعليم، ليمور ليفنات، الجريمة

بأنها "وصمة عار أخلاقية ستلاحق الشعب الفلسطيني إلى الأبد". وأضافت بحزم: "هذه أرضنا، عدنا إليها وسنبقى هنا". وأكدت قائلة: "القتلة لن ينتصروا، فنحن أقوى منهم. وبمشيئة الله، سننتصر".

الفَصْلُ الخَامِسُ

مَوْتُ قُوبِي

موت قوبي يحملُ ملامحَ المآسي التوراتية، وذلك في الطريقة التي حدث بها، كما في كونه جريمة قتل تروعك بألمها الفجّ، بقسوتها العارية التي لا حجاب لها. صبيّان يهوديّان، وهما ابني قوبي ماندل وصديقه يوسف إشران ،هاجمهما في كهفٍ إرهابيون عرب، ضرباهما بالحجارة ضربًا مبرحًا حتى الموت، بحجارةٍ في حجم كرات "البولينج".

لا أستطيع أن أتصور قاتلًا ينهال على طفلي بالحجارة حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة. لا أعرف كيف أتحمل هذا الألم، كيف أواجه هذا الشرّ المتجسد في فعلٍ كهذا. أتخيل ابني مذعورًا، يصرخ، يواجه الموت وحده، في رعبٍ وعذاب ،وقد كان صبيًا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره.

فعل القتل هذا، بوحشيته البدائية التي تنتمي إلى زمنٍ غابر، يعيدنا إلى أول جريمة قتل في تاريخ هذا العالم، حين قتل قايين (قابيل)، بدافع الغيرة، أخاه هابيل بالحجارة. وكما تخبرنا التوراة في سفر التكوين، في الآية العاشرة من المقطع الرابع: "إِنَّ دَمَهُ قَدْ صَرَخَ مِنَ الأَرْضِ ."وكذلك، في هذه الجريمة، تناثرت دماء الصبيّين في أرجاء الكهف، شاهدةً على وحشية الفعل، وقد ظلّ القتلة، رغم ذلك، طلقاء.

في أقدس عيدين عند اليهود، وهما روش هشاناه ويوم كيبور (رأس السنة العبرية ويوم الغفران)، نتلو في صلاةٍ تُدعى وُنِيتانيه توكيف (U-netaneh Tokef) أن الله عزّ وجلّ يقرر في هذا اليوم "من سيحيا ومن سيموت؛ من سيموت بالنار، ومن سيموت بالماء، من بالسيف، ومن ستقتله الوحوش الضارية؛ من سيموت بالجوع، ومن بالعطش، من بالخنق، ومن بالرجم." وعن هذه الصلاة، يقول ديفيد وولب في كتابه "Making Loss Matter" (جعل الخسارة ذات معنى): "إن كلماتها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالعصر الوسيط الذي كُتبت فيه." ويرى أن المعادل الحديث لأشكال الموت هذه هو الوفاة بالأمراض مثل الإيدز والسرطان، أو بحوادث السيارات.

لكن ابني لم يمت بمرض، ولا بحادثٍ مُفجِع، بل قُتل في جريمة قتل وحشية، وكان الحقد السافر، الطاغي، هو الأداة والسبب. كيف يمكن لله عزّ وجلّ أن يقرر قتل الصبيّين بهذه الوحشية؟ وكيف يمكننا أن نحتمل مثل هذا الموت المفجع الرهيب؟

منذ مقتل قوبي، لم أعد قادرة على قراءة الصحف أو الاستماع إلى الأخبار، لأن كل ما أسمعه هو الألم. البث التلفزيوني لهيئة الإذاعة الوطنية (NBC) وسي إن إن (CNN)، والمقالات المنشورة في جيروسالم ريبورت (Jerusalem Report)) ونيويورك تايمز (New York Times) وواشنطن بوست (Washington Post) ونيوزداي (Newsday) لم يصب أيٌّ منها الحقيقة، فقد أرادوا عباراتٍ رنانة،

ومعلوماتٍ سريعة. أرادوا بيع الصحف على حساب مأساتنا.

نُشرت القصة في جميع الصحف الكبرى حول العالم، لكن كل مقال احتوى على خطأ أو خطأين على الأقل، ولم يقل أيٌّ منها ما كان حقًا يهمّنا. لم يتحدثوا عن الطريقة التي خرجتَ بها من البيت ذلك الصباح يا ولدي الحبيب، ضاحكًا وسعيدًا، ولا عن ذلك الرعب الذي عشناه ونحن ننتظر عودتك، ولا عن اللحظة التي أخبرتني فيها صديقتي شيراه أنك قد قُتِلتَ. لم يذكروا كيف أنها اعترضت طريق رجال الشرطة قبل إبلاغي الخبر، لأنها، كما أخبرتني لاحقًا، أرادت أن تنقل إليّ الخبر المفجع بحبّ.

عندما أشاهد هجوم الحادي عشر من سبتمبر على مركز التجارة العالمي، لا أفكر إلا في الأمهات. إذ أشعر كأنني أتلصص على مشهدٍ من الألم، ولم أعد قادرة على الاستماع، لأنني أعرف أن خلف الأخبار "الجافة" تقبع عائلاتٌ تنزف وجعًا، وأن المعاناة سكينٌ لا يكفّ عن الحفر في أكثر المواضع رقة، حتّى ينفذ إلى الأعماق.

في الساعة السابعة صباحًا من يوم الثامن من أيار/مايو، عام 2001، كنت أستمع إلى الراديو وأنا أُعدّ لقوبي شطيرتين من السلامي. صعدتُ إلى الطابق العلوي لأرتدي ملابسي، ثم نزلتُ مجددًا. وصل يوسف لاصطحابه في الساعة السابعة وعشرين دقيقة، فقلتُ في نفسي :حسنًا، ربما سيصل قوبي إلى المدرسة في الوقت المحدد اليوم.

لم أقبّله مودّعة، فقد كان يوسف هناك، ثمّ صعدتُ مجددًا لأُنهي استعدادي للخروج من المنزل. كانت تلك آخر مرة رأيتُ فيها ابني.

في الساعة الثامنة صباحًا، غادرت المنزل، برفقة إحدى صديقاتي، للسباحة في مسبح يبعد حوالي عشرين دقيقة. بعد ذلك، أوصلني أحدهم إلى أورشليم القدس، حيث كان لديّ ثلاثة اجتماعات هناك، وقد استغرق الطريق نحو ثلاثين دقيقة. وصلت إلى المدينة قبل الموعد المحدد بوقتٍ كافٍ، فاغتنمت الفرصة لأجلس وأرتشف قهوتي بينما أراجع مخطوطة رواية صديقي أرييه، وهي رواية بوليسية عن جريمة قتل.

كنت قد وصلت سابقًا إلى الصفحة الخامسة والعشرين، لكنني، عن طريق الخطأ، التقطت ذلك الصباح أوراقًا مختلفة، فأخذت الصفحات من 106 إلى 126 دون أن أنتبه. بدأت في تحريرها، وعندها فقط أدركت أنني أقرأ عن موقع الجريمة، حيث ينهال قاتلٌ بمضرب بيسبول على نجم شهير في كرة السلة، موجهًا إليه ضربات متتالية على رأسه بلا رحمة. وبينما كنت أدقق النص، خطرت لي أفكار غريبة: ما الذي يعرفه أرييه عن القتل؟ وماذا أعرف أنا عن القتل؟ كيف لي أن أحرر مشهدًا كهذا؟

لاحقًا، كان لديّ اجتماع مع محرر مجلة هداسا (Hadassah)، ناقشنا فيه المواضيع التي سأعمل عليها خلال العام القادم، وكان نصيبي من هذه المهام كتابة مقال عن المعجزات.

في ذلك الوقت، كان زوجي سيث يعمل كاتبًا مستقلًا في مجال الأعمال من المنزل في تكواع وهذا جعلني أشعر بالاطمئنان حيال الأطفال. اتصلت بالبيت في الثالثة بعد الظهر، لكن لم يجب أحد، ثمّ عاودت الاتصال في الرابعة، فأجابني سيث وأخبرني أن الأطفال جميعهم خارج المنزل.

في تكواع، من المعتاد أن يمضي الأطفال يومهم في الخارج، فجزء من روتينهم اليومي يبدأ مع

عودتهم من المدرسة، حيث يُلقون حقائبهم كيفما اتفق، لينطلقوا فورًا إلى ملعب كرة السلة أو إلى مقابلة أصدقائهم أو إلى أنشطتهم المسائية، لذا لم أجد سببًا للقلق.

عدتُ إلى المنزل قبيل السادسة مساءً، وسألتُ زوجي: "أين قوبي؟" لم يكن ابني دانيئيل، الأصغر من قوبي، في البيت أيضًا، لكنه كان في رحلة مبيت مع المدرسة، فلم نقلق بشأنه. جلسنا نستمع إلى نشرة الأخبار في السادسة مساءً، التي جاء فيها خبر أنّ طفلًا لقي مصرعه خلال رحلة مدرسية، إثر سقوط غصن شجرة عليه قرب نهر الأردن ،فتملّكنا القلق على الفور، فسارع زوجي لتفقّد المواقع الإلكترونية كي يتأكد أن ابني دانيئيل بخير.

ثم عند حوالي الثامنة والنصف مساءً، عادت ابنتي إليعانه ذات العشرة أعوام، من نشاطات مخصّصة للأطفال، فتمنّيت أن تكون قد رأت قوبي، لكنها أخبرتني أنها لم تلتقِ به. أخذتُ الطفلين الأصغر سنًا إلى غرفتهما ووضعتُهما في الفراش، وعندها بدأ القلق يتسلل إليّ حقًا.

على الفور، اتصلتُ بأصدقاء قوبي وبوالدة يوسف، ريناه، التي أخبرتني أنها تعتقد أن الصبيين ربما ذهبا إلى المظاهرة في أورشليم القدس، لمطالبة الحكومة بمزيد من الحماية لطرقنا ومستوطناتنا. أخبرتني والدة صديق آخر لقوبي أن الطريق من أورشليم القدس إلى تكواع مغلق، وقد كنّا معتادين على ذلك بسبب إطلاق النار أحيانًا من بيت جالا نحو الطرق. فقلتُ في نفسي، محاوِلةً تهدئة قلقي: سيستغرق قوبي بعض الوقت للوصول إلى المنزل، لكنه سيعود في النهاية. ثم، في الساعة العاشرة ليلًا، بدأتُ أتصل بالناس بلهفة وقلق شديد؛ فاتصلتُ بأصدقاء قوبي في أفرات وأورشليم القدس ،واتَّصلتُ بريناه أربع مرات! فطمأنتني أنهما في المظاهرة .كان زوج ريناه شرطيًا إسرائيليًا، فاطمأننتُ لاعتقادي أنها كانت ستعلم لو كانا في خطر. قالت إنهما في طريقهما إلى المنزل وطلبت مني ألا أقلق. ثم، فجأة، أصبحت الساعة الحادية عشرة ليلًا، ولم يعد قوبي بعد! فاتصلتُ بالشرطة هذه المرة وبدأوا بالتحقق من مواقف انتظار التوصيلات (المحطات التي ينتظر فيها الناس من يقلّهم بسيارته).

أتت إليَّ جارتي أورلي، وهي "صابرا"، أي إسرائيلية مولودة في البلاد، واتصلت بمعلم قوبي، الذي أخبرها أنّ قوبي ويوسف لم يحضرا إلى المدرسة اليوم. حاولتُ أن أُهدِّئ روعي، مقنعةً نفسي بأنه مع يوسف، وبأن شيئًا ما قد حدث، لكنه سيعود قريبًا. ثم جاء شلومو، صديق قوبي، وأخبرنا أن قوبي ويوسف قالا إنهما ذاهبان إلى الوادي— وهو مجرى نهر جاف يشق طريقه عبر وادٍ أخّاذ ذي تضاريس وعرة، ففكرتُ أنهما ربما ضلّا الطريق هناك. تعدّ مغارة المعصة في تكواع، المعروفة أيضًا باسم مغارة خريطون ،من أكبر الكهوف في الشرق الأوسط، حيث تحتوي على ستين غرفة وتمتد لمسافة ثلاثة كيلومترات ومئتي متر تقريبًا، وقد سُمّيت نسبةً إلى الراهب خريطون، وهو راهب من القرن الرابع أسس ديرًا وحجرات دراسة في الوادي. قلتُ في نفسي ربما علق قوبي في مكان ما هناك، كما حدث لأطفال آخرين من قبل. سيعود إلى المنزل وسأوبّخه، وسنواصل حياتنا، ففي تلك اللحظة، اعتقدتُ حقًا أنني سأعاني فقط من فقدان النوم، لا أكثر.

طوال الليل، توافد الجيران إلى بيتنا، يقولون لنا بسخرية: "أهلًا بكما في عالم المراهقة! إنه ابنكما البكر، لذا فهذه تجربتكما الأولى مع هذه المرحلة الصعبة، لكننا جميعًا مررنا بهذا من قبل".

في تلك اللحظة، صدّقتهم، أو ربما أردتُ أن أصدّقهم. لم أستطع تحمّل فكرة أن ابني قوبي قد لا

يكون بأمان. ولم أسمح لنفسي بالتفكير في أن مكروهًا قد أصابه.

لكن في أعماقي، كنت أعرف أن هذا ليس من طبعه، فقوبي لم يفعل شيئًا كهذا من قبل، ولم يكن يومًا مصدر قلقٍ لي، بل على العكس، كان دائمًا شديد الحرص ألا أقلق عليه، وأنا لا أثقّ بشيء كثقتي بحبّه لي. ربما كان يُتعبني أحيانًا، لكنه لم يكن ليقلقني بهذه الطريقة أبدًا.

في بيتنا، جلست الأمهات الأخريات معي وكنّ يحاولن طمأنتي: "إنه ابنك البكر"، قلن لي، "هذه هي "مراسم" دخولك إلى عالم القلق الذي يسببه المراهقون. إنهم يرتكبون الحماقات طوال الوقت، مسببين لنا قلقًا دائمًا". ثم بدأن بسرد قصصًا مشابهة: ابنة إحداهن، في الرابعة عشرة من عمرها، اختفت حتى الثالثة فجرًا، وابن امرأة أخرى، الذي لم يتجاوز الثامنة، ضاع في الكهف. وفي حادثة أخرى، قرر صبيّان في العاشرة من عمرهما أن يركبا الحافلة إلى كريات شمونة، التي تبعد أربع ساعات، دون أن يخبرَا أحدًا. "نظن أنهم مثلنا، لكنهم ليسوا كذلك. لديهم منطقهم الخاص، وعالمهم المختلف، وطريقتهم المغايرة في التفكير"، هكذا قالت لي أورلي.

ثم حضر رجال الشرطة إلى المنزل، ببنادقهم التي تتدلى على أكتافهم، ووجوههم الشابة الجميلة الحزينة، ليطرحوا الأسئلة ويدونوا التفاصيل، موثّقين كل شيء. كنتُ أريد أن أصرخ في وجوههم: 'اذهبوا وابحثوا عنهما! فقط ابحثوا عنهما!'، لكني بدلًا من ذلك، أجبتُ على أسئلتهم.

طلبتُ من أورلي كأسًا من النبيذ، بينما كنتُ أحاول أن أضبط أعصابي، وأخذتُ أردد في نفسي: "إنه في طريقه إلى المنزل. اهدئي، كل شيء سيكون على ما يرام."

بدأت فرق البحث تمشّط الوادي، وأقنعتُ نفسي أنهم سيجدونهما. الصبيان ضائعان، عالقان في مكان ما، ينتظران من ينقذهما. ييني بيرنباوم، شاب في الثالثة والعشرين من عمره، نشأ هنا بعدما هاجر والداه من أمريكا، وهو يعرف هذه الكهوف كراحة يده، لكنّه عاد بلا خبرٍ عنهما، بعد ثلاث ساعات من البحث في الوادي أخذ يصرخ خلالها مناديًا عليهما دون أن يتلقى أي إجابة. "لأن الكهوف هائلة الاتساع، لا تزال هناك فرصة أن يكونا في الداخل"، قال لنا، فتعلقتُ بهذا الأمل. تخيلتُهما عالقَين على حافةٍ صخرية داخل الكهف، عاجزين عن الصعود أو النزول، لا يقويان على الارتفاع ولا يحتملان السقوط. أو ربما، بدافع تهورٍ طائش، قررا أن يركبا حافلة إلى إيلات دون أن يخبرَا أحدًا، وربما أرادا فقط الابتعاد عن هذا الجنون. تصرفٌ أحمق؟ ربما. لكنه يبدو منطقيًا أيضًا. فهما يعيشان في وسط منطقة حرب. ثمانية أشهر من الانتفاضة، ثمانية أشهر من إطلاق النار من السيارات المسرعة، كل يوم. أي شخص يمكن أن ينهار، أن يهرب، أن يفعل ما لم يكن يفعله عادةً. نعم، يمكن أن يحدث هذا.

تجلس جارتي شوشاناه، في غرفة الضيوف، وتحيك الصوف. لديها ثلاثة أبناء في الجيش، وتقول لي: "اذهبي وحاولي أن تشعري به في مكانٍ ما، حاولي الشعور بوجوده".

انقضت الساعات، وحين أشرف الليل على نهايته واقترب الفجر، كانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحًا. عندها، خرجتُ أنا وزوجي سيث نبحث عن ابننا الحبيب، وفلذة كبدي، قوبي. سرنا باتجاه مدخل الوادي، الذي لا يبعد سوى بضع دقائق عن منزلنا. حاولتُ الشعور بوجوده هناك لكنني لم أنجح. ثم

رأينا شاحنة صغيرة بداخلها رجلا أمن، أخبرانا أنهما مشّطا المنطقة كلها، وأن فرق البحث ستواصل العمل عند شروق الشمس. اهتزّت قدماي، لكنني ظللت متمسكة بيقين أنه عائدٌ. إلا أن الشمس أشرقت، دون أن يعود الولدان ،فأصابني الواقع كضربة سيف :لا بدّ أن يعودا الآن! ترددتْ في ذهني كلمات سمعتها ذات مرة عن الأطفال المفقودين—إن لم يُعثر عليهم في اليوم الأول، في الساعات الأربع والعشرين الأولى، يكون الأمل في عودتهم أحياء ضئيلًا على الأغلب.

أخذتُ أتضرع إلى الله عزّ وجلّ، وأنادي قوبي بحرقة: "عُد الآن! عُد الآن!" وداهمتني ذكرى ولادتي له، يوم أصغت القابلة إلى نبضه فارتسم القلق على ملامحها، لتصيح بي: "ادفعي! أخرجي هذا الطفل إلى الحياة!" والآن، أسمعه بداخلي، أرى ملامحه، وأصرخ إليه بالإلحاح ذاته: "ارجع يا قوبي! عُد الآن!" كنتُ أذرع الساحة أمام البيت ذهابًا وإيابًا، مرارًا وتكرارًا، حتى بلغت الساعة السادسة صباحًا. عندها، قرر زوجي أن يتوجه إلى الكنيس، آملًا أن يلامس صوته السماء، أن تطرق صلاته أبواب السماء، فيعود الولدان إلى البيت.

وفي تلك الأثناء، كانت صديقاتي يجلسن حولي في المنزل، فأنظر إليهن قائلةً لهنّ: "إنه بخير، صحيح؟ إنه بخير، أليس كذلك؟" ثمّ تدخل شيراه إلى البيت، وأرى في عينيها وهج الخوف، وأدرك أن هناك ألمًا، ألمًا أكبر من قدرتي على الاعتراف به، وأقوى من الألم الذي أسمح له بالتسلل إلى قلبي. الآن أعلم أنني كنت متفائلة أكثر مما ينبغي.

أتمالك نفسي وأتمتم: "سأخرج إلى الفناء الخلفي." أتوهم أنني أستطيع الاحتماء هناك، وكأن الأخبار السيئة لا تأتي إلا عبر الباب الأمامي. لكن لم تمضِ سوى لحظات حتى لحقت بي شيراه، فتنظر إليّ، تضمّ يدي بين يديها، وتقول بصوت مرتجف: "لقد وجدوهما... ميّتين."

أحدّق إليها، أرفض كلماتها، أرفض أن أصدق، وأقول: "لا! هذا غير صحيح! قوبي لم يمت. لم يمت. لم يمت!"

ما أعلمه يقينًا هو أنني لا أريد العيش في عالمٍ مات فيه قوبي، فكيف بعالمٍ قُتِلَ فيه؟

يخبرني أصدقائي لاحقًا أنني فقدت الوعي، وما أتذكره هو أنني كنت مستلقية على التراب في الفناء الخلفي، بلا حراك. أتذكر أنني أمسكت بزوجي، تشبثت به وبكيت. أتذكر الأصوات من حولي، يتحدثون عن ضرورة إخبار أطفالنا.

صعد زوجي سيث إلى الطابق العلوي ليخبرهم. كان الصغيران نائمين، فأيقظ إليعانه، التي كانت في العاشرة، وأخبرها. نظرت إليه للحظة ثم قالت: "توقف عن المزاح يا أبي."

أما غافي، الذي كان في السادسة، فأنصت بصمت. وبعد لحظات، تكوّر الصغيران تحت الأغطية، وعادا للنوم.

أما دانيئيل، فقد علم بالأمر وهو في رحلته المدرسية، فقد سمع الأطفال عبر المذياع عن اختفاء صبيين من تكواع، وشعر دانيئيل في أعماقه أن أحدهما قد يكون قوبي، الذي أخبره في وقتٍ سابق أنه

يريد الذهاب إلى الوادي. ثم جاءه الخبر. أوقف المسؤول عن الرحلة الحافلة، وأخذ دانيئيل جانبًا وأخبره أن شقيقه قد مات. عاد التلاميذ إلى الحافلة، وانطلقت بهم في طريق العودة، بينما أمضى دانيئيل الرحلة كلها غارقًا في البكاء، لثلاث ساعات متواصلة. وعندما وصلت الحافلة إلى القرية، كان صوته يسبق خطواته، وصراخه يدوّي في أنحاء القرية، يسمعه كل من فيها وهو يركض نحو البيت. احتضنته بقوة، شددته إلى صدري، وكان يبكي بأنفاس متقطعة، وكأن الهواء يعجز عن الدخول إلى صدره. كان بكاؤه يحمل في داخله كل أحزان العالم—كل الألم الذي كان، وكل الألم الذي سيكون.

والآن، أنا كطائر الكناري في منجم الفحم،* أُرسلتُ إلى أرض الموت لأتحقق: هل يمكن العيش هناك؟ هل يمكن للمرء أن يتنفس بعدما خطف الموت أحبّته؟ كيف يمكن مواجهة هذا الشر الطاغي، هذا الألم الجارف؟ يسألني الناس: كيف حالك؟ هذا السؤال ينتمي إلى عالمي السابق، لكنه الآن سؤال لا أملك له جوابًا. لستُ بعد الآن في عالمٍ يُمكِنُ فيه أن أُجيب "أنا بخير"—لأن لا شيء بخير، ولن يكون أي شيء بخير من الآن فصاعدًا. لذلك، بدلًا من ذلك، أجيب: أنا أتنفس. أنا على قيد الحياة. لكنني لن أشعر بالراحة أبدًا، لن أرتاح مطلقًا .النقصان يُحيط بي على الدوام .لا شيءَ مسلّمٌ به بعد الآن—لا شروق الشمس، ولا عودة زوجي إلى البيت من عمله. أحمل ثقل فقدان ابني أينما ذهبت، حتى في أحلامي.

لقد دفعني الألم إلى عالمٍ يخلو من كلمة "بخير". كل لحظة هي معجزة وعذاب: فالمعجزة هي أن العالم لا يزال قائمًا بكل عظمته، والعذاب هو أنّ هذا العالم نفسه يعجّ بالمعاناة والألم. في التقاليد اليهودية، يُقال إن كل إنسان بمثابة عالَمٍ كامل بذاته. وأنا... قد فقدتُ عالمًا بأكمله.

---

*ملاحظة من المترجم: تستخدم طيور الكناري في مناجم الفحم للكشف عن الغازات السامة كالميثان، بسبب جهازها التنفسي الأشد حساسية من البشر. فإذا أظهرت علامات الضيق أو الاختناق، يخلي عمال المناجم المكان هربًا من الخطر على حياتهم.

الفَصْلُ السَّادِسُ

المَسِيحُ وَاليَوْمُ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ قُوبِي

كانت العلامة الأولى هي ذلك الإعلان عن المشيح*، الذي لم أعره اهتمامًا كبيرًا في ذلك الوقت، لكنني احتفظت بالمقال في الكتاب الذي صنعته لطفلي قوبي، حيث كنت أوثّق فيه بعناية فائقة كل تفصيل من تفاصيل عامه الأول، مثل الإنجاز الذي حققه في عمر خمسة أسابيع حين تبع بعينيه علبة تونة كنت أحركها، وخطوته الأولى في الشهر الحادي عشر، وكلماته الأولى في الشهر الخامس عشر. كان قوبي يحتفظ بهذا الكتاب الذي يُحبّ تصفّحه بجانب سريره.

في الكتاب الذي صنعته لطفلي قوبي، احتفظتُ بمقالة من صحيفة جيروزاليم بوست الصادرة بتاريخ السادس من حزيران/يونيو عام 1987، أوردت أنه قبل ولادة قوبي بأسبوع، انتشرت ملصقات (بوسترات) في شوارع القدس تعلن أن المشيح سيأتي إلى القدس في الرابع عشر من حزيران/يونيو.

حملت أوراق الملصقات، ذات اللون الأزرق كالسماء، هذا النص بحروف بيضاء:

"في يوم الأحد، السابع عشر من شهر سيفان العبري (الرابع عشر من حزيران/يونيو 1987)، سيأتي المشيح إلى مدينتنا. سيأتي عند الفجر عبر جبل الزيتون ويحيي الموتى. سيمر عبر باب الرحمة، المعروف أيضًا بالباب الذهبي، ويصعد إلى الحرم الشريف (المعروف في العبرية بـ"جبل الهيكل"). سيتسلق جبل صهيون ثم يتوجه إلى ميدان صهيون، حيث سنلتقي به عند الظهر ونذهب معًا إلى الكنيست (البرلمان الإسرائيلي). سيأتي الفادي إلى صهيون، وسيعود أبناؤكم إلى أرضكم".

ذكرت المقالة أن هذه الملصقات كانت مجهولة المصدر، فلم تكن موقعة من أي جهة، ولم تعلم البلدية من علّقها. كذلك، أفادت صحيفة جيروزاليم بوست بأن المشيح لم يظهر في ذلك اليوم، ولكن ربما كانوا مخطئين.

في الرابع عشر من حزيران/يونيو، تمامًا عند بزوغ الفجر، وتحديدًا في الساعة 6:07 صباحًا، وُلِد

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجِم: المشيح أو المَشِيَاح هو مصطلح في العقيدة اليهودية يشير إلى القائد الممسوح بالزيت الذي سيأتي في المستقبل ليخلّص بني إسرائيل/اليهود، ويعيد السلام والعدل إلى العالم، ويحقق النبوات المذكورة في التناخ (الكتاب المقدس اليهودي). يُعرف المشيح في العبرية باسم هامَشِيَاح، أي "الممسوح"، وهو إنسان من نسل الملك داوود عليه السلام، سيحكم بالعدل ويعيد بناء الهيكل ويجمع الشتات اليهودي في الأرض المقدسة، أي أرض إسرائيل. من المهم التأكيد أن هذا المصطلح لا يشير بأي شكل إلى المسيح، أي يسوع الناصري الذي يؤمن المسيحيون بأنه ابن الله والمخلّص المنتظر، بل إلى شخصية مستقبلية لم تأتِ بعد، وفق المعتقدات اليهودية، وستحقق النبوات المذكورة في التناخ والتي أوحى بها الله عز وجلّ إلى بعض أنبياء بني إسرائيل.

قوبي في أورشليم القدس، بينما كانت الطيور تشدو بأنغامها للعالم، والسماء مخططة بلون وردي، كأنّها وجنتا طفل رضيع. في ذلك الوقت، بدا لي غريبًا أن يولد ابني في اليوم نفسه الذي بشّرت فيه تلك الملصقات بقدوم المشيح. فأنا لم أكن أعرف شيئًا عن المشيح وقتها، ولم يكن لدي اهتمام به، حتّى أنني وزوجي كنا نمزح قائلين: بالتأكيد، نحن والدَا المشيح!

كنت عروسًا جديدة وأمًا لمولود جديد، وكنت أرى أن الحياة جميلة، ولم أكن بحاجة إلى عالم آخر، ولا إلى أي تغيير في عالمي. لم أكن أعي مدى المعاناة في هذا العالم، ولا الحاجة العميقة الجارفة للإيمان بعالم آخر تسوده الطمأنينة والسكينة، حيث يُمحى الشر، ويصبح الموت مجرد حالة أخرى من الوجود، كالهلال الجديد، مكتملًا ومضيئًا، لكنه محجوب عن أعيننا على الأرض.

الكلمة العبرية "المشيح" تعني "الممسوح بالزيت"، ووفقًا للتقليد اليهودي، سيكون المشيح هو الرجل الذي يمسحه الله بالزيت ليحقق الفداء وينشر السلام، والذي سيقود العالم للعودة إلى زمن مثالي، حيث تطرح جميع الأمم سيوفها جانبًا. وفي هذا الصدد، يقول الحاخام المؤلف والمعلم والعالِم موريس لام: "لن يكون عالمًا آخر أو مختلفًا نوعيًا، بل سيكون هذا العالم نفسه وقد بلغ أوج الكمال".

يذكر التقليد اليهودي أنه في زمن المشيح، سيُبعَث الأموات من جديد. ورغم أننا لسنا متأكدين تمامًا ما معنى ذلك تحديدًا، إلّا أنّ اليهود في صلواتهم اليومية يتوجهون إلى الله، على أنّه "الأمين على إحياء الموتى". ووفقًا لبعض علماء الدين، فعند مجيء المشيح، تعود أرواح الصالحين إلى أجسادهم المادية، أي أن الجسد يستعيد كماله السابق، ليصبح قادرًا على احتضان روح طاهرة بالكامل. وفي هذه الحالة، سيبلغ كِلا الجسد والروح حد الكمال، وسيتمكن الإنسان من إدراك كل ما عجز عن استيعابه خلال حياته في هذا العالم. عندها، سيصبح كل شيء واضحًا، وسيكون العالم موطنًا للراحة والسلام، حيث يتحقق النمو الروحي من خلال الفرح، بدلًا من المعاناة.

في عالمنا، لا يكاد شيء يكون مفهومًا بوضوح، وألوهية الله محجوبة عنا. فحين نتلو آية "شمع يسرائيل/ أسرائيل "، أي "اسمع يا يسرائيل"،* وهي الصلاة اليهودية الأكثر جوهرية، التي نتلوها يوميًا، نغطي أعيننا بأيدينا، لنتأمل بعمق ونتصل بالخالق بصورة أقوى. لكن تغطية أعيننا ليست مجرد وسيلة للتركيز، بل هي أيضًا اعترافٌ بجهلنا، بأننا نسير في هذا العالم كالعُميان، عاجزين عن رؤية الحقيقة.

بعد وفاة قوبي، قال لي حاخام في مونسي، نيويورك: "نحن جهلة في هذا العالم، لا نستطيع رؤية الحقيقة. ولا إدراك كيف يدبّر الله عز وجلّ الأمور في العالم، ولا معرفة الغاية من حياتنا وموتنا. لا يمكننا فهم سبب مقتل قوبي. لكن كما أن لدينا في هذا العالم أسئلة كثيرة بلا إجابات، ففي العالم الآتي لن تكون هناك أسئلة، لأن كل شيء سيكون واضحًا. سنرى الوجه الآخر من النسيج، ليس الجانب المليء بالعُقد والخيوط المتشابكة، بل الوجه الذي يحمل الصورة الواضحة الجميلة. وكما أن الخياط يمزق القماش الثمين ليصنع منه بدلة رائعة، كذلك سنفهم يومًا معنى تمزقاتنا وأحزاننا، معنى معاناتنا".

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجم: اخترنا ترجمة كلمة "يسرائيل" عمدًا بالياء، لا بالألف، "إسرائيل"، كما هو معتاد بالعربية، وذلك وفقًا لنصوص الحاخام سعيد الفيومي، لأنّ الألف يجعل الكلمة قريبة صوتيًا من كلمة "أَسْر" بالعربية.

عندما يأتي المشيح، سنرى الحقيقة، سنرى الكمال ،وسندرك كيف أن كل الأشياء متصلة ببعضها. وعندما تتجلى لنا الحقيقة، سندخل في حالة من الذهول والنعمة. ويمكن أن يأتي المشيح في أي لحظة، إذ قال لنا بعض الحاخامات إنه مستعد للمجيء في أي وقت ليخلّصنا. لكن آخرين، مثل الـ"ماغيد"* الثْرِيسْكِي، الحاخام أبراهام ثْوِيزْسْكي، من تريسْك (توريسك حاليًا، أوكرانيا)، الذي توفي عام 1889، وكان منتميًا إلى سلالة تشيرنوبل الحسيدية، يُخبرنا أنّ المشيح لن يأتي إلا حين نشتاق إليه شوقًا عميقًا، ونتوق إليه بحرقة، ونصرخ من أجل قدومه. فحتى ذلك الحين، لن يكون أوان مجيئه قد حان.

هناك معنى في وفاة ابني الحبيب قوبي، وقد نُقِشَ هذا المعنى في أعماقي بقوة، كما لو أن الأقدار كانت تدقه في روحي، عبر سلسلة غريبة من الأحداث التي أحاطت بموته وحياته.

أولًا، بدا الطقس في الأسبوع الذي سبق مقتله وكأنه إنذار كوني بأن شيئًا ما في العالم قد اختل، وأن الطبيعة لم تكن على طبيعتها. فقبل أسبوع من مقتله، تحول لون السماء إلى الأصفر بعد عاصفةٍ ترابية، وكان الهواء مشحونًا بالكهرباء، وممتلئًا بالغبار الذي يرشح الضوء عبره، فتلألأت السماء بلون أصفر ساطع نابض بالحياة. حتى أنني سمعت أشخاصًا يتحدثون عبر الإذاعة عن اقتراب نهاية العالم بسبب المشهد الغريب للسماء.

وفي اليوم التالي، تساقط المطر ممتزجًا بالغبار، فتطايرت كتل ضخمة منه، ملوِّثة زجاج السيارات ببقع كثيفة. ثم اجتاحتنا موجة حرّ أعقبها برد قارس، ثم أمطار، رغم أن المطر نادرًا ما يهطل في شهر أيار/مايو في إسرائيل. كان الطقس مضطربًا، مربكًا، وكأن في تقلباته نذير شؤم، فامتلأت القلوب بشعور غامض من القلق. في إسرائيل، الفصول واضحة وصارمة، المطر للشتاء، والشمس للصيف، ونادرًا ما تخرج الطبيعة عن هذا النظام. لذا، حين تقع مثل هذه الاستثناءات، فإننا نتوجس منها وننظر إليها بريبة.

كانت هناك أحداث غير عادية أخرى ارتبطت بموت قوبي، فقد مات في كهف خلال نفس الأسبوع الذي يُحتفل فيه بعيد لاغ باعومر، حيث نُحيي ذكرى وفاة الحاخام شمعون بار يوحاي، وهو حاخام من القرن الثاني الميلادي، علَّم طلابه الأسرار الخفية للتصوف اليهودي الكامنة في كلمات ونصوص التوراة. قضى شمعون بار يوحاي اثني عشر عامًا مع ابنهِ يَتَعَلَّمَانِ أسرارَ العالمِ الروحيِّ المستترة وراءَ نصوص التوراة أثناء اختبائهما في كهفٍ، حيثُ كان جسداهما مغطيَيْنِ بالرمل أثناء انغماسهما في الدراسة. ويعتقدُ الحاخام الرئيسي في تكواع، مِنَاحِيم فْرومان، أنَّ الكهفَ الذي اختبأ فيهِ شمعون بار يوحاي قد يكونُ في الوادي بجانبِ تكواع، لا في موقعِهِ المعروفِ في الشمال في بْقيعين (بالعبرية)، أو البقيعة كما تُسمّى بالعربية.

عندما تجمع أصدقاء قوبي لحفر قبره، اكتشفوا صخرة كوارتز سداسية الشكل حادة الجوانب، وهي نادرة جدًا في هذه المنطقة من إسرائيل. كانت هذه الصخرة مصقولة كالزجاج ومدببة كالسيف. ورغم أنّ ابني قوبي قُتِلَ بصخور خشنة وكبيرة، فقد عثروا على صخرة ذات تناظر مثالي في قبره.

بعد أسبوع من مقتل قوبي، أطلق الفلسطينيون النار على منزلنا، فاخترقت رصاصة غرفة ابنتي، وانزلقت عبر مكتبها، مخترقةً صندوق مجوهراتها. أما الحجر الذي استُخرج من قبر قوبي، والذي كان

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجم: في التقليد الحسيدي، يُشير مصطلح "ماغيد" إلى القائد الروحي أو الواعظ الذي ينقل التعاليم الروحية والقصص الملهمة لأتباعه.

موضوعًا على مكتبها في ذلك الوقت، فلم يُصب بأي أذى، ولم ينجُ من الرصاصة داخل صندوق المجوهرات سوى تعويذةٍ واحدة تحمل دعاء السفر، الذي نطلب فيه من الله أن يحفظنا في رحلاتنا ويحرسنا في أسفارنا إلى البعيد، والمعروف بالعبرية باسم "تْفيلات هَادِيرِيخ".

هناك إشارات ورموز وعجائب مرتبطة بموته وحياته. هناك روابط لا أفهمها، لكنني أعلم أنني جزء من قصة لامحدودةٍ تتجاوزني، قصة أعظم من قدرتي على إدراكها. إنّ موت قوبي يمتد إلى ما هو أبعد من حدود جسدي، فيتشعّب نحو العالم، مطالبًا بأن يُستكشف، أن يُفهم.

مهمتي أن أحتضن موت قوبي بين يديّ الآن، أن أحمل حياته وموته، وأُقلِّبَه كما تُقلّب بلورة الكوارتز، كاشفةً كل وجه من وجوه النور الكامنة فيه، كل ذرة من القداسة، كل شعاع من الأمل.

أتعثر أحيانًا. أغرق في الحزن. أستسلم لليأس حين يعجزني المعنى. فما المعنى حين يكون ابني قد مات؟ ثم تنحسر موجة الألم. فأسبح من جديد نحو حياته وموته، باحثةً مرة أخرى عن المعنى، الذي هو طوق النجاة من الغرق.

الفَصْلُ السَّابِعُ

ظُهُورُ النَّبِيِّ إِلْيَاهُو (إِلْيَاس) فِي خِتَانِ قُوبِي

أولًا، كانت هناك اللافتات التي تعلن عن قدوم المشيح. ثم ظهر النبي إلياهو، المعروف باسم إلياس في العربية، في حفل ختان قوبي داخل مطعم في وسط أورشليم القدس ورآه صديقنا روجر، لكنني لم أصدقه في ذلك الوقت.

لم أكن ممن يؤمنون بالآيات والعجائب، وما أقصده أنني لم أكن أرى في كل حدث إشارة إلهية أو معجزة خفية. فقد كان طريقي ممهّدًا للحصول على تعليمٍ مرموق في إحدى جامعات النخبة، ولم أكن ممن يبحثون عن إشارات من الله. فأنا لم أكبر في بيئة متديّنة، حتى أنني لم أتلقَّ أي تعليم ديني على الإطلاق— فلم أحضر دروس الدراسات اليهودية أيام الأحد، ولم ألتحق بالمدرسة العبرية بعد الدوام المدرسي، ولم يُقَم لي احتفال "بات ميتسفاه" حين بلغت الثانية عشرة.

لم يكن والدي مهتمًا بحضور الصلاة في الكنيس في بلدتنا، فقد كان ذلك في نظره أشبه بعرض أزياء، حيث يستعرض الناس ملابسهم الجديدة. أمّا والدتي وجدتي، فلم تتلقيا أي تعليم يهودي وكانت جدتي تُحضّر لي شطائر لحم الخنزير على الغداء، رغم تحريم ذلك في الشريعة اليهودية. كان ارتباطي الوحيد بالمجتمع اليهودي هو عملي في الكنيس كنادلة، حيث أجهّز الطاولات، وأصبّ الماء، وأطوي المناديل، مرتديةً سروالًا مخمليًا أحمر ضيقًا وجريئًا. كنت أعلم أنني يهودية، لكنني لم أكن أفهم جيدًا ماذا يعني ذلك حقًا. لم أقابل يومًا يهوديًا متدينًا، ولم أسمع حتى عن يوم السبت المقدّس، المسمّى بالعبرية "شبات."

كنتُ أرغب في التخلّص من هويتي اليهودية؛ فهي لم تكن مجرد شيء غير إيجابي في نظري، بل كانت عبئًا ثقيلًا أحمله.

في مدرستي الابتدائية في إيست روكاواي في لونغ آيلاند، في ولاية نيويورك، كان ثمانية وتسعون بالمئة من الأطفال يهودًا، وكان معظمهم يرتادون ما يُعرف بـ"المدرسة العبرية"، حيث يتلقون دروسًا في التاريخ اليهودي والدين اليهودي واللغة العبرية بعد انتهاء الدوام المدرسي. كنت أعتبر نفسي محظوظة، فبينما كانوا مشغولين في المدرسة العبرية بعد الظهر، كنت أعود إلى البيت لأشاهد التلفاز براحة تامة. وعندما حلّ عيد ميلادي الثالث عشر، احتفلت به برفقة والديّ فحضرنا مسرحية برودواي الموسيقية

"هاير" (Hair)، التي تضمنت مشهدًا عاريًا، حتى أنني صعدت إلى خشبة المسرح في ختام العرض ورقصت مع الممثلين. وليس ذلك فقط، ففي الصف التاسع، كنتُ مشجعة (فتاة تشجيع Cheerleader).

لم أتمرّد على والديّ في المدرسة الثانوية، لأنهما كانا متساهلين ومتسامحين، يمنحانني الحرية دون أن يملِيا عليّ كيف أكون أو كيف أتصرف. لكن لاحقًا، في عشرينياتي، اتخذ تمرّدي صورةَ بحثٍ عن المعنى، وهذا ما حدث: سافرتُ إلى إسرائيل عام 1984 لأنني كنت أرغب في العمل في أحد الكيبوتسات. كنت قد قرأتُ عن الكيبوتسات خلال دراستي الجامعية، وكتبتُ بحثًا عن تربية الأطفال فيها، ولأن أيديولوجية الحياة هناك، المتمثلة بالمثالية وروح الجماعة بين سكانها، استهوتني وفُتِنتُ بها، فقد سافرتُ إلى إسرائيل. لكنّ ذلك لم يكن السبب الوحيد، إذ سافرتُ أيضًا لأنني كنتُ أشعر بشيءٍ ينقصني في حياتي، أو ربما على مستوى أعمق، كان هذا الشيء ينقصني في وجودي ذاته.

قبل أن أسافر إلى إسرائيل، درستُ في جامعة كورنيل، ثم في جامعة ولاية كولورادو، حيث حصلتُ على درجة الماجستير في الكتابة الإبداعية. كنتُ شاعرةً، وكان الشعر طريقتي للاتصال بالروحانية؛ إذ إن الاستعارة الشعرية، في جوهرها، ليست سوى إعادة لرؤية العالم، وطريقةً للإيحاء بأن الأشياء التي نظنها غير مترابطة قد تكون، في الحقيقة، متصلةً ببعضها. ففي الشعر، يمكن أن يُشبَّه الحجر بالموت، ويمكن أن يصبح الماء المتلاشي في المصرف زهرةً. إن ما يبدو مختلفًا، هو في جوهره واحدًا. ففي الشعر، يظهرُ أن في الكونِ نوعًا من الوحدة.

ثم انتقلتُ إلى كاليفورنيا، وتحديدًا إلى لوس أنجلوس، حيث عملتُ في مشروع "حفل العشاء" (The Dinner Party Project)، وهو مشروع فني نسوي عُرِض في متحف سان فرانسيسكو للفن الحديث، وعملنا عليه أيضًا في لوس أنجلوس، وقد أشرفت عليه الفنانة الأمريكية جودي شيكاغو، بمساعدة ما يقارب مئة متطوع. كان هذا المشروع معرضًا فنيًا بحجم غرفة، يعيد سرد تاريخ النساء بطريقة بصرية، مستخدمًا فنون الحِرَف النسائية، من بينها صحونُ عشاءٍ نُحِتَت لتُجسّدَ صورًا تجريديّة لعضوِ المرأةِ التناسلي، كجزء من الرمزية النسوية التي سادت المشروع. كنتُ واحدة من المتطوعين، وقمتُ بتطريزِ مفارش الطاولات التي وُضِعتْ تحت أدوات المائدة الخاصة بكلِّ امرأةٍ بارزة ،حيث ترمز هذه المفارش إلى الحياة الخارجية لتلك الشخصيات النسائية، أي صورتهنّ العامة وإنجازاتهنّ. لكن مع مرور الوقت، بدأت أشعر بخيبة أمل تجاه الحركة النسوية، خاصةً بعد أن صرخت جودي شيكاغو في وجهي ذات يوم لأنني أزعجتها بينما كانت تتحدث على الهاتف! كنتُ أتصور أن النسويات يجب أن يكنّ على الأقل لطيفات، وأن مشاريعهنّ ستكسر هرمية السلطة التقليدية، لكنها في النهاية تصرّفت كالمديرين الرجال ،فساورني الشكّ في مدى صدق الشعارات النسوية التي كنتُ أؤمن بها.

فيما بعد، حصلتُ على أول وظيفة بدوام كامل في جامعة فرجينيا كومنولث، حيث كنتُ أدرّس مادة الكتابة الإبداعية لطلاب السنة الجامعية الأولى. وذات يوم، أثناء قراءة إحدى القصص في الصف، ورد ذكر عيد الحانوكاه اليهودي، المعروف بعيد الأنوار، فأدركتُ، لحظتها، أنني كنتُ الشخص اليهودي الوحيد في القاعة، لكنني لم أكن قادرة على شرح القصة الحقيقية للحانوكاه لطلابي! بالطبع، كنت أعرف

أننا نشعل الشموع في هذا العيد، لكنني لم أكن أعرف قصته فعلًا—أي هوية "المكابيين" ولماذا كانوا يقاتلون.

في عام 1984، وبعد أن انتهت وظيفتي في التدريس، انتقلتُ إلى غرناطة في إسبانيا، حيث عشتُ في منزل محفور في كهف، بلا كهرباء. هناك، درستُ اللغة الإسبانية وترجمتُ الشعر، واستمتعتُ بالاستماع إلى غجر الحي وهم يعزفون موسيقى الفلامنكو. كنت أخطط للسفر إلى أستراليا لزيارة صديقي، الذي كان يعمل راعي بقر في مزرعة في المناطق النائية المعروفة بـ"الأوتباك"—وهي الأراضي الشاسعة والنائية في أستراليا حيث تمتد المزارع الكبيرة ويعمل رعاة البقر. لكن بدلًا من ذلك، انتهت علاقتنا، وفكرتُ أنه لا بأس في استكشاف المزيد عن هويتي اليهودية، وبما أنني لم أدخل في علاقات من قبل إلا مع رجال غير يهود، فكرتُ أنه ربما حان الوقت لتجربة الارتباط بشخص يهودي.

وهكذا، في العام نفسه، 1984، وصلتُ إلى إسرائيل، وعلى الفور شعرتُ أنني في وطني، وذلك على النقيض من إسبانيا، التي لم أتمكن يومًا من التأقلم مع أسلوب الحياة فيها ،سواءً عادات الطعام أو العادات الاجتماعية؛ فعندما كنتُ أرغب في الإفطار، لم أجد سوى القهوة، بينما كان الغداء وجبةً ضخمة، أما العشاء فلم يُقدَّم إلا عند الساعة العاشرة مساءً. هناك، لم أشعر بانسجام مع الناس أو الثقافة، أو أنني مُرحَّبٌ بي، لذا شعرتُ براحة نفسية عند قدومي إلى إسرائيل. كنتُ قد خططتُ للإقامة مع صديقة لي من أيام الجامعة، لكنها كانت مسافرة، فاستضافني زوجها، جون ميدفيد، الذي اصطحبني في جولةٍ في البلدة القديمة في أورشليم القدس، فشعرتُ وأنا أشاهد شغفه بالبلدة القديمة كما لو أنّه هو من صممها بنفسه! فقد كان فخورًا بها لدرجة أنه قدَّم لي الزيتون والبندورة قائلًا بحماسة: "تذوّقي هذا الزيتون! تذوّقي هذه البندورة! لا توجد بندورة كهذه في أمريكا، أليس كذلك؟"

كذلك، كان الناس سعداء بوجودي في إسرائيل، بل إن الأشخاص الذين التقيتُ بهم صدفةً كانوا يقتربون مني ويقولون لي: "ابقي هنا، أنتِ في وطنكِ."

وبعد ذلك، ذهبتُ إلى أحد الكيبوتسات لأتطوع هناك، تحقيقًا لحلم راودني طويلًا. كنتُ في الثامنة والعشرين من عمري، بينما كان معظم المتطوعين في العشرين، وسرعان ما أدركتُ أنني لم أكن من النوع الذي يستطيع الاستيقاظ قبل الفجر، والعمل في كروم العنب، ثم السهر طوال الليل في الحفلات. لم يكن ذلك النمط من الحياة يناسبني، لذا غادرتُ الكيبوتس بعد أسبوع واحد فقط.

بعدها، توجهتُ إلى صفد، وهي بلدة جميلة في شمال إسرائيل، وبدأت الدراسة في برنامج "ليفنوت ولِهِبانوت" (والذي يعني "أن تبني وتُبنى")، الذي يجمع بين الدراسات اليهودية والعمل التطوعي في خدمة المجتمع، أي أن تسهم في بناء المجتمع من خلال العمل التطوعي، وفي الوقت ذاته تبني ذاتك بالمعرفة والتجربة الروحية. أحببتُ التعلُّم ومحاولة سبر أغوار النصوص الجديدة! وشعرتُ بإحساس عميق بالاستمرارية، مما أضفى على دراستي قيمةً ومعنًى. اكتشفتُ أن هناك متصوفة يهودًا عاشوا في غرناطة قبل محاكم التفتيش الإسبانية، لكن التصوف اليهودي لم يزدهر إلا لاحقًا، في مدينة صفد شمال إسرائيل، بعد أن طُرد اليهود من إسبانيا والبرتغال عام 1492. ولم يكن اهتمام هؤلاء المتصوفة منصبًا فقط على سموِّهم الروحي الخاص، بل تساءلوا أيضًا عن معنى المعاناة التي مر بها اليهود خلال محاكم التفتيش.

ودون تخطيط مسبق، وجدتُ نفسي أسير في دربٍ شبيه بذلك الذي سلكه اليهود الذين طُردوا من إسبانيا خلال محاكم التفتيش، والذين انتهى بهم المطاف في أرض إسرائيل. لكن على عكسهم، لم أكن أبحث عن التديُّن، ولم يكن يشغلني الالتزام بالشرائع اليهودية، ولا قوانين الطعام الحلال (الكوشير) أو قوانين السبت المقدس، المعروف بالعبرية بـ"شبات"، بل كنتُ مأخوذة بروح اليهودية أكثر من الامتثال لفرائض التوراة الصارمة. بقيتُ في البرنامج، لكنني اخترتُ أن أعيش وحدي في شقة صغيرة في صفد، حيث شعرتُ أنني أريد أن أقترب من هذا العالم بطريقتي الخاصة، بعيدًا عن القوانين والطقوس التي لم أجد نفسي فيها. وبعد انتهاء برنامج "ليڤنوت ولِهِبانوت"، عرض عليّ أحد أصدقائي غرفة مجانية في أورشليم القدس، حيث كان سينضم إلى الجيش، وستصبح غرفته شاغرة. فقبلتُ العرض وانتقلتُ إلى القدس لدراسة أساسيات اللغة العبرية، وكان ذلك بداية مرحلة جديدة في رحلتي. وقد كان مقدّرًا لي وقتها أن يُعرّفني أحد أصدقائي إلى سيث، الذي سيصبح لاحقًا زوجي.

نشأ سيث في بلدة ويليمانتيك الصغيرة بولاية كونيتيكت، التي عُرفت تاريخيًا بأنها مركز لصناعات النسيج والمطاحن. تقع البلدة على بُعد حوالي ستة وخمسين كيلومترًا شرق هارتفورد، عاصمة الولاية. وعندما كان والده، جاك (يعقوب)—الذي سُمِّي ابننا قوبي تيمنًا به —في الخامسة من عمره، كادت أن تدهسه عربة في القسم الجنوبي الشرقي من مانهاتن، المعروف باسم "لوور إيست ساید"، في نيويورك، وهو حي اشتهر تاريخيًا بتجمع المهاجرين اليهود. بعد هذا الحادث، قررت العائلة الانتقال شمالًا إلى الريف، حيث كانوا يقضون إجازاتهم سابقًا، بحثًا عن حياة أكثر أمانًا وهدوءًا بعيدًا عن صخب المدينة. في تلك البلدة، أسس جدُّ سيث الكنيس المحلي، ليكون مركزًا للجالية اليهودية الصغيرة هناك. وعندما كان سيث طفلًا، كانت عائلته واحدة من بين حوالي مئة عائلة يهودية تعيش في بلدة يبلغ عدد سكانها 15,000 نسمة. في تلك الفترة، كان المجتمع اليهودي صغيرًا، لدرجة أن صف سيث في المدرسة العبرية لم يكن يضم سوى ثمانية أطفال فقط. كان والدُ سيث خبّازًا، ووالدتُه ربّةَ منزل، وكان سيث أصغرَ الإخوةِ الثلاثة، وقد أصبح شقيقاه الأكبر محاميين، وهما يعيشان اليوم في بلدات صغيرة تشبه إلى حدٍّ ما ويليمانتيك. التحق سيث بجامعة كونيتيكت القريبة من مسقط رأسه، لكن بمجرد أن أنهى دراسته، لم يستطع الانتظار لمغادرة كونيتيكت، إذ كان يتوق إلى تجربة حياة جديدة في مكان مختلف.

كان سيث يخطط للانتقال إلى نيو أورلينز ليعمل نادلًا في إحدى الحانات، لكنه غيّر خططه فجأة عندما أعلن جون تشانسيلور، في نشرة الأخبار المسائية على قناة NBC عام 1973، أن إسرائيل في حالة حرب وتحتاج إلى متطوعين للعمل في الكيبوتسات. رأى سيث أن السفر إلى هناك سيكون أكثر إثارة وحماسًا، فقرر التوجه إلى إسرائيل بدلًا من نيو أورلينز.

عمل سيث في الكيبوتسات، وخلال رحلةٍ قام بها لاحقًا إلى السنغال للالتحاق بهيئة السلام (بالإنجليزية Peace Corps) التقى بحاخام شجّعه على التعمق في دراسة تراثه، قائلًا له: "أنت منفتح على كل شيء، فلماذا لا تنفتح على تقاليدك أنت؟" أثارت هذه الكلمات فضوله، فقرر زيارة الـ"يشيڤاه" (مدرسة دينية يهودية) ليوم واحد ،فوجد التجربة مثيرة للاهتمام، ثمّ عاد بعد بضعة أشهر ليبدأ مسارًا مكثفًا من الدراسة الدينية بدلاً من الانضمام إلى هيئة السلام. وعندما تعرفتُ إليه، كان قد غادر اليشيڤاه، لكنه واظب على الدراسة بشكل مستقل، متعمقًا في التلمود والفلسفة اليهودية. وفي الوقت الذي بدأتُ

فيه أُبدي اهتمامًا باكتشاف الدين، بدأ التزامه الدينيّ يضعف، فالتقينا، أخيرًا، "في المنتصف"، في نقطة وسطى، تلاقَت فيها مساراتنا الروحية بطريقة أعمق وأقرب.

كنتُ منجذبة إلى سيث جزئيًا لأن تديّنه كان غريبًا عني، لكنه أثار فضولي وأسرني في الوقت ذاته. ورغم غرابته التي بدت لي، كانت بيننا أوجه تشابه وأمور مشتركة أيضًا. فقد نشأ في بلدة صغيرة في كونيتيكت، ومع مرور الوقت اكتشفنا أن آباءنا اختاروا أن يسكنوا في المجمع السكني نفسه في فلوريدا. كان أشبه بشخصٍ مألوفٍ يسكن بجواري، لكن كما لو أنه زُرِع في بيئتي من مكان آخر. لقد أدركتُ أنني لطالما انجذبت إلى رجال لا يمكنني أبدًا أن أعرفهم حقًا لأنهم كانوا مختلفين عني تمامًا— مثل راعي البقر الذي كنتُ على علاقة به سابقًا —أما مع سيث، فقد شعرتُ أنني أستطيع أن أتعرف عليه حقًا، وأننا نستطيع أن نتقدم وننضج معًا. في ذلك الوقت، كنتُ أجد الديانة اليهودية ساحرة، وقد جذب انتباهي بشكلٍ خاص شغف سيث ومعرفته العميقة بها. فحتى طريقته في الصلاة كانت تبدو لي جذابة، بل تكاد تكون فاتنة. كان رائعًا أن يستحوذ عليك شيء بكل جوارحك، أن يمنحك إحساسًا بالمعنى، وأن تؤمن به بكل ما فيك. والمذهل أنني أدركتُ فورًا عمق الحكمة في اليهودية، فبعد سنوات شعرتُ فيها أنّ يهوديتي عبءٌ عليّ أن أخفيه، اكتشفتُ أنها كانت كنزًا لم أرفع عنه الغطاء من قبل.

عندما تزوجتُ من سيث عام 1985 في أورشليم القدس، وافقتُ على الالتزام بيوم الشبات، وبأحكام الكشروت (القوانين اليهودية للطعام) وأحكام النيداه (الامتناع عن لمس الزوجة خلال فترة حيضها)، لكنني لم أكن أعي حينها حجم المسؤولية التي كنتُ على وشك أن أحملها. لقد حافظتُ على وعدي لسيث، لكنني كنتُ أتمرد أحيانًا، فمثلًا، كنتُ أُشغِّل الأضواء يوم الشبات رغم تحريم الشريعة اليهودية الأرثودكسية لذلك استنادًا إلى تحريم إشعال النار في التوراة. وفي بعض الأحيان، شعرتُ أنني مسجونة، ولم يقتصر الأمر على وطأة القوانين اليهودية فحسب، بل كان لتأثير سيث أيضًا دورٌ في ذلك. بطريقة ما، كنتُ قد انغمستُ في الحياة الدينية دون أن أعي تمامًا ما كنتُ أدخل إليه. لقد استغرقني الأمر سنوات حتى أتمكن من تقبّل كل ما التزمتُ به، دامجةً إياه في هويتي، لأعرف حقيقة أن أكون شخصًا متدينًا، وفي المقابل، تعلّم سيث أيضًا أن يتقبلني كما أنا، وليس كما كان يريدني أن أكون.

لم أكن أدرك أن موت قوبي سيهزّ الـ"عشّ"، الأساس الذي بنيته مع زوجي سيث، ولم أكن أعلم حينها كم سأكون ممتنّة لوجود رجل أفهمه وأجد فيه سندًا لي.

ورغم أنني كنتُ "متديّنة" عندما وُلد ابني، إلا أن إيماني لم يكن راسخًا. ما جذبني إلى الحياة الدينية اليهودية لم يكن العقيدة ذاتها، بل أسلوب الحياة—كالـ"شبات"، والأعياد، وروح المجتمع، والتركيز على الدراسة—لكن ما شدّني أكثر هو ذلك الانسجام بين ما يتعلمه الناس وبين سلوكهم. بالطبع، لم يكونوا مثاليين، لكنهم كانوا يسعون جاهدين ليكونوا أكثر عطاءً واهتمامًا وحرصًا على الآخرين.

لكن الإيمان بالله لم يكن سهلًا عليّ. لم أشعر به، ولم يكن ينبع من داخلي بشكل طبيعي. ورغم تقبّلي له على المستوى الفكري، إلّا أنني لم أشعر بحضوره في حياتي. كان مجرد فكرة، لا إحساسًا نابضًا بالحياة.

حين أخبرتُ زوجي سيث عن ذلك، قال لي إنه مرّ بالتجربة نفسها، وإن الحاخامات نصحوه بأن يذهب إلى حائط المبكى، المعروف أيضًا باسم الحائط الغربي، لمدة ثلاثين يومًا متتاليًا، فيصلي من أجل الإيمان، ويتصرف كما لو كان مؤمنًا حقًّا، مؤكدين له أن الإيمان سيتجذّر في قلبه مع الوقت. وبالفعل، قال إنه بدأ يؤمن بالله بعد ذلك، لكن إيمانه لم يكن مشحونًا بالمشاعر، بل قائمًا على المنطق. فبالنسبة له، بدا وجود خالق أمرًا بديهيًا، فكما أن لكل شيء في هذا العالم صانعًا، حتى كيس القمامة في المطبخ، فمن الطبيعي أن يكون للكون كله خالق. أما أنا، فقد كنتُ أفهم المنطق وراء هذا النوع من الإيمان بالله، لكنه لم يكن يكفيني. فلم أبحث عن قناعة عقلية فحسب، بل عن شعور عميق يغمر قلبي، عن يقين حيّ أتلمّس عبره وجود الله، لكن ذلك الشعور ظل بعيدًا عني. فمهما حاولتُ، لم أجد الإشارة التي كنتُ أبحث عنها.

أثناء ختان قوبي، لم تكن أفكاري تدور حول الله أو المشيح أو النبي إلياهو، الذي يُقال إنه يحضر كل "بريت ميلاه" وتعني بالعربية مراسم الاحتفال بختان الطفل الذكر، حيث يُذكّرنا هذا الطقس الديني بأن حتى أكثر الأعضاء الجسدية ماديةً يمكن أن يكون له بُعد مقدّس. ووفقًا للتعاليم اليهودية وما أمرنا الله به في التوراة، يُنظر إلى هذه الطقوس على أنها تجعل خلق الطفل مكتملًا وتربطه بعهد الله. لقد أمرنا الله في التوراة بإقامة هذا العهد، أي الـ"بريت ميلاه"، في اليوم الثامن، ربما لأن الرقم ثمانية يرمز إلى ما هو أبعد من قوانين الطبيعة. ففي اليوم السابع "استراح" الله—أي أتمَّ الخلق—أما في اليوم الثامن، فقد توقف عن العمل المادي والروحي معًا. وهكذا، يرمز الرقم ثمانية إلى التجاوز، والخروج من حدود الطبيعة، ومن حدود هذا العالم إلى فضاء اللانهاية والإلهي وعالم المعجزات.

لكنني لم أكن أفكر في المعجزات، ولا في الأجيال المتعاقبة من الأطفال اليهود الذين مرّوا بهذه الطقوس عبر آلاف السنين. كنتُ أفكر في ألمي بعد ولادة طويلة أنهكتني. وبسبب إضراب المواصلات في أورشليم القدس، اضطررنا إلى السير عشر دقائق تحت أشعة الشمس الحارقة للوصول إلى مطعم "أوف ذا سكوير" (Off the Square) في وسط المدينة حيث سيُقام الاحتفال. كنت أتألّم مع كل خطوة أخطوها، ورغم أنني خضعت لولادة طبيعية دون بضع الفرج (شقّ جراحي)، إلا أنني أصبتُ بتمزقٍ بسيطٍ جعل المشي صعبًا وسبّب لي ألمًا.

"انظري"، قال سيث وهو يشير إلى اللافتات، "لا تزال الملصقات معلّقة". كانت تلك الملصقات تعلن عن قدوم الـ"مشيح"، وتحدّد الموعد بدقة: الرابع عشر من حزيران/يونيو عند شروق الشمس. نظرتُ إلى طفلي وهو نائم في عربته، فبدت ملامحه الصغيرة وكأنها خُلقت بإتقان إلهي، وكان نومه هادئًا وعذبًا. كنتُ حينها أملك معجزتي الخاصة، معجزة تنبض بالحياة بين يدي، فما حاجتي إلى الـ"مشيح"؟

لم أكن بحاجة إلى النبي إلياهو أيضًا، لكن، كما اكتشفنا لاحقًا، ربما يكون قد حضر بيننا، ضيفًا خفيًا في احتفال الختان. فليس إلياهو مجرد نبي، بل كيان يتجاوز حدود الزمان والمكان. يُقال إنه ينزل من السماء، متجسدًا على الأرض بأشكالٍ مختلفة فيساعد الناس أو يصنع المعجزات .إنّه النبي الذي لم يعرف الموت أبدًا، فقد ارتفع حيًا إلى السماء في مركبة من نار، لكنه يعود إلى الأرض إذا اقتضت الحاجة، ليقف إلى جانب الملهوفين. ويمكنه حينها أن يظهر بأي صورة — فيبدو شيخًا أو شابًا، غنيًا أو فقيرًا، في رؤية في المنام أو في اليقظة— فيمدّ يد العون، وينقذ العائلات الفقيرة التي أنهكها الجوع، ويخلّص

المجتمعات بأسرها من المحن والكوارث. لكن روحه أعظم من أن يحتويها عالمنا هذا، فلا بد له من العودة إلى السماء بين الحين والآخر، ليتصل، من جديدٍ، بمصدر النور والقوة. ولهذا، يُسمّونه 'طائر السماء'، فهو يحلّق بين العوالم، متنقلًا بين الأرض والسماء، لأنه ينتمي إلى كليهما.

في كل جيل، يظهر النبي إلياهو بطرق مختلفة، حاضرًا بين الناس بوسائل لا تُدرك دائمًا. فهو لا يصنع المعجزات وينقذ الصالحين من الهلاك فحسب، بل إنّه أيضًا الذي سيعلن قدوم المشيح، كما يُقال، إذ سيكشف عن نفسه في أحد الأيام قبل ظهور المشيح، فيكون بذلك رسول الخلاص وزارع الإيمان بالله في الأرض.

لكن إلياهو لم يكن دائمًا هذا النبي الذي يشهد الخير في البشر، بل كان في أحد الأيام قاضيًا قاسيًا، متعصبًا لدينه إلى حد جعله ينطق بحكمٍ ظالمٍ على شعبه. فقد اتهم بني إسرائيل بأنهم تخلّوا عن وصية الله بختان كل مولود ذكر، ولم يصدق كلام الله عزّ وجلّ حين أخبره أن اليهود لا يزالون يلتزمون بال"ميتسڤوت"، أي الوصايا الإلهية. فبدلًا من الإيمان بكلام الله، أصرّ إلياهو أن يكون خصمًا وطلب من الله أن يعاقب بني إسرائيل، أي اليهود، بعدم إنزال ندى الشفاء الإلهي على الأرض. لكن الله لم يترك إلياهو على يقينه هذا، بل قرر أن يعلمه درسًا، أن يريه بعينيه أن اليهود لم يتخلوا عن العهد، ومن هنا كان ال"تيكون"، أي الإصلاح الذي وقع للنبي إلياهو، بأن جعله الله شاهدًا على كل ختان يهودي، حتى لا يجرؤ أبدًا على التشكيك في أمانة شعبه أو التحدث ضدهم مرة أخرى. لم يعد دوره يقتصر فقط على مراقبة هذه الطقوس، بل يُقال إنه يرفع كل ختان وكل عمل صالح يفعله اليهود إلى الله، ليكون شاهدًا على استمرار الإيمان.

لطالما ظننت أن العيش إلى الأبد، مثل النبي إلياهو، الذي يُلقَّب بـ"طائر السماء"، امتياز عظيم، لكنني أرى الأمر اليوم بشكل مختلف. فليس بالضرورة أن تكون الحياة الأبدية نعمة، ولا أن يكون التحليق بين الأرض والسماء ميزة. النبي إلياهو لم يعرف الراحة قط، وكأنه محكوم بالتنقل بين العوالم بلا نهاية، وقد كان أسير تعصّبه الديني، وحُكِمَ عليه بأن يرى الخير في الناس حتى يتعلم أن يجده في نفسه. لقد كان متصلّبًا، سريع الغضب، غير قادر على تقبّل الاختلاف، أشبه بمراهق يرفض رؤية العالم من منظورٍ آخر، فكان جزاؤه أن يواجه إنسانية البشر مرارًا وتكرارًا، ليجد الخير فيهم ويدرك في النهاية أن النور الذي يبحث عنه لم يكن فيهم فحسب، بل فيه هو أيضًا.

وهكذا، أكمل النبي إلياهو مهمّته، وكان حاضرًا في احتفال بريت ميلاه الخاص بابني، قوبي. ولدينا، بالفعل، صورةٌ له أثناء الختان، حيث دخل رجلٌ مسنّ ذو ملامح مهيبة إلى المطعم الذي أقمنا فيه المراسم، مرتديًا بدلة رمادية وكيپاه سوداء (غطاء الرأس الذي يرتديه الرجال المتدينون)، وجلس بجانب زوجي سيث، بينما كان الحضور يقفون حولهما. كان يجلس بثقة وهدوء، وكأنه ينتمي إلى هذا المكان، ولم يبدو كضيف عابر، بل كشخص يعرف تمامًا لماذا هو هنا.

لم ندرك أنه كان متسوّلًا إلا عندما طلب من زوجي سيث صدقة. أعطاه سيث مبلغًا بسيطًا، وبدوره، ناوله الرجل إيصالًا احتفظتُ به لاحقًا في كتاب طفولة قوبي—ذاك الدفتر الذي كنت أجمع فيه كل ما يرتبط بسنواته الأولى، كأنني أحاول حفظ كل لحظة من حياته بين الصفحات. بعد مقتل قوبي،

أخرجنا ذلك الإيصال وتأملنا في التفاصيل الصغيرة المطبوعة عليه، فاكتشفنا أن التبرعات كانت تُجمع لصالح طلاب يشيڤاة الحاخام شمعون بار يوحاي، الذي يرتبط اسمه بالكابالا، أي التصوف اليهودي، والذي قضى اثني عشر عامًا معتكفًا في كهف يدرس التوراة، والذي تُحيى ذكرى وفاته في عيد لاغ باعومر.

كان صديقنا روجر هو أول من لاحظ إلياهو في احتفال الختان، إذ لفت انتباهه الرجل ذو اللحية البيضاء الطويلة والحزام الأسود العريض الذي كان يشدّ خصره. لم يكن ذلك مجرد تفصيل عابر، بل إشارة استوقفته، إذ إن سِفر الملوك في الكتاب المقدس اليهودي يصف النبي إلياهو بأنه كان رجلًا كثيف الشعر يتمنطق بحزام جلدي حول خصره. وفي المصادر الحسيدية، ليس الحزام مجرّد لباس عاديّ، بل يمتلك دلالة روحية عميقة، فهو يرمز للفصل بين أجزاء الجسد، حيث يُميّز بين الأعضاء العلوية—الرأس والصدر واليدين—التي، وفقًا للتلمود، خُلقت على صورة الله، وبين الأجزاء السفلية للجسد. وقد وضّح الكاتب ييري لانغر هذا المعنى في كتابه "تسعة مداخل لخفايا الحسيدية" (Nine Gates to the Chassidic Mysteries)، قائلًا: "في الجزء السفلي من الجسد، المسؤول عن وظائف الهضم والإفراز، يشبه الإنسان الحيوان. ومن هنا، فإن الحزام يُحدد الحد الفاصل بين الجزء الإلهي في الإنسان والجزء الغرائزي الحيواني فيه".

لاحظ روجر أيضًا نظرة العطف الأبوي الدافئة التي أبداها إلياهو، فأثار ذلك فضوله وأراد معرفة من يكون. كان الرجل يقف في الصف الأمامي، قريبًا جدًا من الحاخام الذي كان يحمل طفلنا، قوبي، بينما كانت أصابعه تمسّد لحيته البيضاء الطويلة. عند انتهاء احتفال الختان، قرر روجر اللحاق به. خرج الرجل من الباب، فركب روجر دراجته النارية وسار خلفه. وعندما انعطف الرجل يسارًا في زقاق ضيق، تبعه روجر، وعندما انعطف يمينًا، انعطف روجر أيضًا، لكن عندما رفع رأسه لينظر إلى الطريق أمامه، كان الرجل قد اختفى!

في ذلك الوقت، حين أخبرنا روجر بالقصة، لم يخطر ببالنا أن يكون ذلك المتسوّل هو إلياهو. لكن الآن، وبعد كل ما حدث، صرنا نؤمن بذلك، لأن إلياهو لم يكن هناك فقط في الفترة التي وُلد فيها قوبي، بل كان هناك أيضًا يوم مماته .ففي صباح ذلك اليوم، قبل مقتل قوبي ويوسف، مرّا أولًا على البقالة في قريتنا، وبما أن قريتنا لا تضم سوى مئتين وخمسين عائلة، كان مالكا المتجر، رينا ويعقوب أيوكاي، يعرفان تقريبًا كل من يدخل إليه. وقد تذكرت رينا أنها في ذلك الصباح، لاحظت رجلًا مسنًا بلحية بيضاء لم تره من قبل في المتجر. حينها، كان يوسف في الداخل، يشتري بعض الطعام لرحلتهما إلى الوادي، وكشف لرينا أنه سيهرب من المدرسة ليذهب إلى هناك، فأمرته أن يذهب إلى المدرسة وأخبرته أنها ستوصله لاحقًا. أما قوبي، فكان على الأرجح ينتظر في الخارج، مختبئًا حتى لا يراه أحد، لأنه كان يعلم أنني إن اكتشفت تغيّبه عن المدرسة، فلن يمرّ الأمر دون عقاب.

بدأ الرجل المسن يتحدث مع يوسف، محذرًا إياه من الذهاب إلى الوادي. لذلك، نظن أنه كان إلياهو، وأنّه كان يحاول إنقاذهما، مُرسلًا إليهما إنذارًا. وربما خرج أيضًا من المتجر ليحذّر قوبي، لكنهما كانا مراهقين، عنيدين، ورغم كونه نبيًّا، لم يستطع إنقاذهما. لم تحدث معجزات في ذلك اليوم.

أبكي إلى الله، وأبكي إلى إلياهو: لقد صنعتَ المعجزات مرارًا، فلماذا لم تنقذهما؟ لماذا لم تحمِ ابني؟ لماذا لم تُعد إليَّ قوبي ولو بعظمة مكسورة، أو حتى بارتجاج في رأسه؟ لماذا كان عليك أن تأخذ ابني مني؟

ليس لديّ إجابات. أتصور إلياهو وهو يصعد إلى السماء، يخبر الله أنه فعل كل ما في وسعه— فقد شهد الختان، وحاول أن ينقذ الصبيين. يا إلياهو، لا يكفيني مجرد تحذير أو إشارة، كنتُ بحاجة إلى معجزة!

الفَصْلُ الثَّامِنُ

العَالَمُ الآخَرُ

لماذا حدث ذلك لقوبي؟ لماذا أصابنا نحن، والديه وإخوته، هذا البلاء؟ حتى أيوب، الرجل الصدِّيق، لم يحتمل صدمته، فواجه الله بأسئلته واحتجّ على معاناته. لم يستطع أيوب، الذي كان مثالًا للصبر والإيمان، كتمان تساؤلاته حين حلّت به المصائب. وكذلك أنا، أسأل وأتساءل، لكن كل حاخام أذهب إليه يخبرني بألّا أطرح هذا السؤال، لأنني لن أتمكن أبدًا من معرفة السبب في هذا العالم—لن أعلم لماذا حدث ما حدث. لذلك، لا يوجد "لماذا؟" بل هناك "لأي غاية؟"—ماذا يمكنني أن أفعل بعد مقتل قوبي؟ كيف يمكنني أن أواجه هذه الفاجعة؟ إنهم يقولون لي إن البحث عن السبب عبثي، لكني رغم ذلك لا أكفّ عن التساؤل والتأمل، وأجد بعض الإشارات، كما سأقصّ عليكم.

كانت إحدى الإشارات التي تلقيتها تتعلق بصداقة يوسف وقوبي: فقد كانا ثنائيًا غير مألوف بين الأصدقاء، ورغم ذلك، نشأت بينهما علاقة وثيقة. فقد جمعتهما قرية تكواع، بعد أن انتقل كلٌّ منهما إليها في العام نفسه. انتقلت عائلة يوسف إشران إلى تكواع قادمة من أورشليم القدس، التي تبعد عنها نحو عشرين كيلومترًا، بينما انتقلنا نحن من بلدة إفرات القريبة، لكن قبل ذلك، كنا نعيش في سيلفر سبرينغ، ماريلاند، إحدى ضواحي واشنطن العاصمة، على الجانب الآخر من العالم. إنّ يوسف هو إسرائيلي وُلِد ونشأ هنا، تعمل أمه ريناه ممرضة في قسم الطوارئ في مستشفى هداسا، ويعمل والده عزرا شرطيًا. وُلِد والدا ريناه في إيران ثم هاجرا إلى إسرائيل، في حين ينحدر والدا عزرا من تركيا، وكانا يهودًا تقليديين متدينين، يعيشان بتقوى والتزام. لكن، وعلى عكس والديهما، لم يكن ريناه وعزرا متدينين بنفس الدرجة. أما بالنسبة لقوبي، فكان مهاجرًا جديدًا، وابنًا لحاخامٍ وكاتبةٍ، كلاهما من اليهود الذين أصبحوا متدينين بعد رحلة بحث روحية، فقد التقيا في إسرائيل، ثم عادا إلى الولايات المتحدة حيث عاشا هناك سبع سنوات قبل أن يعودا إلى إسرائيل مرة أخرى، وذلك قبل خمس سنوات من وقوع جريمة القتل.

كان قوبي ويوسف مختلفين في طباعهما وشخصيتيهما أيضًا، وتجلّى ذلك في محبة قوبي للقراءة وتفضيله البقاء في المنزل، إذ كان غالبًا ما يشعر بالخجل خارج البيت بسبب لكنته الأمريكية أثناء حديثه بالعبرية، بينما كان يوسف اجتماعيًا بطبعه وأكثر انطلاقًا. ورغم أنّ قوبي انتقل إلى إسرائيل في الصفّ الرابع، إلّا أنّه ظلّ يشعر بأنّه أمريكي، فقد كانت قراءته من أجل المتعة تتم بالإنجليزية، وكان يتابع الألعاب الرياضية الأمريكية، ويداوم على جمع بطاقات البيسبول. كذلك، كان متفوقًا في دراسته، ويتمتّع بذاكرة فوتوغرافية ساعدته على النجاح رغم الصعوبات التي واجهها في اللغة العبرية. أما يوسف، المولود في إسرائيل، فكان مختلفًا عنه تمامًا: إذ كان شخصًا ساحرًا، واجتماعيًا للغاية، يقضي وقته في التحدّث مع

الناس والاختلاط بهم بسهولة. وكان أكثر انفتاحًا من قوبي وأقل اهتمامًا بالدراسة، ولذلك لم يكن متفوقًا فيها مثله. ومن أوجه الاختلاف الأخرى بينهما، أنّ يوسف — على عكس قوبي — لم يكن متدينًا.

في الحقيقة، كنت سعيدة لأن قوبي وجد صديقًا، خاصةً أنه كان يتحدث معه العبرية فقط. وقد أخبرنا ابني دانيئيل أنه في بعض الأحيان، عندما كنا نطلب من يوسف العودة إلى منزله لأن الوقت قد تأخر، كان يبقى في الحديقة خارج البيت، يتحدث مع قوبي خلال نافذته.

تشارك الصبيّان أيضًا في حبّهما للضحك، وربما كان حسّ الفكاهة هو ما قرّب بينهما منذ البداية. وبعد مقتلهما، وجدتُ قرصًا مرنًا كان قوبي قد خزّن فيه مجموعة من النكات التي جمعها، وكان أوّلُ سطرٍ في ذلك الملفّ هو عنوان البريد الإلكتروني ليوسف.

كان الضحك حاضرًا دائمًا في علاقتي مع قوبي، فقد كنّا نمضي وقتًا طويلًا معًا، وكان يسلّيني خلاله بنكاته. وما زلتُ أذكر كيف أشرق وجهه فرحًا عندما سرد نُكتته الأولى خلال إحدى وجبات يوم السّبات، وكان حينها في الثامنة من عمره. كانت نكتة طويلة عن رجل يهودي اسم عائلته 'كوهين'، لكنه لم يدرك أن هذا اللقب لا يُكتسب بل يُولد حامله به، لأنه يعود إلى سلالة الكهنة من نسل هارون، الذين خدموا في الهيكل في أورشليم القدس، المعروفة ببيت المقدس، ولم يصبحوا كهنة باختيارهم، بل ورثوا هذا الدور جيلًا بعد جيل.

وكلما كبر قوبي، أصبح يروي أنواعًا مختلفة من النكات، من نكات "أمك سمينة جدًا"، وهي سلسلة من النكات الأمريكية التي تعتمد على المبالغة الساخرة حول الوزن، إلى النكات التي تتناول الحاخامات، حيث كان يجد متعة كبيرة في المزاح مع الجميع.

لماذا وقع الاختيار على هذين الصبيّين تحديدًا ليُقتلا؟ لا أحد يستطيع معرفة الإجابة، ومع ذلك، أؤمن بأن هناك إشارة يمكن أن نجدها في قصة مذكورة في التلمود البابلي، في باب تاعانيت (22أ)، عن النبي إلياهو والعالم الآخر.

تروي القصة أن النبي إلياهو كان ذات يوم في السوق، فاقترب منه الحاخام بروكا وقال: "أرني شخصًا يستحق "هاعولام هَابا"، وتعني العالم الآخر بالعربية"—أي دُلّني على شخصٍ نال حق الحياة الأبدية لأنه بلغ مستوى رفيعًا من التقوى، ودرجةً تجعله ينعم بنور الله ويكون محبوبًا عنده. حينها، كان في السوق عدد من علماء التلمود اليهود، الذين يرتدون أردية طويلة وعمائم أنيقة، وقد رأى الحاخام بروكا أنّهم من أهل العلم والحكمة، فظن أنهم بلا شك يستحقون هذا المقام الرفيع. لكن النبي إلياهو هزّ رأسه نافيًا وقال: "أنا آسف، لا يوجد هنا من يستحق ذلك". تحيّر الحاخام بروكا من جوابه، فمرّر يده على لحيته بدهشة، وما لبث أن لمح شابين يدخلان السوق، يتحدثان ويضحكان، بملابس بسيطة ومهترئة. فأشار إليهما إلياهو وقال: "هذان الشابان يستحقان الحياة الأبدية".

تقدّم الحاخام بروكا إليهما وسألهما باندهاش: "أنتم تستحقون الحياة الأبدية، لكن لماذا؟! ما المميز فيكم؟"

ابتسم الشابان وأجابا بثقة: "نحن نسرد النكات ونسعد الحزينين، نقرّب بين الناس بالضحك وننشر الوِفاق والوئام".

في حفلات الزفاف اليهودية، كان هناك شخص يُعرف باسم "البادحان"، وظيفته أن يجعل العروسين فَرِحَيْن ويخفف من توترهما. في اعتقادي، كان ابني الحبيب قوبي مثل هذا البادحان. فقد كان يشعر بي دائمًا ويعرف متى يكون يومي صعبًا، حتّى عندما لا أخبره بذلك، إذ كان يلاحظ كل شيء. أحيانًا كان يُحضر لي شيئًا لأشربه، فيملأ الكوب حتى حافته بحيث يفيض قليلًا، وقد كان ذلك يُضحكني، إذ كان من المستحيل شربه دون أن ينسكب. كان قوبي بارعًا في مفاجأتي، ويعرف دائمًا كيف يرسم البسمة على وجهي.

قوبي ويوسف كانا يحبان الضحك ويعشقان الفرح، ولكن لماذا يمتلك إسعاد الآخرين قيمةً بهذا القدر من الأهمية؟ ولماذا يُكسب الفرحُ الإنسانَ مكانًا في العالم الآخر؟

كان الحاخام نحمان من بريسلوف، أحد حاخامات القرن التاسع عشر في أوكرانيا، يؤمن بأن الفرح ليس مجرد حق، بل هو واجب على الإنسان. لقد مات أحد أطفاله، وكان يعرف من تجربته أن السعادة تمنح الإنسان القوة للاستمرار، وأنها السبيل لإيجاد معنى للحياة، وللإيمان بأن الله يمنحنا التحديات لننمو من خلالها. وفي هذا الصدد، يقول الحاخام نحمان إن الإنسان بطبيعته يميل إلى الكآبة والحزن، ولكن عندما نصارع هذا الميل، متمسكين بالفرح رغم المصاعب، فإننا نؤكد وجود الله في العالم ونشهد على وجوده العظيم ونِعَمه علينا.

بحسب التعاليم اليهودية، لم يكن الأنبياء يتلقون الوحي إلا وهم في حالة من الفرح، لأن الفرح من تجليات حضور الله.

أشتاق لقوبي، أشتاق لصوته وهو يضحك بجانبي، لكن بدلًا من ذلك، أتخيله الآن مع يوسف، جالسَين في السماء، يرويان النكات لبعضهما البعض ولله عزّ وجلّ، أتخيلهما يضحكان معه، ويُرفِّهان عن القدير نفسه. فربما، اختار الله هذين الفتيين لأنه هو أيضًا كان بحاجة إلى من يسعده.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

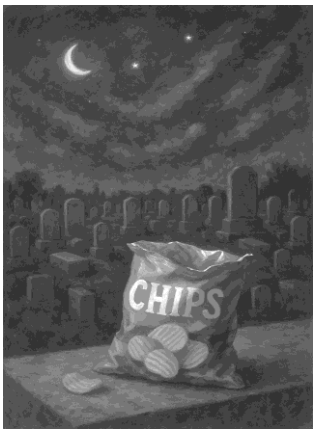

الشِّيبْسُ فِي الجِنَازَةِ

لم أستطع يا بُنيَّ الحبيب وفلذة كبدي أن أصدق أبدًا أن جنازتك قد وقعت، كأنها لم تكن سوى وهم، كنارٍ وُلدت من الماء، أو محيطٍ نُحِت من الحجر. رأى أصدقائي في نيويورك المراسم تُبَثُّ على شاشات التلفاز، وشاهدوا جسدي مُنكبًّا على نعشك، لكنني لم أصدّق أنّك في المقبرة، ولن أصدِّق يومًا.

بدأ موكب جنازة قوبي في قريتنا، وكانت الريح تعصف طوال اليوم بجنون، قوية إلى حدّ أن أصدقائي اضطروا للبحث معي عن معطفي الشتوي، الذي كنت قد خبّأته مع أغراض الشتاء، حتى أرتديه إلى المقبرة. وعندما خرجت من البيت، تشبّثت بذراع أصدقائي، فالريح كانت تدفعني إلى الوراء، كأنها تريد أن تمنعني من السير نحو الفاجعة. لقد حرصت الأخصائية الاجتماعية على أن يكون لكلّ واحد من أطفالي شخص بالغ يرافقه، وساروا معنا حتى الطريق الرئيسي في القرية. كنتُ أُمسك بأيدي أطفالي بينما كان الناس يصطفون على جانبي الشارع، وكانت هناك أيضًا سيارة إسعاف وصفّ من السيارات. وكانت عيني تبحث عنه... أين جسد قوبي؟ أين ابني؟

وما إن بدأ موكب الجنازة بالتحرك، حتى هدأت الريح، فتشبّثت بزوجي وأطفالي وأصدقائي. جاءت زوجة الحاخام تحمل سكينًا، وشقّت بها ياقة قميصي، ثم مزّقتْ قميص زوجي وأطفالي أيضًا— تعبيرًا عن الحِداد، كما تقتضي التقاليد اليهودية. لقد كان الشقّ في قميصي امتدادًا للتمزّق في قلبي. ومع ذلك، لم يُغمَ عليّ، لكن ساقيّ خانتاني، وكأن جسدي يريد أن ينهار، أن يهوي إلى الأرض، أن يتلاشى. لكنني لم أتلاشَ. شعرت أن قلبي توقّف عن النبض، وأن هذه اللحظة ستظلّ معلّقة في الزمن، نقطة ثابتة لا تمضي ولا تنتهي.

أحضر لي أحدهم كرسيًا قابلًا للطي، واقترب المسعفون ليفحصوا نبضي، ثمّ وقف الحاخام يتحدث، لكنني لم أسمع شيئًا مما قال. كان بصري شاردًا، مثبتًا على اللون الرمادي الباهت للوادي، على الصخور الوعرة. نهضتُ وأمسكتُ بأطفالي ثم تقدّم أحد الحضور وناولني الماء لأشرب. اندفعت الكاميرات نحوي كأنها حيوانات تحفر في الأرض، تحاول أن تكشف ألمي. ثمّ مشيتُ نحو السيارة، وما إن جلستُ في المقعد الخلفي حتى انطلق صراخي، صرخة الرعب والألم، صرخة الحقيقة التي لا أحتملها، حقيقة أنني في سيارة مع زوجي برفقة ثلاثة أطفال أبرياء، ونحن في طريقنا لدفن أخيهم. كان الموكب طويلًا، يتكوّن من صفٍّ ممتدٍّ من السيارات. عبرنا قرية عربية، ثم مررنا ببلدة إفرات المجاورة. كان الشارع يغصّ بناسٍ واقفين يملؤون الطريق، وعندما مررنا بينهم، انشقّ تجمّعهم لنا كما انشقّ البحر الأحمر

عندما عبر بنو إسرائيل خلال خروجهم من مصر. كانوا يصلّون، برؤوسٍ محنية، مودّعين ابني الحبيب قوبي وصديقه العزيز يوسف، وقد عرفتُ لاحقًا أنهم انتظروا هكذا لساعات.

توقّفنا عند مفترق طرق حيث أُقيمت مراسم علنية قبل أن نواصل المسير إلى المقبرة. وقد انضمّ إلينا آلاف المشيّعين، من بينهم وزيرة التربية ليمور ليڤنات وبعض السياسيين الذين ألقوا كلماتهم، لكن عيني لم ترَ سوى نقالتين موضوعتين على قوائم معدنية. شعرتُ بضيق في صدري، لم أكن أعلم أن جثمان ابني سيكون معروضًا هكذا، مكشوفًا أمام الجميع، إذ كان على كل نقالة جسد ملفوف بطاليت، وهو شال الصلاة اليهودي، وعلى طرف إحدى النقالتين، ثُبِّتت بطاقة تحمل اسم قوبي ماندل. كانت هذه آخر مرة أرى فيها ابني، آخر مرة ألمسه. اقتربتُ منه، أرخيتُ وجهي على جسده، بحثتُ عن رأسه، عن ساقيه، لكنه كان ملفوفًا بإحكام إلى درجة أنني لم أستطع التمييز بين أعضائه. احتضنته كما كنت أفعل دائمًا، محاولةً ضمّه إليّ، فتذكرتُ كيف كانت الممرضات يَلفُفنَه جيدًا عندما وُلِد ليشعر بالأمان، وها هو اليوم ملفوفٌ من جديد، لكن هذه المرة، لم أشعر بشيء، فأدركتُ فجأة معنى الموت. فقد غادرت روحه، وأصبح مجرد جسد بلا حياة، كائنًا انفصل عن وجودنا، وروحه صارت في مكان آخر، بعيدًا عن هنا.

ورغم الحشود الهائلة من حولي، كنتُ وحدي تمامًا أمام موت ابني. شعرتُ برغبة عارمة في أن أذوب في التراب، أن أغوص في الأرض، لكن شيئًا ما بداخلي أبقاني واقفة. أردتُ أن أرفع دعائي إلى الله وأرجوه أن يُدخلني إلى التراب مع قوبي، لكن قوة خفية جعلتني أتابع المسير، وهي القوة ذاتها التي دفعتني ذلك الصباح إلى خزانة ملابسي لأختار ثياب الجنازة، القوة ذاتها التي منعتني من الانهيار، وأبقتني على قيد الحياة.

ركبنا السيارة من جديد، وقد افترق موكب طويل من المركبات عنّا، كان يضمّ ريناه وعزرا وعائلتهما، الذين توجّهوا إلى مقبرة هار همنوحوت في أورشليم القدس، بينما كان صديقنا أڤراهام يقود السيارة التي ستقلّنا إلى المقبرة في كفار عصيون. في تلك اللحظة، تدافعت الأفكار في رأسي: لم أستطع تحمّل هذا، لم أعد قادرة على العيش! كيف سأتمكن من مواصلة الحياة وسط هذا الشر؟ كيف سأفسّر لأطفالي معنى الشر؟ كيف عسانا نعيش والموت أصبح رفيقًا لنا؟ كيف سنكمل الطريق دون قوبي؟

وصلنا إلى المقبرة، وقبل أن نفتح أبواب السيارة، اجتاحني رعب خالص، ألم يفوق احتمالي، فشعرتُ وكأن روحي قد فارقت جسدي، وكأنني انفصلتُ عن أطرافي، عن قلبي، عن أنفاسي. أيّ أم يمكنها أن تحتمل رؤية ابنها يُوارى الثرى؟ كلّ أم ستقف عاجزة أمام هذه اللحظة التي لا تُحتمل. كان ينبغي للأم أن تموت قبل ولدها، لا أن تشهد هذه اللحظة التي تدرك فيها أن حبّها له لم يكن كافيًا لحمايته، ولا أن تقف عاجزة عن إنقاذه من موت وحشيّ شوّه ملامحه، فلم يعد التعرف عليه ممكنًا إلا عبر سجلاته السنية، كما حدث مع ابني ويوسف.

وفي غمرة هذا الألم قلتُ في نفسي: من أين سأستمد القوة لأخطو نحو القبر؟ وما إن فتحتُ باب السيارة حتى قطع أفكاري صوت ابني غاڤي، ذي الستة أعوام، قائلًا: "أنا جائع، جائع يا أمي." نظرتُ إليه مصدومة وسألت: "ماذا؟ ألم يُطعمك أحد؟" هزّ رأسه وقال: "لا، أنا جائع."

وفي لحظة لم أستوعبها، انطلق شرطي بسيارته وسط الطريق، وأطلق صفارته وهو يسرع إلى أقرب متجر ليعود بكيس من الشيبس لغاڤي، فوقفنا بجانب السيارة ننتظره وهو يأكل. الجوع... هذا الإحساس البسيط، حتى في لحظة الموت، حتى في أقسى لحظات الحياة وأشدها قسوة، كان حاضرًا. كأن الله، وسط هذه المأساة، كان ينتشلني من ألمي من خلال ابني الحيّ الجائع، كأنّه كان يذكّرني بأن الحياة لا تزال تدبّ من حولي، حتى هنا، في حضرة الموتى. لقد كان غاڤي يأكل بشهية، يقرمش الشيبس ويستمتع به.

أدركتُ حينها أن هناك قوة خفيّة تدفعنا إلى التنفّس، قوة تجعلنا نرفع أعيننا إلى السماء حتى في أحلك لحظاتنا. إنّ قوة الحياة تجبرنا على الانتباه، على الاستمرار، على الصمود. وكما قالت الطبيبة راشيل نعومي ريمن، التي عملت طويلًا مع مرضى السرطان، في كتابها "حكمة مائدة المطبخ" (Kitchen Table Wisdom): "هذا الميل نحو الحياة يظل متقدًا في داخلنا، لا يخبو أبدًا، حتى اللحظة التي نموت فيها." وعلى الرغم من أنّ الحياة زائلة، إلّا أنّها ليست هشّة، فدافع البقاء قويّ، وقوّة الحياة لا تنكسر.

نزلنا إلى المقبرة، وكان الظلام نعمةً تخفّف عني وطأة المشهد، تمنعني من رؤية التفاصيل بوضوح، كأنها تحميني من مواجهة الحقيقة بكل قسوتها. كان الآلاف يحيطون بالقبر، يملؤون المساحة الممتدة بينه وبين موقف السيارات المطلّ على المقابر. وسط هذا المشهد، ومن دون أن يخبرنا مسبقًا، تقدّم ابني دانيئيل، ذو الأحد عشر عامًا ووقف أمام الجموع، وألقى خطاب التأبين، بكلماتٍ تنبع من عمق ألمه، فأغرقت الدموع وجهه وهو ينعى أخاه. لقد ناداه بصوت متهدّج، قائلًا: "كنتُ أريدك أن تكون هناك عندما أعود إلى البيت! ماذا سأفعل من دونك، يا أعزّ أصدقائي؟ من سيخبرني ماذا أفعل؟ مع من سأضحك؟ مع من سأتحدث؟ كيف استطاعوا قتلك وأنت لم تتجاوز الثالثة عشرة؟"

وقف الحاخامات يتحدثون في الجنازة، يلقون كلمات التأبين، وتقدّم أحد معلمي قوبي ليتكلم، ثم تبعه أحد أصدقائه. كنتُ أُمسِك بابنتي إليعانه وابني غاڤي، متشبثة بهما وكأنني أستمد منهما بعض التماسك، بينما وقف زوجي ليتحدث وقال بصوت يملؤه الألم: "هذه ليست قصتنا، لم نأتِ إلى هنا لنعيش هذا المشهد. جئنا إلى هذه الأرض لنكون قريبين من الله، أردنا أن نكون جزءًا من التاريخ اليهودي، لكننا نسينا معنى هذا التاريخ، نسينا أن المعاناة والمجازر محفورة فيه. أتذكر كيف كنتُ أضمك بذراعي وأنت طفلٌ صغيرٌ بينما كنتُ أدرس التلمود، إذ كنتُ آمل أن تدخل كلماته المقدسة إلى أعماقك وتملأ كيانك. ومع مرور السنين، واصلتُ تعليمك، لكن هناك شيئًا واحدًا لم أعلّمك إياه قط... لم أعلّمك كيف تموت".

كنتُ أسمع بلا إنصات، وأرى بعينين مغمضتين. رأيتهم وهم يُنزِلون جسد ابني المكفَّن إلى التراب، وتمامًا كما هو الحال في الجنازات اليهودية التقليدية في هذه البلاد، لم يكن هناك تابوت، فالجسد يجب أن يعود إلى الأرض كما خُلق منها، دون عائقٍ يمنع تحلّله، ودون ما يؤخر انفصال الروح عنه، حتى يمر الجسد بفترة تطهير، استعدادًا ليوم بعث الأموات" أو "يوم إحياء الموتى" حيث سيُبعَثُ الجسد من جديد ويلتقي بروحه مرة أخرى.

ثمّ بدأ الرجال يهيلون التراب على جثمان ابني، واصطفّ المعزون لإلقاء الحجارة على القبر المفتوح. كنتُ أنظر إلى المشهد وكأنه لا ينتمي إليّ، كأنني أقف في جنازة شخص غريب، فلا أبكي، ولا أشعر بشيء. سرتُ نحو موقف السيارات، بينما وقف صفٌّ من الرجال على الجانبين، يرتّلون الدعاء، مشكّلين ممرًّا نعبر من خلاله في طريقنا إلى السيارة. مررتُ بينهم، عبرتُ الظلام، بينما كانت صديقاتي يمسكن بي، يحمِلنني وأنا أتهاوى داخل نفسي، كأن جسدي ينهار من شدّة الحزن. لم أشعر بشيء، لأن قوبي لم يكن هنا، لم يكن في هذا القبر، لم يكن في الهواء، لم يكن في أي مكان. كنتُ سأعرف لو كان هنا، إذ كان سيدفعني بمرفقه ثم يصرخ في أذني، كان سيرفعني بين ذراعيه ليثبت لي كم هو قوي، وكان سيدوس على قدمي بقدمه ليجذب انتباهي، وأخيرًا كان سيطوّقني بذراعه ويحتضنني. كنتُ سأشعر به.

الفَصْلُ العَاشِرُ

الـ"شيقْعاه" وتَجَلِّياتِ اللهِ المُتَعَدِّدَةِ

شعرتُ وكأنني قد خرجتُ من جسدي، وكأن روحي التحمت بروح زوجي، فصِرنا كيانًا واحدًا، جسدًا واحدًا، يقتسم الألم ذاته، ننعزل به عن العالم ونحيا فيه معًا. وفي تلك الليلة الأولى، لم ننَم إلا لساعات قليلة، ثم استيقظنا عند الفجر، في تمام الرابعة صباحًا، وخرجنا إلى الشرفة الملحقة بغرفتنا. كانت العصافير تُغرِّد، والنور يتسلل رويدًا، والسماء مخضبة بخيوطٍ أرجوانية ووردية، فاحتضنَّا بعضنا البعض وانفجرنا بالبكاء.

استعاد زوجي وجوه أصدقائه الذين ماتوا في ريعان شبابهم، بينما غُصتُ في ذكرى بعيدة، حين كنتُ أستيقظ مع قوبي وهو رضيع في الصباح الباكر لأرضعه. حينها، كان غناء العصافير يملأ الأفق، محلّقًا بحريةٍ في السماء، وقد أشبهت تلك اللحظات سرًّا مقدّسًا، زمنًا سحريًّا لم أكن أشاركه مع أحد سوى طفلي، تنكشف لي فيها الحقيقة الخفية لجمال هذا العالم.

في صبيحة اليوم التالي لدفن ابني وفلذة كبدي، سمعتُ صوت العصافير من جديد. كان الصوت قويًا إلى حدٍّ بدا معه وكأنه شيء محسوس وكثيفٌ كغطاء سميك يلفّنا. فلم يكن مجرد تغريد عابر، بل إشارة تخبرني بأن الحياة التي عهدتها لم تَعُد كما كانت، وأنها بدأت تتحول أمام عينيّ. حتى الصوت، ذاك العنصر اللامرئي، تجسّد فجأة وأصبح ملموسًا، فشعرتُ بأننا لسنا مجرد كيان واحد ثابت، بل يمكننا أن نتغيّر، إذ يمكن للمادة أن تتحوّل إلى روح ثم تعود من جديد، وكأن الموت ليس إلا تبدّلًا في الهيئة، وتحولًا من شكلٍ إلى آخر.

تذكرتُ ما كتبه الشاعر الفرنسيّ آرثر رامبو عن تراسل الحواس في الشعر، وعن تلك اللحظات التي يمتزج فيها الحسّ بالمعنى، فتتداخل الأصوات مع الملموسات. واليوم، عشتُ ذلك بنفسي، إذ التحمت اللمسة بالصوت، وأصبحتُ أشعر به وكأنه جسمٌ ملموس، كأن التشابك الحسي (المعروف في الإنجليزية باسم Synesthesia وفي العربية باسم "الحِسّ المُرافِق")* قد تجلّى لي حقًّا.

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجِم: الحس المرافق هو ظاهرة تتداخل فيها الحواس عند بعض الأشخاص، حيث يستطيع دماغهم سماع أصواتٍ عند النظر إلى الألوان مثلًا، أو أو يشعرون وكأنّهم يتذوّقون طعمًا عند لمس الأشياء، وغير ذلك من تداخل الحواس فيما بينها.

رفعتُ بصري إلى القمر، الذي كان لا يزال في مكانه، عالقًا في السماء، لكنه لم يعد مجرد جرم مضيء، بل بدا لي كمدخل نفقٍ مفتوح، كأنه يناديني لأصدّق بأن ابني قد بدأ رحلة إلى عالمٍ لم يُكتب لي بعد أن أعرفه. ومع ذلك، لم أستطع أن أستسلم لهذه الفكرة، فكل ما أردته في تلك اللحظة أن أمدّ يدي وأجذبه إليّ، أن أستعيده من ذلك العبور. لقد أردتُ أن أسأله: هل أخذت معك معطفًا؟ هل معك ماء؟ هل أكلت؟ أردتُ أن أحميه وأرعاه!

وقفنا، أنا وزوجي، جنبًا إلى جنب، في حالةٍ من الحنوّ لم نشعر بها منذ سنوات، وربما لم نشعر بها من قبل على الإطلاق. ولأول مرة، كنا حاضرين حقًا، متيقظين تمامًا في وجودنا معًا. فقد منحنا قوبي برحيله هدية لم نكن ندرك حاجتنا إليها، لكنها باتت الآن ضرورة لا غنى عنها، وهي هذا الرابط القوي الذي يشدّنا معًا، الأشبه بجهاز إنعاش سيبقيُنا على قيد الحياة من الآن فصاعدًا.

لاحقًا في ذلك اليوم، التفت إليّ ابني غاڤي وسألني، بعفويته البريئة: "إذًا، من أصبحتْ أمّ قوبي الآن؟" ترددتُ للحظات، دون أن أدري بماذا أجيبه، إذ كنتُ أعلم أنني ما زلتُ أمّه، لكنني لم أعد أنا من يرعاه ويسهر ليطمئن على راحته، فقلتُ له: "الله هو أمّه الآن".

أشرق وجه غاڤي وعلّق بفرح: "جيّد! إذًا يستطيع أن يرى شهابًا متى أراد!"، فقد كان صغيري يؤمن بجمال هذا العالم وخيره، كان يؤمن بالسحر، وكان يؤمن بالله.

وخلال أيام العزاء السبعة، المُسماة في العبرية بالـ"شيڤعاه"، عشتُ في أرض الألم. كانت صديقاتي تخشينَ أن أضيع هناك، أن أذوب داخل الحزن دون عودة، أن أفقد القدرة على الاستمرار. وقد تملّك زوجي سيث القلق عليّ، لأن عينيَّ كانتا تتحركان في محجريهما باضطراب، ولم أستطع أن آكل، ولم يكن في داخلي رغبة للحياة، فحاولت صديقاتي أن يُطعمنني ،فربتنَ على كتفيَّ وظهري بحنان، وقرّبنَ ملعقة الطعام من فمي كما لو كنتُ طفلة. وحين جاء الطبيب، فحص لساني وقاس ضغطي وأصرّ عليّ أن آكل، لكن الطعام مخصصٌ للأحياء، أما أنا... فلم أكن منهم!

ثم نهضتُ، ونزلتُ الدرج، وصرختُ مطلقةً سراح ألمي. جلستُ على الأرض، وأحاط بي الآلاف، مادّين أيديهم نحوي لمواساتي والتخفيف عني. أحيانًا، كان أطفالي يحيطون بي على الأرض، وأحيانًا أخرى كانوا يبقون في غرفهم ليلعبوا مع أصدقائهم. ولم أكن أعلم من يعتني بهم، لكنني رأيتهم يأكلون، ورأيت الكبار يحيطون بهم. تحدثتُ إليهم واحتضنتهم، لكنهم فضّلوا البقاء مع أصدقائهم، فقد كان ألمي شعلة، شعروا بها في يديَّ، ورأوها في عينيَّ.

خلال أيام العزاء السبعة، تُغطَّى المرايا، كما هو الحال في بعض التقاليد اليهودية، لأن التزيُّن ترفٌ وسط هذا الألم. فالإنسان في حزنه العميق يرغب في نسيان عالم المادة، وأن يتحوَّل إلى روح، كي يتحد مع الميت. فهذا العالم يبدو وكأنه عالم من الظلال، يفقد فيه الجسد وزنه .لم أرغب أن أمارس عاداتي اليومية في التزيّن ،فلم أضع ولو لمسة خفيفة من الكحل أو أحمر الشفاه، ولم أستحم ،مكتفيةً بارتداء القميص الممزّق نفسه طوال الأسبوع، فلقد شعرتُ أنني لا أقوى على شيء سوى التنفس.

العديد من الناس لا يحتملون صمت الحداد، فيحاولون كسره بالكلام، لكن قوانين العزاء في اليهودية تنصّ على أنّ الوافد إلى الـ"شيفْعاه" عليه البقاء صامتًا حتى يبدأ صاحب العزاء بالكلام، فإن لم يتكلم، فعلى الزائر أن يظل صامتًا أيضًا، ولا يلقي التحية حتّى. في الأيام الثلاثة الأولى، حيث يكون الألم في ذروته، يكون المفجوع أشبه ببيضة بلا فم، غارقًا في الصمت. وإنّ جوهر الـ"شيفْعاه" ليس تعزية المفجوع على مصابه، بل الوقوف بجانبه في حزنه. وكما يشير الحاخام موريس لام، فإن الهدف الأساسي لـ"شيفْعاه" هو تخفيف عزلة المفجوع، فالتعاطف معه لا يكون بالكلمات، بل بالحضور والصمت. وكما ورد في التناخ، وهو الكتاب المقدس في اليهودية، جلس أيوب مع أصحابه سبعة أيام، دون أن ينطق أحدٌ بكلمة، لأن العزاء لا يأتي إلا من الله. لهذا، حين يهمُّ البعض بمغادرة الـ"شيفْعاه"، يردد كثيرٌ من اليهود الذين يحافظون على التقاليد هذه الجملة" :ليُعزِّكُم الله بين سائر المُنْتَحِبين في صهيون وأورشليم القدس."

لكنني لم أكن صامتة، إذ كنتُ بحاجة لأن أتحدث عن قوبي. لم أستطع احتمال ألم الصمت، وكان هناك من يأتيني بكلمات تخفف وحدتي، ولم تكن، لحسن الحظ، تلك العبارات المعتادة مثل: "ابنكِ في مكان أفضل"، أو "الحمد لله أن لديكِ أطفالًا آخرين"، بل كلمات تعبّر عن وقوفهم معي في هذا الحزن. لقد كنتُ بحاجة إلى أن أكلّم الناس ويكلّموني، وطلبتُ من صديقتي أن تضع لافتة على الباب تقول: 'هذا بيت "شيفْعاه"، أي بيت عزاء، وكل الأحاديث يجب أن تكون عن قوبي'. وقد رفضتُ الاستماع لأي حديث سطحي أو عادي وكنتُ أردّد: "قوبي فقط، قوبي لا غير".

منحني الكثيرون حينها كلمات تحمل حكمة، فكنتُ أتشبّث بها كحبل أتسلّقه. كانت النساء ينحنينَ نحوي، يجلسنَ معي على الأرض، ويقرّبن وجوههنَّ من وجهي. كانت وجوههنَّ جميلة، وعيونهنَّ مفتوحة، وأصواتهنَّ ناعمة دون أن تفتقد القوّة. واليوم، أعلم يقينًا أن كل إنسان مخلوقٌ على صورة الله، كما تخبرنا التوراة، لأنني كنتُ أراه وأسمعه في وجوههنَّ، فلم تكن مجرد وجوه، بل تجلّياتٌ لله. كنتُ أدرك أنهنَّ لم يكنَّ إلا الله، أتى ليواسيني بأذرعهنَّ التي تطوّقني، وأعينهنَّ التي تنظر في عينيَّ. كنَّ يغترفن من أرواحهنَّ ليمنحني أجزاء إلهية، حبًّا ورحمة، كنَّ يطعمنني بكلماتهنَّ. النساء في إسرائيل لا يخفينَ الألم، لأنّ الموت رفيقهنّ الدائم. وقد كنَّ يقلن لي:

"ابنكِ لن يُنسى أبدًا. لن ندعه يُنسى..."
"سنكون معكِ، لن تبقي وحدكِ أبدًا، أبدًا..."
"إنه ابننا أيضًا، نحن نبكي معكِ..."
"هو مع الله، ينعم بحبه، وأنتِ الآن ستنعمين بحبنا..."
"ابنكِ كقارب جميل، يبحر بعيدًا، وحين يتجاوز الأفق لن تتمكني من رؤيته، لكنه لا يزال هناك، يمضي في عُرْض البحر..."

ثم قالت لي إحداهنّ: "قُتل أخي، وأمي عانت كثيرًا، لكن بعد الألم الفظيع، جاءت النِّعَم. كانت أمي ناجية من المحرقة، التي قُتل فيها والداها وإخوتها جميعًا، لكنها نجت، وأعادت بناء حياتها هنا في إسرائيل، ثم قُتل أخي في هجوم إرهابي على حافلة عام 1979". ولقد تذكرتُ ذلك جيدًا، إذ قضيتُ عندها مرّةً ليلة يوم السّبات، وطوال الليل حدّق إليّ شابٌ وسيم من إطار صورته، وكنتُ أشعر بأنه ميت. وفي

الصباح، سألتها عنه، فأخبرتني أن أخاها مات وهو في السادسة والعشرين. والآن، خلال أيامي في الحداد، قالت لي: "كانت أمي تنعم بالبركة في حياتها، رغم كل ما أصابها من محن، وستكون لكِ البركة أيضًا. فالله يأخذ، لكنه أيضًا يمنح. ستنالين نصيبك، والله سيرزقكِ البركة."

حرّكت هذه الكلمات مشاعري بعمق، وأردتُ أن أصدقها، لكنني لم أستطع أن أفهمها.

ثم جاءت الأمهات اللواتي فقدن أبناءهنّ في هجمات إرهابية، فقالت لي أمٌّ فقدت ابنها المراهق في هجوم إرهابي وهو يتنزّه في وادي القلط: "ستُكملين المسير وستواصلين الحياة." ثم أخذت تقدّم لي نصائح عملية: "لا تجعلي من غرفة ابنكِ مزارًا، بل رتّبي أغراضه وضعيها جانبًا، واستعملي غرفته، فلستِ بحاجة إلى أن تبقى صوره منتشرة في كل مكان."

كانت هذه الأمّ، التي تضع المكياج وتتزيّن بالأقراط، امرأةً جذابة، بشعرٍ قصيرٍ مقصوصٍ بمهارة ومصفّف بأسلوب عصري. وحين نظرتُ إليها أدركتُ فجأة: يمكنكِ أن تظلي على قيد الحياة حتى بعد موت ابنكِ.

تحدثت إليّ امرأة أخرى، فقدت ابنها البالغ من العمر تسعة عشر عامًا في إطلاق نار من سيارة مارة، وقالت: "يجب أن تفهمي أن ابنكِ لم يرحل. من الآن فصاعدًا، سيعيش داخلكِ. نحن نفتقد حضورهم الجسدي بيننا، لكننا ما زلنا مرتبطين بهم. وأنتِ، بطبيعة الحال، لن تنسيه أبدًا."

مددتُ يديّ نحو أيديهنَّ كأنها أغصانٌ تمتدّ إليّ، لتنتشلني من وسط نهرٍ هائج. كنتُ أبحث عن شيء يمسكني، شيء يسحبني بعيدًا عن هذا التيار الجارف من الحزن. ثمّ نظرت إليّ إحدى صديقاتي وقالت بهدوء: "أنتِ كلكِ روح، والآن تسمحين لنا برؤية روحكِ. لقد جرّدك الحزن من كل ما هو مادي أو سطحي، فلم يَعُد هناك شيء يغلّف حقيقتكِ أو يحجب جوهركِ. تلاشى كلُّ تظاهر وتصنّع، وبقيتِ أنتِ، بقيتْ ذاتكِ الخالصة، وحقيقتكِ العارية، وروحكِ في أنقى صورها، بلا حواجز أو أقنعة. كلّ من حولكِ يرى الآن روحكِ بوضوح، لأن الألم كشف أعماقكِ مُظهرًا روحكِ".

ثم جاء الساسة لزيارتنا، فقد كانت إسرائيل، بصغر حجمها وتاريخها المليء بالصراعات، تتبع تقليدًا يحضر فيه السياسيون جنازة أو عزاء كل شخص يُقتل في هجوم إرهابي أو في الحرب، أي كل من يُقتل على خلفية الصراع الوطني. حينها، أخبرتُ الرئيس موشيه كاتساف أنني بحاجة إلى أبٍ يواسيني، لكنّه حدّق إلى وجهي دون أن يراني حقًا، فلم يكن لدى كبير الحاخامات، ولا الوزراء، ولا رؤساء البلديات، الكلمات المناسبة لتعزيتي.

"ماذا نفعل بالألم؟" سأل زوجي أحد الحاخامات الذي فقد طفله البالغ من العمر أحد عشر عامًا في حادث حافلة قبل سنوات، فأجابه الحاخام: "عليكما أن تستخدماه للسموّ الروحيّ".

وقال حاخامٌ آخر إن مأساتنا والألم الذي خلّفتْه هما اختبار قاسٍ للقلب، لكن علينا أن نلجأ إلى الله، فهو وحده من يستطيع أن يمنحنا العزاء.

لكنّ صديقتي ڤاليري أخبرتني أن الحاخامات أنفسهم يبكون كالأطفال خارج المنزل، لأننا مهما حاولنا أن نفسر الألم بطريقة عقلانية أو أن نسيطر عليه بالفكر، فإنه يظل رابضًا على القلب كوحشٍ ينتظر اللحظة المناسبة ليسحقنا، ليمزقنا إربًا حتى لا يبقى منا شيء، حتى نصبح مجرد غبارٍ يحمله الهواء.

كنتُ أستيقظ كل صباحٍ باكية، وأخلد إلى النوم والدموع لا تزال تبلل وجهي. صار جسدي عبئًا لا أطيقه فهو ماديٌّ أكثر مما ينبغي، وكنتُ أرغب في التخلّص منه حتّى أصل إلى الروح داخلي، أردتُ أن أجد طريقي إلى ابني، لأتصل به وأتّحد معه.

نظرتُ إلى النساء اللواتي أحطنني بأذرعهن، اللواتي قدّمن لي أجسادهن لأبكي عليها. أولئك الأمهات من اليهود اليمنيين والمغاربة والبرتغاليين والأمريكيين كنَّ لي كالأمهات. لقد كان هناك في الـ"شيڤْعاه" حبٌّ وفير ،حبٌّ غامرٌ حملني بين ذراعيه وأبقاني طافية، وكأنني جسدٌ محمول على الماء.

الفصلُ الحادي عَشَر

الوَادِي والنَّبْعُ

لكل إنسانٍ مشهدٌ طبيعيٌّ يناسب روحه، فبعض الناس يزدهرون في المدينة، بينما يجد آخرون السكينة بين الحقول الخضراء حيث تمنحهم الطبيعة واتساع الأفق راحة داخلية، في حين أن هناك من لا تكتمل حياتهم إلا بالقرب من البحر. لكن الحقيقة أن كثيرين لا يُتاح لهم العيش في المكان الذي يتناغم مع أرواحهم، فيجدون أنفسهم في أماكن أخرى، وتحتج أرواحهم بصمت، مشتاقةً إلى ما تشعر أنه موطنها الحقيقي.

شعرنا أننا ننتمي إلى قرية تكواع منذ اللحظة التي وقع نظرنا فيها على الوادي، ذاك الوادي العميق الذي يجتاز أخدودًا في صحراء يهودا. وكأننا قد وجدنا الموطن الذي ننتمي إليه، فالجمال هنا يأسر الأنفاس، ويتجسّد في سلسلة من الجبال المخططة بالطبقات، تمتد حتّى الأفق بلا نهاية، وتحيط بوادٍ متعرج، والذي هو مجرى نهرٍ جاف يشقّ الصخور الصلبة بلا هوادة. هناك، تندمج الألوان معًا—البني والرمادي وتدرجات الأزرق الرملي (sand blue) حتى يتلاشى الحدّ بين الأرض والسماء فتتحدان معًا. لقد اجتذبنا هذا المشهد كأننا كنا عطشى له منذ زمن. وحمل فراغ هذه الأرض واتساعها، في صمتها، نداءً خفيًا إلينا، بأنها لا تتباهى بنفسها، رغم عظمتها، ولا تملك غرور الجمال، فهي شامخة بتواضعها.

الناس في تكواع يشبهون أرضها إلى حد كبير، فهم متواضعون وبسطاء، ومع ذلك، يحمل كثير منهم عظمة في أرواحهم. هنا تمتزج الثقافات، فتجد يهودًا مهاجرين من كل أنحاء العالم—من روسيا وفرنسا، والأرجنتين والمغرب—إلى جانب الإسرائيليين الذين وُلدوا ونشأوا هنا.

أُقيمت تكواع لأول مرة في منتصف السبعينيات كنقطة عسكرية، ثم أصبحت مستوطنة في عام 1977 في عهد حكومة حزب العمل الإسرائيلي بقيادة إسحاق رابين، وكان شمعون بيريس من أبرز داعميها. في بدايتها، كانت مستوطنة علمانية يسكنها عدد قليل من المهاجرين الروس الجدد، لكن مع مرور الوقت، انضم إليها أفراد وجماعات أخرى من فرنسا وأمريكا. وفي عام 1978، قرر المؤسسون الروس، رغم أنهم لم يكونوا متدينين، أن من المهم أن يتعرّف أبناؤهم على التقاليد اليهودية. وبناءً على ذلك، اتفقوا على أن تكون قرية تكواع مكانًا يجمع بين اليهود المتدينين والعلمانيين ليعيشوا معًا في مجتمع واحد.

في البداية، كانت العلاقات مع العرب في المنطقة جيدة للغاية، لكن في عام 1982 تغيّر كل شيء عندما قُتل ديفيد روزنفيلد، وهو شاب يهودي هاجر من أمريكا، على يد إرهابيين أثناء عمله في حصن

هيروديون، الواقع على بُعد نحو كيلومترٍ ونصف الكيلومتر من تكواع. ومع اندلاع الانتفاضة في أواخر الثمانينيات، أصبح من المعتاد أن تُرشق سيارات السكان اليهود بالحجارة. وفي عام 1987، قُتل الرسّام مردخاي ليبكين على الطريق المؤدي إلى أورشليم القدس. وحين وصلنا إلى تكواع عام 1998، كانت الأوضاع قد هدأت، لكن التفاعل بين العرب واليهود كان محدودًا. ولم يكن انتقالنا إليها بدافع الأيديولوجيا أو لأننا أردنا أن نكون 'مستوطنين'، بل لأننا أحببنا المجتمع هناك، وكان ذلك بعد اتفاقية أوسلو، وكنا نؤمن بأننا نستطيع العيش بسلام، يهودًا وعربًا، جنبًا إلى جنب.

لو جئتم إلى هنا، فلن يكون أول ما يخطر ببالكم عند رؤية الناس أنهم مستوطنون. وستُفاجَؤون أيضًا بنمط حياتنا الهادئ وبالحرية التي ينعم بها أطفالنا.

المدرسة في تكواع ليست كأي مدرسة أخرى، فهي متميزة بروحها الفريدة، حيث يدرس فيها الأطفال المتدينون والعلمانيون معًا في بيئة واحدة. ولا يقتصر التعليم على الكتب والدروس، بل يعتمد على التجربة والممارسة، فيزرع الأطفال بذور القمح، ويعتنون بها حتى تنمو، ويحصدونها ويطحنونها، ثم يحولونها إلى طحين يستخدمونه عندما يخبزون الخُبز بأيديهم. ومن خلال ذلك، يتعلمون الوصايا المرتبطة بزراعة القمح وصناعة الخبز كما وردت في التوراة، مثل العُشور، وفصل العجين أثناء تحضير خبز الحلة ليوم السبت، المُسمّى في العبرية "يوم شبات"، وتلاوة دعاء الشكر على الخبز قبل تناوله.

يتعلم الأطفال في تكواع الزراعة بكل أبعادها، فيغرسون النباتات ويربون الحيوانات مثل المعز والحمير والأرانب، ويتعلمون التسميد وإعادة التدوير، ويقطفون الميرمية ويكتشفون أنها تصلح لتنظيف الأسنان، ويجمعون الزيتون من الأشجار ويخلّلونه بأيديهم. إنّ تكواع ليست مجرد قرية، بل إنّ احتضانها للأطفال يُذكّرنا بمقولة هيلاري كلينتون: "يحتاج الطفل إلى قرية بأكملها لينشأ ويكبر"، والتي تعني أن تربية الطفل لا تقع على عاتق والديه فقط، بل هي مسؤولية جماعية يشترك فيها المجتمع بأكمله، وبقية أفراد العائلة، والجيران، والمعلمون، والأصدقاء، بل وحتى البيئة التي ينشأ فيها الطفل. وفي سياق قرية تكواع، إن بكى طفل في طريقه إلى المدرسة لأنه نسي شطيرته، ستسمعه أم طفل آخر، وتُعدّ له واحدة أخرى دون تردد. وقد قال لي ابني دانيئيل ذات مرة إنه يشعر وكأن كل بيت في تكواع هو غرفة من منزلٍ واحد كبير، حيث يمكنه أن يدخل أي غرفة يشاء، وكأنه جزء من أسرة ممتدة لا تحدّها جدران المنازل.

هذه القرية هي المكان الذي يمكنك فيه أن تكون متدينًا وتعيش حياةً ريفية بكل بساطتها. وهنا كروم العنب، ومزرعة يُزرع فيها الفِطْر، وبساتين الزيتون، وخيول تجوب المكان، وكل ذلك وسط طبيعة تخطف الأنفاس بجمالها. ولا يبعد مدخل المسار الذي يعبر الوادي عن منزلنا سوى خمس دقائق مشيًا على الأقدام، حيث كنا نذهب للتنزه، فنصعد وننزل ببطء بين الصخور الحادة والمنحدرات الوعرة، ونحن نراقب أطفالنا وهم يقفزون برشاقة كالغزلان. وقد كنّا نتوقف أحيانًا في الكهوف التي عاش فيها الرهبان خلال القرن الخامس، لننقّب في الأرض بحثًا عن قطعٍ خزفية قديمة، هي بقايا من زمن بعيد ترك أثره هنا.

التجول في الوادي يشبه الإبحار في البحر؛ فهنا يمكن للعين أن ترى آثار الزمن منقوشة على الجبال الوعرة، وهنا حفر الماء والزلازل بصماتهما في الصخور، فخلّفا سلسلة من الكهوف، من بينها

كهف خريطون، أحد أكبر الكهوف في الشرق الأوسط. ويوحي المكان بأنّ الزمن قد انطوى داخله، محفوظًا بين طبقاته الصخرية.

لديّ صورة لابني الحبيب قوبي التُقطت قبل عامٍ من مقتله، يظهر فيها واقفًا عند حافة وادي خريطون، عندما خرجنا أنا وصديقاتي في نزهةٍ سيرًا على الأقدام. كان يرفع ذراعيه عاليًا، وهو يضحك، ويصرخ، مغمورًا بسعادة الانتصار، وفخورًا بنفسه، إذ كان حينها صبيًا يقف في مواجهة اللانهاية. فكل ما يمكن أن يبهر صبيًّا ويشعل فضوله كان هناك، من تضاريس وعرة، ونتوءات صخرية خشنة، وحفريات، وقطع خزفية متناثرة، وظلال، وضوء، وكهوف، وكأن هذا المكان صُمّم ليمنحه مغامرة لا تنتهي.

إن الصمت في وادي خريطون ليس مجرد غيابٍ للصوت، بل هو صمتٌ قديم، وعميقٌ إلى حدٍّ يجعله أشبه بحضورٍ قائمٍ بذاته، بل يكاد يكون صوتًا بحدّ ذاته، يُشعرني أنه ربما يكون صوت الله، وأنني في حضرة الجلال والعظمة.

إن الله هو صوت السكون الرقيق، الهامس، اللين، وذلك كما جاء في تفسير إحدى أهم الصلوات في أقدس يومين في الديانة اليهودية، وهما روش هَشاناه (رأس السنة العبرية) ويوم كيبور (يوم الغفران). وفي سفر الملوك، حين فرَّ النبي إلياهو (إلياس) إلى البرية ليختبئ في أحد الكهوف — الذي ربما كان مرتبطًا بذلك الذي قُتل فيه ابنِي قوبي — قيل له هناك إن الله سيظهر، فشعر برياحٍ قوية، وسمع زلزلةً، ورأى نارًا، لكن الله لم يكن في أيٍّ منها، فقد تجلّى له في صوت الصمت الرقيق (بحسب ما يذكرُ سِفر الملوك الأول في المقطع التاسع عشر في الآيتين 12-11. إن حضور الله ليس شيئًا يُفرض عليك أو يُجبرك على الاعتراف به؛ بل هو شيءٌ عليك أن تُرهف السمع جيدًا لتدركه، وأن تترك له مساحةً داخل سكونك الداخلي، بعد أن تُسكت كل الضجيج حولك. وهكذا هو الصمت في ذلك الوادي، فهو ليس فراغًا، ولا غيابًا، بل إنه أشبه بوضع أذنك على صدفةٍ بقيت تنتظرك أن تلتقطها منذ بداية الزمن، لتُصغي إلى صمتها الممتلئ بالحضور.

وسط الألم العميق والمعاناة التي نمر بها، بدأت أتأمل في صمت الكهف وصمت الوادي، إذ إن الصمت يحترم أسرار الحياة وحدود اللغة. فبدلًا من أن يملأ الفراغ بالكلمات، يعترف الصمت بعمق التجربة الإنسانية، فهو يدرك أن هناك أمورًا تتجاوز حدود الكلام، وأن اللغة، مهما اتسعت، تظل عاجزة عن احتواء رحابة تجربتنا وعمقها. فلا يأتي كل إدراك من النطق، بل توجد طرق أخرى للمعرفة والفهم، وأحيانًا يكمن الإدراك في المسافات بين الكلمات، فيما لم يُقل، وفي التأمل.

تعلّمتُ أنَّ الصمتَ يمكن أن يكون مقدّسًا. ففي نص التوراة الأسبوعي الذي قرأناه في يوم السَّبات الذي سبق مقتل ابني الحبيب قوبي، تُروى حادثة مؤلمة: الكاهن الأعظم هارون عَلِم أنَّ ابنيه قد ماتا بعدما قدَّما "نارًا غريبة"، أي نارًا لم يُؤذَن لهما بها، إلى المكان المُقدَّس، حيث كان ممنوعًا عليهما الدخول.

فحاول النبي موسى أن يُواسي أخاه، وقال له إنّ الله قد أخبرَهُ سلفًا أنّهُ سيتقدّسُ من خلال إنسان عظيم، كما وردَ في الترجمةِ العربيّةِ للتوراة، وفي تفسيرِ الحاخام سَعْديَاه جاعون، طيّبَ اللهُ ذِكرَهُ، وذلك في الآيةِ الثالثة من المقْطعِ العاشر من سفر اللاويين: "فقالَ مُوشِه لِهارونَ، هوَ ما قالَ الله، إنّي أَتَعَظَّمُ بِالمُقَرَّبينَ إِلَيَّ وَبِحَضرَةِ جَميعِ القَومِ أَتَكَرَّمُ، فَسَكَتَ هارون." وكان موسى يظنّ أنّ الله سيختار أحدهما —

هو أو هارون — لتتحقق به هذه القداسة. لكن حين رأى موسى أنّ من مات هما ابنا هارون، فهم أنَّ هذين الابنين كانا، في نظر السماء، أعظم منهما معًا، وأنّ الله قرّبهما إليه ليتقدّس باسمه أمام بني إسرائيل.

ورغم أنّ ذلك كان عزاءً صعبًا ومؤلمًا للغاية، فقد كان رد هارون هو الصمت، وبسبب هذا الصمت كافأه الله بأن خاطبه مباشرةً، دون أن يكون موسى وسيطًا بينهما. لكن حديث الله له لم يكن عزاءً، بل كان أمرًا يَمنع الكاهن الأعظم من شرب الخمر قبل دخوله إلى الهيكل. وقد ورد عن إسحاق بن يهودا أباربانيل، الذي كان مفسّرًا توراتيًا وفيلسوفًا ووزير مالية عاش في القرن الخامس عشر في إسبانيا، أنّ هذه الوصية تعني أن الصمت في لحظة الحزن، إذا لم يُعبَّر عنه، قد يقود صاحبه إلى اللجوء إلى الخمر أو المُسكرات لإخماد الألم الذي لم يُفصح عنه. وبالنسبة للكاهن الأعظم، الذي كان الأقرب إلى الله ونموذجًا يُحتذى به أمام الناس، كان الصمت هو الرد المطلوب على معاناته. لكن قلةً قليلة من الناس يستطيعون مواجهة الأحزان بالصمت، فكبت المشاعر، كما يحذرنا أباربانيل قد يحمل في طياته خطرًا دفينًا.

في الحقيقة، لا يوجد نموذج واحد للحِداد. وعندما كنتُ في لندن، التقيتُ بالسيدة ياعاقوبوفيتش، وهي زوجة الحاخام الأكبر السابق لإنجلترا وناجيةٌ من المحرقة، والتي قالت لي: "نحن جميعًا لوحدنا مع الله، وكل ما نملكه هو إيماننا. ماذا يسعني أن أقول لك سوى أنني أقف بجانبك في صمت؟" ربما يكون الله حاضرًا في الصوت الرقيق للصمت لأن الصمت وحده هو الذي يحترم عظمة المجهول.

لقد جذبهما الوادي إلى أعماقه. أخبر قوبي صديقًا له أنه يريد أن يعرف الوادي كما يعرف كفّ يده، فقد كان كلا الصبيَّين وافدَين جديدين إلى القرية، بينما كان جميع الأولاد الآخرين يعرفون الوادي جيدًا. فليس هذا الوادي مجرد قطعة طبيعية خلابة، بل يحمل في طيّاته تاريخًا طويلًا، وكان على مر العصور ملجأً للمتمردين والمقاومين. وفي التاريخ اليهودي، كان هذا الوادي موئلًا للمحاربين الذين لجؤوا إليه لاستجماع قواهم ومواصلة القتال. وفي عام 160 ق.م.، لجأ إليه يوناثان ال"مكابي"، وهو أصغر أبناء ماتتياهو، وأحد قادة الثورة المكابية ضد الحكم السلوقي. كان يوناتان واحدًا من القادة الذين واصلوا القتال لاستعادة الاستقلال اليهودي، واتخذ من هذا الوادي مكانًا للتحصّن وبناء قوته لمواجهة الجيش السلوقي.

وبعد أكثر من مئة وخمسة وثلاثين عامًا، في حوالي 25 ق.م.، بنى هيرودس الكبير قصرًا وحصنًا على بُعد كيلومتر ونصف تقريبًا من هذا المكان. اشتهر هيرودس بمشاريعه العمرانية الضخمة، ولتعزيز سلطته وتأمين مملكته، شيّد الحصون في مواقع استراتيجية مثل هذا الوادي، فتمكّن من مراقبة المنطقة والسيطرة على طرق التجارة الحيوية. وفي زمن الثورة اليهودية الأولى ضد الرومان، قبل دمار الهيكل الثاني عام 70م، قاد المقاتل اليهودي شمعون بار غِيورا مجموعات من المتمردين، جاعلًا من تكواع معسكرًا لثوراته العنيفة ضد الحكم الروماني. وبعد أكثر من ستين عامًا، شهدت المنطقة فصلًا آخر من المقاومة، إذ تمركزت فيها إحدى كتائب بار كوخبا، الذي كان قائد الثورة اليهودية الثانية الكبرى ضد روما بين 132-136م، وقد رآه كثيرون المشيح المنتظر، ومن بينهم الحاخام العظيم عقيبا الزعيم الروحي الأبرز في جيله، الذي اعتقد أن بار كوخبا هو تحقيق لنبوءة التوراة الواردة في سفر العدد 24:17: "...يَبْرُزُ كَوْكَبٌ

مِنْ يَعْقُوبَ، وَيَقُومُ قَضِيبٌ مِنْ إِسْرَائِيلَ...". فكان أمله أن يكون بار كوخفا هو القائد الذي سيحرر اليهود ويعيد لهم استقلالهم، لكن رغم نجاحاته الأولية، لم يتمكن من إنقاذ شعبه من القمع الروماني.

بحسب التلمود، قال الحاخام شمعون بار يوحاي: "معلمي الحاخام عقيفا*، كان يفسّر الآية السابعة عشرة في المقطع الرابع والعشرين من سفر العدد '...يَبْرُزُ كَوْكَبٌ مِنْ يَعْقُوبَ، وَيَقُومُ قَضِيبٌ مِنْ إِسْرَائِيلَ...'" هذا التفسير ينظر إلى بار كوخفا، الذي يرتبط اسمه بالكلمة العبرية "كوخاف" (أي كَوْكَب أو نجم)، على أنه تحقيق للوعد الذي قطعه الله ليعقوب بعد أن رأى في المنام سُلَّمًا منصوبًا على الأرضِ، يصلُ رأسُهُ إلى السماءِ، ويصعد وينزل عليه الملائكة. فقد بارك الله يعقوب قائلًا إنه سيمنحه أرضَ إسرائيل، وأن نسله سينتشر في الأرض، ومن خلاله ستتبارك جميع شعوب العالم. ومع أن بار كوخفا حقق نجاحات عسكرية في بداية ثورته ضد الرومان، إلا أنه لم يتمكن في النهاية من إنقاذ اليهود من القمع الروماني.

خلال ثورة بار كوخفا، وُجّهت رسالة إلى سكان تكواع، حيث كان بعض الأثرياء من أهل القرية يرفضون الامتثال لأوامر التعبئة العسكرية ويرفضون القتال. في تلك الرسالة، وجّه بار كوخفا توبيخًا شديدًا لأهل تكواع بسبب تقاعسهم عن الانضمام إلى النضال ضد الرومان، محذرًا إياهم من العواقب التي تنتظرهم بسبب إحجامهم عن القتال.

لكن في ذلك اليوم، لم يكن التاريخ هو ما قاد الصبيين إلى الوادي، فقد أخبرني أصدقاء قوبي أن ابني الحبيب وصديقه العزيز يوسف كانا يسيران وسط الممرات الوعرة في طريقهما نحو النبع، حيث تتفجر المياه من قلب الصحراء القاحلة. هذا النبع يحتوي على معجزةٍ، فهو لا يفيض أبدًا، لكنه لا يجف أيضًا، إذ يبقى دائمًا في حالة توازنٍ مثالي بين الأخذ والعطاء، فيتجدد باستمرار دون أن يتجاوز حدوده. إنّ النبع هو مصدرٌ لحياةٍ متجددة لا تنقطع، حيث يمكنك أن تأخذ منه كل ما تشاء، دون أن ينضب أبدًا. إنه مثل الأم المرضعة التي كلما رضع طفلها، زاد تدفّق الحليب في جسدها. فأحيانًا، كلما طلبنا المزيد، زاد ما نحصل عليه، وكأن الطلب نفسه يفتح أبواب العطاء، وكأن ما نسعى إليه ينمو حين نطلبه. أليس النبع هكذا أيضًا؟ كلما أخذنا منه، استمر في التدفق، كأنّه يقول لنا مشيرًا إلى وفرته التي لا تنضب: "خذوا ما شئتم، فلن أُستنزف".

لكن ابني الحبيب قوبي وصديقه العزيز يوسف لم يصلا إلى النبع. ولا أعرف بعد ما الذي حدث تمامًا، لكن ربما لاحظا مجموعة من الرجال الفلسطينيين يطاردونهما، فهربا، وربما ركض ابني ليختبئ داخل الكهف، لكنه لم يخرج منه أبدًا. لقد قُتل في الداخل، مشوهًا، مضرجًا بدمائه، حيث تهشّم جسده بوحشية، ثم لطّخ القتلة جدران الكهف بدمه.

في العبرية، كما في العربية، هناك ارتباط بين جذري الكلمتين "بْراخاه" التي تعني البَرَكة، و"بْريخاه" التي تعني بِركة الماء، ولا يقتصر هذا الارتباط على الأصل اللغوي فقط، بل يمتد إلى مستوى أعمق روحيًا؛

---

*مُلاحظة توضيحية من المُترجِم: أما الحاخام عقيفا، فقد قُبض عليه وعُذِّب بوحشية على يد الرومان، لكنه ظلّ يردد آيات التوحيد حتى لحظاته الأخيرة، ومات وهو يقدّس اسم الله.

فال"بِركةُ" ماءٌ متدفّق يصل بين الله وبين من ينال الـ"بَرَكةَ" منه. إنّ عليَّ أن أتذكر أنه حتى في قلب الصحراء القاحلة، كان ابني الحبيب قوبي وصديقه العزيز يوسف في طريقهما إلى النبع، إلى مصدر الحياة المتجددة. وكما قالت لي تلك المرأة خلال الشيفُعاه، لا بد أن هناك بركةً خفية تنتظرني وتنتظر عائلتي. ورغم أنني لا أشعر بها الآن، إلّا أنني أصلّي كي أجدها يومًا.

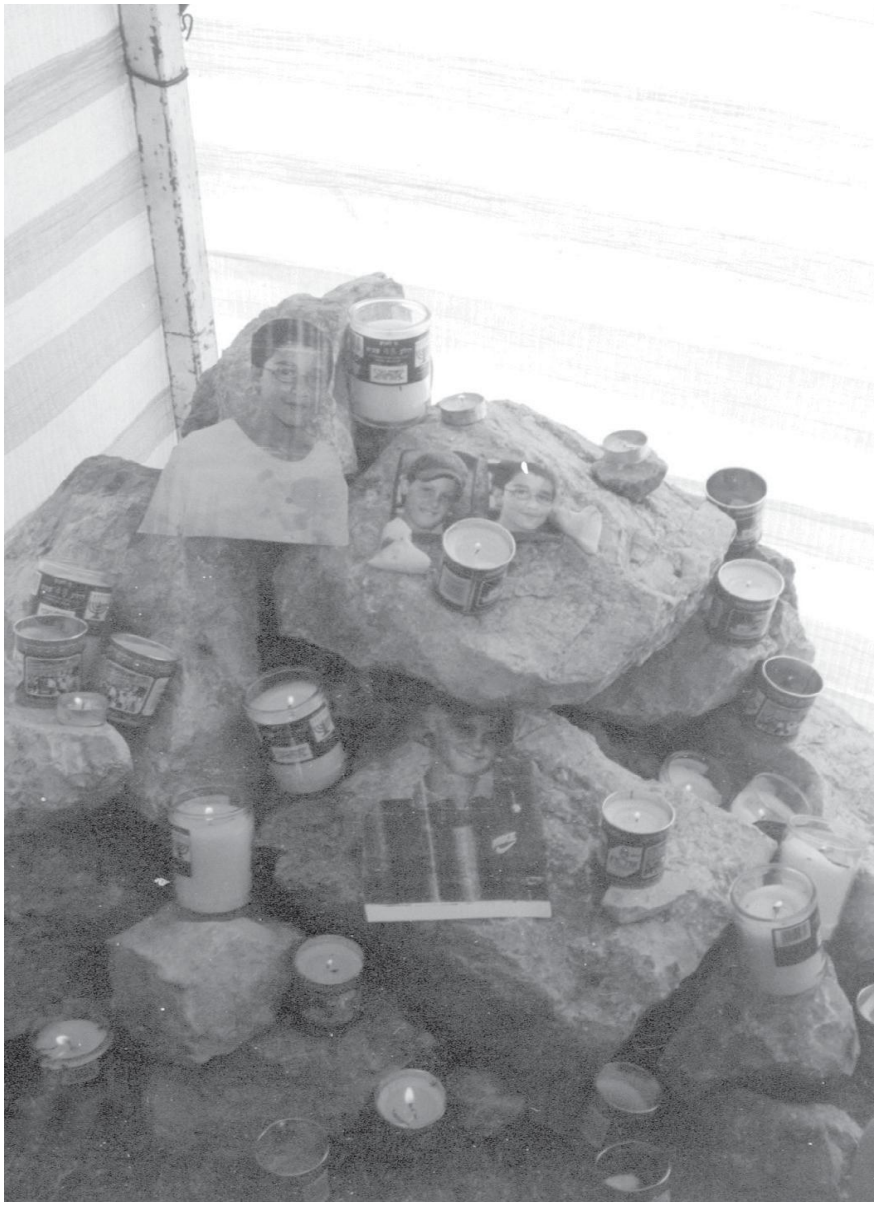

صورة للخيمة التذكارية التي أُقيمت تكريمًا لابني الحبيب قوبي وصديقه العزيز يوسف

الفَصلُ الثَّانِي عَشَرَ

اِسْتِقْبَالُ يَوْمِ الشَّبَّاتِ الْمُقَدَّسِ

قُتِل ابني الحبيب قوبي يومَ الثلاثاء، ودُفِنَ ليلةَ الأربعاء، فبَقِيَ لنا يومان فقط من أيّام العَزاء بدلًا من ثلاثة، قبلَ يوم الشّبات المُقَدَّس. كنتُ أعلمُ أنَّ الحِداد والحزنَ مُحرَّمان في يوم الشّبات المُقَدَّس، وذلك استنادًا إلى التَّفْسِير المشهور في المِدْراش* حول سِفْرِ الأَمْثَال، وتحديدًا الآية العاشرة من المقطع الحادي والثلاثين، حيثُ تَرِد قصة بروریاه، وهي العالِمة الجليلة بالتوراة وزوجة الحاخام مئير، أحد حكماء التلمود البارزين، التي كانت من النّساء القلائل المذكورات في التَّلمود، حيث كانت آراؤها الفقهية ذاتَ مكانةٍ رفيعة.

في يوم الشّبات المُقَدَّس، ذهبت بروریاه للاطمئنان على ابْنَيْها المريضَيْن، فوجدتهما قد ماتا، فغَطَّتْ جَسَدَيهِما بملاءة السرير، ولمَّا عاد زوجُها من الكنيس لتناول وجبة العَشاء، لم تُخبره بموت ابنيهما، حِفاظًا على قداسة يوم الشّبات المُقَدَّس. وبدلًا من ذلك، قالت له إنهما في بيت هَمدْراش، وهو قاعةٌ دينيّة مخصَّصة لدراسة التوراة.

وما إن انقضى يوم الشّبات المُقَدَّس حتى توجَّهَت إليه بسؤالٍ قائلةً: "في وقتٍ مُبكّرٍ من اليوم، جاءني رجلٌ وأعطاني شيئًا لأحتفظ له به، لكنه عاد الآن ليطلبهُ منّي، فهل نُعيدُهُ إليه أم لا؟"

فأجاب زوجُها: "مَنْ استُؤمِنَ على أمانةٍ، وجَبَ عليهِ رَدُّها إلى صاحبها".

فقالت له بروریاه بكلماتٍ يمتزج فيها الحزن العميق بالتسليم المطلق:
"الابنان اللذان أُودِعا لدينا أمانةً، قد عادا إلى صاحبهما. ابنانا عادا إلى الله".

لم أكن متماسكةً كما كانت بروریاه، التي واجهت ألمها بصبرٍ وقوّة، رغم ثقتي أنّها عانت أيضًا. أما أنا، فلم أدري كيف يمكنني أن أركن ألمي جانبًا استعدادًا لاستقبال يوم الشّبات المُقَدَّس. فالحزن كان لا يزال غَضًّا، كجرحٍ مفتوحٍ يَطغى عليّ بكلّ ثقله، لكنني، ورغم غرابة الأمر، كنتُ أحتاجهُ وأريدهُ، فهو الرابط الوحيد الذي يبقيني متّصلةً بابني الذي قُتِل. وقد بدا لي يوم الشّبات المُقَدَّس حينها وكأنّه صفعةٌ على وجهي، فهو يومٌ من السكينةِ والانسجام، وبابٌ نطلّ منه على نور العالم الآخر، حين يعمّ السلام أرجاء

---

*مُلاحظة توضيحية من المترجم: المِدْراش هو مجموعةٌ من التفاسير وقصصٍ توضيحية تُعَدُّ جُزْءًا من التوراةِ الشفويّة، التي تُرافقُ التوراةَ المكتوبة، وقد نُقِلَتْ من جيلٍ إلى جيلٍ وتُمثِّلُ شَرحًا مُلازِمًا لا يَنفَصِلُ عن التوراة.

الدنيا، ولكن كيف كان بوسعي أن أجد السلام حينها وابني مدفونٌ في القبر؟ ابني الذي كان قبل يومين فقط يطبع قبلةً على جبيني قبل النوم، ويعبّر لي عن مقدار الحبِّ الذي يَكنّه لي، لم يعد بقربي.

لكنَّ الله أرسل لي روتي غيليس لتُرشدني، وهي التي لم ألتقِ بها من قبل، لكنّني أعرف مأساتها. فقد كان زوجها المحبوب والمحترم، شموئيل غيليس، طبيبًا متخصصًا في أمراض الدم في مستشفى هداسا بأورشليم القدس، وقد كرّس عمله لمساعدة مرضى السرطان، وكثيرٌ منهم من العرب. ولكن قبل ثلاثة أشهر، وبينما كان في طريقه إلى منزله قادمًا من المستشفى، قتله إرهابيون أطلقوا عليه النار من سيارة مارّة. وحين أمسكت روتي بيدي، قالت لي: "للهِ خطة، ونحن لا نعرف ما هي، لكن تُوجَد خطة إلَهية حقًّا، ومع الوقت ستتمكّنين من الاستمرار".

وقد أخبرتني أن جنازة زوجها كانت يوم الجمعة، فاضطرت هي وأطفالها الخمسة ووالداها ومعارفها إلى العودة من المقبرة واستقبال يوم الشّبات المُقَدَّس. وقالت لي: "كان يوم الشّبات الذي تلا مقتل شموئيل أسمى شبات في حياتنا، إذ كان أحبّائي حولي، وملأ الغناء والجمال الأجواء، وعجّ المكان بالحياة، وكانت هناك قوّة روحيّة وحبٌّ غامر".

وهكذا، كانت تجلس بجانبي ممسكةً بيدي، وأنا أنظر إليها وأفكّر أنها لا تُشبهني على الإطلاق، وبعد أن غادرت، أخذتُ أتساءل كيف سأتمكن حتى من البقاء على قيد الحياة خلال يوم الشّبات المُقَدَّس القادم، ولكن رغم ذلك، بدأت بالاستعداد. خلال الـ"شيڤعاه"، لا يُسمح لي بالاستحمام، ولكن تكريمًا ليوم الشّبات، يمكنني ذلك. وخلال الـ"شيڤعاه"، لم أغادر منزلي ولا باحته التزامًا بالشريعة اليهودية، لكن في يوم الشّبات، يُسمح لي بالخروج من البيت.

كنا في انتظار أختي الكبرى، نانسي، وهي كاتبة ومحامية، والتي كانت ستصل من أمريكا قبل غروب الشمس، في الوقت المناسب قبل دخول يوم الشّبات المُقَدَّس. وكنتُ أخشى لقاءها، أخشى أن تلومني لأنني من الأساس أخذتُ قوبي إلى تكواع. وقد تكفّل صديقي أڤراهام ليتزمان بترتيبات سفرها، ونسّق استقبالها من المطار عبر أحد موظفي السفارة الأمريكية. وعندما وصلت، عانقتها وبكينا معًا.

بشكلٍ عجيب حينها، بدا لي أنَّ غياب قوبي صار أشدَّ وقعًا من أيِّ وقتٍ مضى، فحضوره الذي كان ذات يومٍ مشعًّا بالحياة، أصبح فقدانًا لا يُحتَمل، خاصّةً لأنَّ خالته نانسي أحبَّته حبًّا جمًّا. وفي آخر مرةٍ كانت نانسي هنا، احتفلنا ببلوغ قوبي سنَّ التكليف في الدين اليهودي، عندما يبلغ الفتى الثالثة عشرة من عمره، فيصبح مكلفًا رسميًا بالوصايا الدينية، وذلك ضمن حفلٍ دينيّ يُقام في الكنيس يُسمّى بالعبريّة الـ"بار ميتسڤاه". إنّ نانسي وقوبي يتشابهان؛ فكلاهما البكر في عائلته، وكلاهما بمثابةِ "المؤرِّخ العائلي"، وكلاهما يمتلك ذاكرةً قويّةً لحفظ التفاصيل. لذلك، كان وجودها بجانبي يُضاعف شوقي إليه. وكنتُ أتمنى لو أن شقيقتي لورين أتت أيضًا، لكنها لم تزر إسرائيل من قبل. إنّ لورين تصغرني بعشرة أشهر، لكنّ كلّ واحدةٍ منا اختارت حياةً مختلفةً تمامًا عن الأخرى، وهي تعيش في لونغ آيلاند، على بُعد ستة عشر كيلومترًا فقط من المكان الذي نشأنا فيه. إنها أمٌّ رائعةٌ تتطوَّع في مدرسة أطفالها، ومتزوّجةٌ من شرطيٍّ برتبة رقيب. وأظنُّ أنها تخشى السفر بالطائرة، ولذلك تخشى المجيء إلى هنا. في ذلك الأسبوع، كانت أمّي قد أُصيبت بالمرض، لكننا كنا نتوقع أن تلحقَ بنا في وقتٍ لاحقٍ.

وحين حان الوقت لإشعال الشموع لاستقبال يوم الشّبات المُقَدَّس، وهو واجبٌ على النساء، سرنا معًا إلى الخيمةِ التذكارية التي نُصبت قُرب بيتي تكريمًا لابني الحبيب قوبي وصديقه العزيز يوسف، حيث ستُقام هناك صلواتُ ليلةِ الجمعة. وقد اهتزّ قلبي حين أدركتُ أنَّ هذه الخيمة كانت قائمةً في نفس الميدان الذي احتفلنا فيه بـ"بار ميتسڤاه" قوبي، قبل أحد عشر شهرًا فقط. كانت الخيمة مضاءةً بالشموع، وتملؤها صورُ الصبيّين ورسائلُ الأطفالِ إليهما التي كُتبت على لوحاتٍ معلّقةٍ هناك. وعلى إحدى هذه اللوحات، كُتِبَت الآية السادسة عشرة من المزمور السابع والسبعين:

"بِذِرَاعِكَ فَدَيْتَ شَعْبَكَ، بَنِي يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ"

إنّ كاتبُ المزمور يناجي اللهَ عزَّ وجلَّ بألّا يتخلّى عنه وسط أحزانه، وألّا يتركه في منفاه الطويل والمرير. وهو يُدرك في أعماقه أن اللهَ يقودنا، وأنَّ خُطاه قد تكون خفيّةً، لكنّه يُرشد أُمَّته عبر قادتها، وهم أجدادنا أبناء يعقوبَ ويوسفَ.

في العِبريّة، تُستخدَم الأحرفُ أيضًا كأرقامٍ وفق نظامٍ يُعرف باسم الجِمَطْرِيَا، وفي سِفْرِ المزامير، كلُّ مزمورٍ هو صلاةٌ مُرفَقةٌ بالأحرف العبرية التي تقابل رقمه، وذلك مماثلٌ للمقاطعِ والآياتِ في الكتابِ المُقدَّس اليهودي. ويُرمَز إلى المزمور السابع والسبعين بحرفَي "عُز" (עז)، وتعني هذه الكلمة القوّة. أمّا العددُ ستة عشر، وهو رقمُ الآية، فيكافئ الحرفين العبريَّين ط (ט) و-ز (ז)، ويمثلان تاريخ السادس عشر من شهر إيار العبري، وهو تمامًا اليوم الذي وُجِدَت فيه جُثَّتا الصبيَّين.

حين رأيتُ سيّارتي أثناء سيرنا، بدت لي وكأنها أثرٌ من حياةٍ أخرى، ولم أستطع أن أصدّق أن الحياة مستمرّةٌ كالمعتاد، وأن الناس ما زالوا يتحدّثون ويضحكون وكأن شيئًا لم يكن.

كان ينبغي للعالم أن يتوقّف، لكنه لم يفعل. أمّا أنا، فلم أعد أنتمي إلى هذا العالم؛ لقد سافرتُ إلى عالم الحقّ، وكأنَّ الحجابَ قد أُزيح عن عينيّ، فأصبحتُ أفهمُ لغةَ الروح.

وعندما بدأت الشمسُ بالغروب، وأصبح الهواءُ محمّلًا بنَسَماتٍ باردةٍ بعض الشيء، مشيتُ ببطءٍ فسمعتُ من حولي أشخاصًا يقولون أشياءَ عاديةً مثل: 'من الصعب أن تفتح هذا الباب'، 'نورُ الشمس يبهت، لقد اقترب الغروب'، 'حان وقت إشعال شموع الشّبات'. وسمعتُ أحدهم يسأل: 'هل أغلقتَ الباب؟'، وآخر يقول: 'أطفئ الأضواء'، ثم سمعتُ شخصًا ثالثًا يقول: 'انظر كيف يلمع ذلك الجوهَر'، وقد كانت كلماتهم تَنفجر في عقلي كمفاتيحَ لعالَمٍ آخر؛ كلماتٌ ومفاهيمُ تتردّد أصداؤها عبر العوالم، تُذكّرني بأنني لا أفهمُ شيئًا. الشمعةُ هي الروح، الجَوهرُ اللَّامِعُ هو الروح، البابُ قد أُغلِق، لكن هناكَ شمعةٌ تحترقُ في الداخل، والروحُ لا يُمكن أن تنطفئ.

حين عدنا إلى البيت لتناول عشاء الشّبات، كانت المائدة مُعدّةً بأبهى صورة، حيث تزيّنها باقاتٌ من الزهور، ويعلوها خبز الـ"حاله"، ذلك الخبز المضفَّر الذي حضّره الجيرانُ وخبزوه بحبّ، وأحضروه تكريمًا لهذا اليوم المُقَدَّس. اجتمع الأصدقاءُ لقضاء الليلة معنا، وكان الأطفالُ يُساعِدون بفرحٍ في تقديم الطعام الذي حضّره الجيران. جلسنا معهم، ومن بينهم شارلوت، التي وُلِدَت في 'كوينز'، والتي فقدت هذا العام شقيقتها التوأم بسبب السرطان، وراحيل، التي عملت في فترةٍ ما جليسةً لقوبي، والتي أخذت تخبرنا كيف ربطها بالحبال في إحدى الليالي، لكنها تمكّنت من الإفلات بعدما دغدغته. إنّ راحيلي هي فتاةٌ في

السادسة عشرة من عمرها، ولها أختٌ طولها متران، وهي نجمةُ كرةِ سلةٍ موهوبةٌ تستقطبها الجامعاتُ الأمريكيةُ للعب في فرقها. لكنها لم تتمكّن من اللعب هذا العام، إذ لا تزال تتعافى من استئصال ورمٍ سرطانيٍّ من يدها.

على مائدة العشاء، كانت توجد مناديلٌ مزيّنةٌ برسومات لبالونات، فقالت شارلوت: "هذه البالونات تُذكّرني بخبز 'ووندر بْرِد'!"

فسأل أطفالي بدهشة: "ما هو خبز 'ووندر بْرِد'؟"

فردّت شارلوت مستغربةً: "ألا تعرفون ما هو 'ووندر بْرِد'؟ إنه حرفيًا يعني "خبز الأعجوبة"، وهو نوعٌ من الخبز الأبيض المشهور في أمريكا ويشتهر بغلافه المزيَّن ببالوناتٍ صغيرةٍ ملوّنة، تمامًا مثل التي على هذه المناديل".

وهنا تدخّلت نانسي قائلةً: "هذا بالضبط ما نحتاجه— ووندر! أي العَجَب! معجزة!"

ثم انفجرنا ضحكًا ونحن نستعيد ذكريات طفولتنا في أمريكا، حيث كنا نأكل "ووندر بْرِد"، بعيدًا كل البعد عن هذه المائدة التي نجلس حولها الآن. وبينما كانت راحيلي تتحدث عن عملها في مطعمٍ مستوحًى من الطراز الروماني في البلدة القديمة، أخبرتنا أن وظيفتها هناك هي التلويح بسعف النخيل لضيوف المطعم كي تنعشهم بنسماتٍ من الهواء. ثمّ وصفت لنا كيف يبدو زيُّها، وكيف تؤدي هذه المهمة، فبدأنا نبحث عن اسمٍ لمن يعمل كـ"مُهَفْهِفٍ محترف بسعف النخيل"! فخطر لي حينها: أنا أضحك! أستطيع أن أضحك وأن أكون سخيفة إذ أُدرك أن قوبي، لو كان هنا، لكان أحب هذه المحادثة، فقد كان يجد متعةً خاصة في سخافات الحياة الصغيرة، وكم تمنيتُ مشاركة تلك اللحظة معه. تذكرت حريتنا في المزاح، وبهجتنا في الضحك، ذلك الضحك الذي كان يرفعنا إلى عوالم أخرى.

كنا نضحك ونغني، والجيران يدخلون وينضمون إلينا، فتعمّ الأغاني المكان. امتلأت غرفة المعيشة بالمراهقين والأصدقاء، الذين يغنون معًا، وفي قلب هذا الفرح، كنتُ أعلم أن هناك ألمًا يتربص بي في الأعماق، ينتظر اللحظة المناسبة كي يظهر. فبعد ساعات قليلة، سأكون ممددةً على أرضية غرفة قوبي، أبكي بينما تحتضنني ابنتي. سأحدق في جدرانه، في القصاصات الكرتونية التي انتزعها من مجلة "نيويوركر"، وفي صور كال ريبكين، لاعب البيسبول الأمريكي، ومايكل جوردان، أسطورة كرة السلة. إنّ تلك التفاصيل الصغيرة، وكل شيء في غرفته ما زال يحمل أثره، ويجعل حضوره غائبًا لكنه محسوس بكل وضوح. وفي تلك اللحظة، سأشعر أنني لا أريد سوى أن أختفي، أن ينتهي هذا الألم. ولكن لعدة ساعات، سيمنحني يوم الشّبات الإيمان بالسلام، وبأن هناك لحظة استراحة من العذاب.

الفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَر

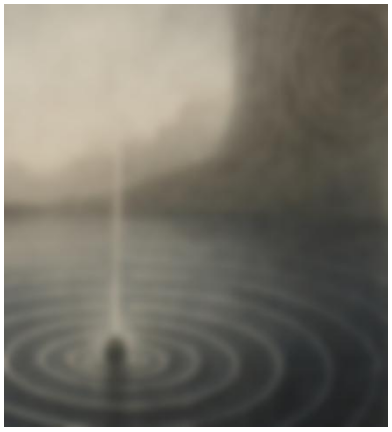

مُسْتَوَيَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنَ الأَلَمِ

قال لي البعض إن عليّ أن أكون قوية، وفهمتُ ما قالوه بأنّهم أرادوا مني طمأنتهم بأنّ الأمل موجودٌ في هذا العالم، وأنهم كانوا بحاجة إلى أن يروا أنني أواصل طريقي كي يتمكنوا من تصديق أن الحياة ممكنة حتى بعد موت ابني. لكنني أدركتُ أن ما كانوا يقصدونه بال'قوة' لم يكن يتوافق مع ما كنتُ أعنيه أنا بها. فبالنسبة لي، لم تكن القوة تعني التظاهر بالتماسك أو كبت الألم، بل الشعور به بكل جوارحي، وأن أسمح لجسدي وعقلي بالحزن، وأن أدع روحي تنوح، وأن أنغمس في الألم وأواجهه بدلًا من الهروب منه.

وقد كان ممن زارونا الحاخام عادين شتايزالتس، وهو عالمٌ جليلٌ في التوراة، الذي أخذ يخبرنا عن طفولته، وكيف كان يهرب من المدرسة حينها، وكيف لا يزال يتذكر الانفجار الذي دوّى في الشارع حين كان طفلًا يعيش في إسرائيل. ثم قال لنا جملةً تنمّ عن الإدراك العميق: "ليس بوسع الروحِ تحمّل وجعِ فقدان الولد." وأضاف: "في البداية، سيكون حولكم أناسٌ يواسونكم، ويُعزّونكم، ويحاولون أن يُخفّفوا عنكم وطأة الألم، لكن في نهاية المطاف، سيذهبون جميعًا، وحينها ستجدون أنفسكم وحدكم، أنتم وألمكم فقط."

هكذا، لم يحاول أن يُجمّل الحقيقة القاسية، ولم يُلهِنا عن الألم بكلمات العزاء، بل واجَهَنا بالواقع كما هو، بأنّ الألم لن يختفي وسيبقى معنا، وما علينا إلا أن نجد طريقةً لنَتعايشَ معه.

إنّ الألم يشبه حجرًا أو حصاةً تُرمى في بحيرةٍ هادئةٍ، فيتّسع الأثر على سطح الماء بلا نهاية. وكلما ظننت *أنك احتويت دائرةً من دوائر الألم، انبثقت واحدةٌ أوسع، تدور لتلتفّ حولك .وبالكاد يكون بوسعك التقاط أنفاسك من وجعٍ حتى يباغتك وجعٌ جديد.

هناك الألم الحادّ، ذلك الذي يهوي على قلبك كسكّين جزار، مباغتًا وجارحًا، حين تقع عيناك على صورة ابنك بابتسامته العذبة وعينيه المفتوحتين، المفعمتين بحبّ الحياة. وهناك الألم المزمن، الذي لا يفارقك لحظة، ألم الغياب اليومي المتجلّي في أشياء بسيطة، في تلك التفاصيل التي أفتقدها

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجِم: تستخدم الكاتبة في هذا الفصل ضمير المخاطب باللغة الإنجليزية، وهو ضمير محايد جنسيًا لا يشير إلى أحد الجنسين، على خلاف نظيره بالعربية المُحدَّد جنسيًا. وقد ارتأينا اتباع أسلوبها، ولذلك سنترك ضمائر المخاطب في هذا الفصل بلا حركات تحددها جنسيًا.

بشدّة: في الباب الذي كان يُفتح كلما دخل، في حقيبته المدرسية التي كان يلقيها على الأريكة بعد عودته، في صوته وهو يُلِحّ عليّ طالبًا المزيد من الطعام. إنّ هذا الألم ليس سوى ظلٍّ ثقيلٍ يطاردك، كصيادٍ يتقصّى أثر خطواتك ،دون أن يمنحك فرصة لراحة البال.

ثم هناك ألمٌ آخر، وهو ألم الفقد الذي لا يخصّك وحدك، بل يخصّ من تركهم خلفه، وهم إخوته الذين فقدوا الأخ الأكبر الذي كان يحملهم بين ذراعيه ويدور بهم ضاحكًا، والذي كان يتحدّاهم في كرة السلة، ويبهرهم بمهاراته في ألعاب الخِفَّة. ليس هذا الألم مجرد فراغ، بل مطرقةٌ ثقيلة تهوي على مؤخرة رأسك بلا رحمة.

ثم هناك ألمٌ أكثر تعقيدًا، وهو ألم المستقبل المسلوب ،فقد كان ابني الأكبر، الذي رسمتُ لوحةً زاهيةً لمستقبله في مخيلتي، فكنتُ أحلم أن يُصبِحَ رجل قانون عندما يكبر مثل محامٍ أو قاضٍ، له شأنٌ وقوةٌ وسلطة. وكان مجرد التفكير في مستقبله يمنحني القوة، وكأن نجاحه كان سيُصبح امتدادًا لقوتي. والآن... لا تخرّج ولا زوجة يختارها، ولا أطفال يحملون ملامحه، ولا مستقبل له، ولا مستقبل لي معه. الآن، لن أرى وجهه وهو يتحوّل من صبيٍّ إلى رجل، ولن أشهد كيف كانت ملامحه ستنضج.

وإذا ظننت أن الألم قد استنفد ألوانه، فهناك ألمٌ يخنقك كما تخنقك يدٌ تطوّق عنقك، إنّه ألم انقطاع الحديث بينك وبين ابنك، ألمُ الصمت الأبديّ، وفقدان ذلك الإحساس العميق الذي لا تستطيع الكلمات أن تُعبِّر عنه، لكنه كان مفهومًا بينكما دون حاجة إلى نطق.

وهناك الألم الوحشي، الألم الذي لا يتمحوّر حول فقدانه، بل حول طريقة فقدانه، حول وحشيةِ القتل، والعنف الذي تعرّض له، والعذاب الذي عاناه في لحظاته الأخيرة ،هذا الألم لا يُحتوى، بل يُهدِّد بابتلاعك كما تبتلع الأفعى فريستها دفعةً واحدة، مجرّدًا إيّاك من ذاتك، ومن قدرتك على الاستمرار.

ثم هناك ألمٌ آخر، ألمٌ يحيط بك كوحشٍ يتربّص في الظلام، وهو ألم المعرفة بأنك ما زلت في دائرة الخطر، أنت وأطفالك الآخرون، وأن الموت قد يكون قاب قوسين أو أدنى، مختبئًا في إحدى الزوايا، متأهّبًا للانقضاض عليكم. هذا الألم ليس مجرد خوف، بل نمرٌ يزمجر في أحلامك ،يهزّك من نومك بأنفاسه الساخنة وأنيابه الحادة، مستعدًّا لتمزيقك في أي لحظة.

وهناك أيضًا الألم الذي يُمزّقك عند رؤية أصدقائه أحياءً، وهم يضحكون، ويخططون لمستقبلهم، بينما ابنك الجميل، الذكي، المفعم بالحياة... قد مات. ليس هذا الألم سكينًا ولا مطرقة، بل صحراءُ شاسعةٌ تُعبَرُ لأيامٍ طويلةٍ، بلا ماء، ولا طعام، أو أمل بالنجاة.

هذا هو الألم الذي كنتُ غارقةً فيه حين كتبتُ هذه الكلمات.

وفي اللحظة ذاتها، اللحظة التي كنتُ أكتب فيها عن هذا الألم، كان من المفترض أن يكون ابني قد تخرّج من المرحلة الإعدادية. وكان منظمو حفل التخرّج ينوون عرض مقطع فيديو لأصدقائه وهم يتحدثون عنه، مستعيدين لحظاتهم معه. وفي خضم هذا الحزن كلّه، قالت لي صديقتي، بكل بساطة، وبلا تفكير، إنها لا ترغب في حضور حفل تخرّج ابنها لأنه سيكون مملًا! لقد كانت كلماتها أشبه بأظافرٍ تحتكّ بالإسمنت، مثيرةً داخلي اضطرابًا لا أستطيع التعبير عنه.

وبعد عشر سنوات، سأكون الوحيدة التي لا تزال تفكّر بابني كلّ يوم. لكن لأستمرّ في العيش، عليّ أن أسمح لهذا الألم بأن يحفرني كما تحفر السنوات جذع شجرةٍ هرمةٍ. عليّ أن أعيش كل يومٍ وأنا أعدّ حلقات الفقد، لا لأغرق فيها، بل لأسمح لها بأن تُنضج روحي، فتجعلني أكثر عمقًا واتساعًا، كجذع شجرةٍ تنقش السنواتُ حلقاتها في داخله، فتزداد صلابةً وقوّةً رغم ما تفقده من أوراق.

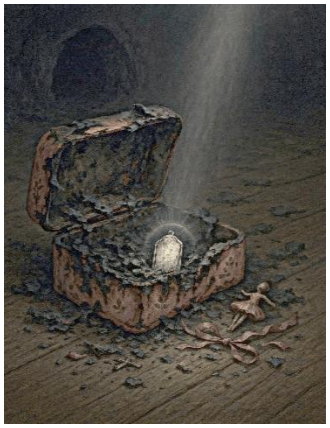

الفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ

الرَّصَاصَةُ وَعُلْبَةُ المُجَوْهَرَاتِ

لا أدري ما الذي أراده الله حينها، لكنني واثقة من أمرٍ واحد: أنه قد أرسل إليَّ رسالةً تلك الليلة.

بصفتي أستاذة في الكتابة الإبداعية باللغة الإنجليزية، كنتُ أُعلّم طلابي أن هناك طرقًا كثيرةً لتأكيد فكرة ما في النص، مثل وضع أسطرٍ تحت الكلمات، أو التكرار، أو الإكثار من علامات التعجّب !!!!!، أو حتى الكتابة بحروف كبيرة مثل CAPITAL LETTERS، بهدف جذب الانتباه وإحداث تأثير بصري قويّ. لكنني كنتُ أقول لهم إن المبالغة في هذه الأساليب تُفقدها تأثيرها، لأن الإفراط في التأكيد يُضعف المعنى، أو بعبارة أخرى: "الشيء إن زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه". لكنّ الله عزّ وجلّ لم يحضر صفي الدراسي، وقد استخدم مجموعة من الأساليب دفعةً واحدة في تلك الليلة المشؤومة، ليلة إطلاق النار، ومع ذلك لم أستوعب رسالته حينها... فلم أفهمها إلا لاحقًا، بعد أن وصلنا إلى الفندق.

وهذا ما حدث: في مساء الحادي والعشرين من أيار/مايو، كان زوجي سيث يوصِل أختي وأمي إلى مطار بن غوريون حيث ستعودان إلى نيويورك بعد انتهاء أيام الشِّيڤعاه (أسبوع العزاء)، بينما بقيتُ في المنزل مع الأولاد. في ذلك المساء، أقيمت مراسم احتفالية في الكنيس بمناسبة يوم أورشليم القدس، العيد الذي نحتفل فيه بإعادة توحيد شطري أورشليم القدس عام 1967، حين حرر جيش الدفاع الإسرائيلي حائط البراق، المعروف في اليهودية باسم الحائط الغربي، وبالعبرية بـ"الكوتل"، إضافةً إلى تحرير القدس الشرقية من الحكم الأردني. كان الحاخام الأكبر للطائفة السفاردية في إسرائيل، إلياهو باكشي دورون، يُلقي كلمته في الكنيس في قريتنا تكواع. ولم أكن أخطّط للذهاب، إذ لم أرغب في مغادرة المنزل أو حضور أي تجمع. فلم أكن مستعدة بعد لمثل هذه اللحظات، لكن صديقتي خضيرة زارتني، وأصرّت على أن أرافقها، فوافقتُ في النهاية وذهبتُ معها.

عندما وصلنا، كان الحاخام قد بدأ خطبته بالفعل. وكان يرتدي ثوبًا طويلًا أسود ومطرّز، وعلى رأسه قبعة بدت أشبه بالطربوش. وبينما كان يتحدّث، سمعتُ صوت قوبي يتردد في رأسي، كأنه يعلّق ساخرًا: "انظري إلى ملابس هذا الرجل! من يظن نفسه؟" لم أتمالك نفسي وابتسمتُ، وشعرتُ للحظةٍ وكأنه كان معي بطريقةٍ ما. جلستُ إلى جانب ابنتي إليعانه ،وما إن انتهت الخطبة، حتى استعددتُ للعودة إلى المنزل. لكن ريناه إشران، والدة يوسف إشران، نادتني وأخبرتني أن الحاخام يريد أن يمنحني بركته (في التقاليد اليهودية، يمنح الحاخامات البركة كوسيلة لنقل بركات الله إلى الأفراد أو الدعاء لهم بها). ركضت إليعانه نحو المنزل، بينما تابعتُ طريقي مع ريناه إلى غرفة صغيرة داخل الكنيس، حيث كان الحاخام باكشي دورون بانتظارنا.

بدأ الحاخام يتمتم بسرعة عباراتٍ عبرية لم أفهمها على الإطلاق. ثم واساني وتمنى لي الصبر والقوة لمواجهة الأيام العصيبة المقبلة. وبعد أن غادرتُ الكنيس، كنتُ على بعد دقيقة واحدة فقط سيرًا على الأقدام من المنزل، وبينما كنتُ أعبر الطريق، هرعت إليعانه وصديقتها من المنزل تصرخان.

"كان هناك انفجار!" صاحت إليعانه وهي تبكي، فتملكني الارتباك، واحتضنتها على الفور. "ماذا حدث؟ قولي لي ماذا جرى"، سألتُها، فيما كانت الدموع تنهمر من عينيها.

ردّت قائلةً: لا أدري! كنتُ جالسةً في الطابق السفلي، وفجأة رأيتُ وميضًا قويًّا من الضوء، ثم دوّى صوت انفجار هائل!"

خرج الأولاد الذين كانوا يدرسون مع ابني قوبي في صفه، واندفعوا نحو الطريق أمام منزلنا، بعد سماعهم صوت الانفجار، ثم ركضوا إلى الداخل متجهين إلى غرفة إليعانه لمعرفة ما حدث. تبعتهم صاعدةً الدرج، وهناك رأيت زجاج نافذة إليعانه محطّمًا بالكامل، حيث تناثرت شظايا الزجاج المكسور على الأرض بجانب مكتبها، لكن أكثر ما لفت انتباهي كان علبة المجوهرات الخاصة بها، التي كانت ملقاة على الأرض ومحترقة بالكامل، حيث بدت سوداء اللون، وفي وسطها فجوة، كما لو أن شيئًا ما قد اخترقها مباشرةً. ثمّ نظرتُ إلى المكتب، فوجدت الزجاجة المملوءة بالرمل الملون، التي كنتُ قد جمعتها من الوادي الملون في صحراء سيناء، لا تزال هناك، لكنها كانت متشققة ومسودّة بفعل الاحتراق. لكن الأمر العجيب تمثّل في أن صخرة الكوارتز سداسية الأضلاع، التي اكتشفها أصدقاء قوبي أثناء حفر قبره، كانت لا تزال هناك... سليمة تمامًا!

كانت صديقتي شيراه قد ركضت معي إلى الطابق العلوي. وفي الولايات المتحدة، درست شيراه تحت إشراف إليزابيث كوبلر-روس، الطبيبة النفسية السويسرية-الأمريكية التي أحدثت تحولًا جذريًا في دراسة الحزن والفقدان، واشتهرت بوضعها نظرية المراحل الخمس للحزن - الإنكار، الغضب، المساومة، الاكتئاب، القبول. ولم تكن شيراه مجرد صديقة عادية، بل كانت أيضًا مستشارة في الدعم الروحي والنفسي، وكانت تعمل في المستشفيات مع العائلات التي تواجه مرضًا خطيرًا أو تعاني ألم فقدان أحد أحبائها. وبعد مقتل قوبي، كانت شيراه تزورني يوميًا، وشكّلت زياراتها طوق نجاة لي، إذ ساعدتني على استيعاب الألم الهائل وتحمله.

لكن حينها، كانت هناك صدمة أخرى عليّ أن أتعامل معها. وعندما نظرتُ إلى الأرض، وجدت زجاجة مزيل طلاء الأظافر الفارغة ملقاة هناك. كنت أبحث عن تفسير لما حدث—تفسير يطمئنني ولا يُرعبني—فقلت لها: "لا بد أنّ سبب الانفجار هو مزيل طلاء الأظافر". لكنّ شيراه حدّقت إليّ بدهشة، وسألت: "كيف؟ كيف يمكن أن ينفجر ويتسبب في كسر النافذة؟"

أجبتُها وأنا أبحث عن أي احتمال منطقي: "لا أدري، لكن ألا يُحذِّرون من خطر وضعه بالقرب من النار؟ ربما سخن بطريقة ما، أو كان قريبًا جدًا من الضوء. لا أعرف على وجه اليقين، لكنني أفترض أنه قد يكون السبب وراء الانفجار." توقفت للحظة، ثم سألتها: "هذا ممكن، أليس كذلك؟" فنظرت إليّ شيراه هازّةً رأسها بالنفي، وقالت: "لا يبدو ذلك منطقيًا."

فقلت لها بعفوية: "حسنًا، إذًا لا بد أنه قوبي. لقد عاد. إنه شبح مشاغب!" وشعرتُ براحة غريبة، بل بسعادة حتّى. بدا لي أن قوبي قد عاد إلينا، وبأنّه يلهو كما كان يفعل دائمًا، وكأن روحه لا تزال تتحرك في المكان.

ابتسمت شيراه، وقالت: "قد يكون الأمر كذلك. هذا يشبه قوبي تمامًا، فهو قوي، وعنيد، وغير متوقَّع".

خرج الناس من منازلهم، وبدأوا يتوافدون إلى الطابق العلوي، متجهين نحو غرفة ابنتي إليعانه. وبعد دقائق، دخل إسرائيل، الرجل الضخم المسؤول عن الأمن في قريتنا. وقد كان رجلًا هادئًا يختار كلماته بعناية، رغم قوته الجسدية الواضحة. وكان يحمل الحزام الأسود في الكاراتيه، وتبعث قوته وهدوؤه الإحساس بالأمان. نظر إليّ وقال بهدوء: "لأول مرة، أطلق الفلسطينيون النار على قريتنا." ثمّ أوضح أن الرصاص أُطلق من مسافة كيلومتر ونصف تقريبًا، وشرح أن إطلاق النار كان عشوائيًّا، أشبه برصاصة طائشة أُطلقت دون احتمال كبير لإصابة أحد. فلم يكن هناك استهداف دقيق إذن، فقط إطلاق ناري عشوائي، ومع ذلك، أصابت الرصاصة منزلنا. لاحقًا، علمنا أن منزلًا آخر قد أُصيب أيضًا، حيث اخترقت رصاصة جدارًا خارجيًا. وبعد أن غادر إسرائيل، دخل رجال الأمن الآخرون إلى الغرفة ولم يعثروا على أي ثقوب رصاص، لكنهم استنتجوا أن الرصاصة دخلت من جهة في غرفة ابنتي، ثم خرجت من الجهة الأخرى عبر النافذة.

في هذه الأثناء، انضم إلينا هارڤي، صديقنا الذي هاجر من نيو جيرسي، وهو رجلٌ طويل القامة وضخم البنية، يبلغ طوله نحو متر وثمانين سنتيمترًا، وتعكس ملامحه قوة شخصيته. وبعد أن تفحّص المكان بشكل دقيق، عثر على ثقب الرصاصة، الذي كان صغيرًا بحجم عملة معدنية، قرب خزانة ملابس إليعانه.

نزلتُ إلى الطابق السفلي مع أولادي وأصدقائي، وأخذتُ أفكر: "أُصيب منزلان فقط، فلماذا كان منزلنا أحدهما؟" كنا نعيش في وسط القرية، وليس على الأطراف، لذلك لم يكن منطقيًا أن يصيبنا الرصاص. لكن، رغم ذلك، ها نحن هنا... ضمن المنزلين المستهدفين.

شعرتُ برجفة غريبة تسري داخلي، فأخرجتُ هاتفي المحمول، واتصلتُ بزوجي الذي كان لا يزال مع أمي وأختي في المطار. لم أرِد أن أخيفهم، لذلك قلت له: "أخبرهما أنني لست على ما يرام، ومن الأفضل أن تعود قريبًا." فلم أشأ إخبارهُما عن الرصاصة كي لا أُصيبهُما بالذعر.

ثم تأملت علبة مجوهرات إليعانه، المصنوعة من الكرتون الوردي والمزينة برسومات الورود والنجوم، والتي كُتِبَت على حوافها عبارة تكررت عدة مرات، وهي: "الأشياء الجيدة تحدث عندما تؤمن بنفسك".

لكن إيماننا بأنفسنا هو تحديدًا ما تفتّت واندثر بعيدًا عن عالمنا! ورغم أنني كنتُ دائمًا أؤمن بنفسي، وكنتُ أؤمن أيضًا أن الله والعالم سيحمياني، إلّا أنّ الأيمان... على ما يبدو، لم يكن كافيًا.

داخل علبة المجوهرات، لم يبقَ شيءٌ سليم، إذ دُمِّرت تمامًا كلّ قطع المجوهرات، وحتى تلك الدمية الصغيرة الراقصة، التي تدور بخفة عند فتح العلبة، قد قُذفت بعيدًا. لم يتبقَّ سوى شيء واحد، وهو قلادة تحتوي على تعويذة محكمة اللف، مكتوبٌ عليها دعاء السفر، الذي نطلب فيه من الله أن يحفظنا في رحلاتنا ويحرسنا في أسفارنا إلى البعيد، والمعروف بالعبرية باسم "تفيلات هَادِيرِيخ." كان الدعاء يقول: "اللهم، قُدنا نحو السلام، وأوصلنا إلى مقصدنا بأمان. نجِّنا من كل عدوٍ وكمينٍ في الطريق..." لكن السلام كان بعيدًا، عن داخلي، عن عائلتي، وعن هذه الأرض.

بقيت صديقاتي بجانبي، أخذن يواسينني وقدمن لي كوبًا من الشاي الساخن. وحين عاد زوجي أخيرًا من المطار، شعرتُ بقليل من الراحة. وفي تلك الليلة، وضعنا الفرشات في غرفة الضيوف، حيث كانت الجدران هناك الأكثر سماكةً وأمانًا في المنزل، ونمنا جميعًا معًا.

في صباح اليوم التالي، استيقظتُ أنا وزوجي سيث مبكرًا جدًا. وكنّا نشعر بحاجة مُلحّة إلى مغادرة المنزل، إلى الخروج من تكواع بأكملها، فلم نكن نشعر أن منزلنا وحده المشؤوم، بل بدا لنا أن الحيّ بأسره يحمل لعنة، وأننا من يدفع الثمن. وقد زادتنا سلسلة الحوادث المؤسفة التي تعرّض لها ابن جارتي في المنزل المجاور اقتناعًا بأن هناك لعنة تلاحق هذا المكان، وعمّقت مخاوفنا. لقد كان في التاسعة من عمره، وقد تعرّض للسعة عقرب داخل منزلهم في منتصف الليل، وأُصيبت أيضًا قدمه الحافية بجرحٍ عميق بينما كان يبدّل حذاء التزلج في ساحة التزلج القريبة. وفي كلتا المرتين، نُقل على وجه السرعة إلى غرفة الطوارئ، وفي كلتيهما تعافى بفضل الله بسرعة.

قال زوجي سيث إن هناك أوقاتًا ينطلق فيها ملاك الموت بلا قيود، ولا بدّ من توخي الحذر الشديد خلال السنة الأولى بعد وفاة أحد أفراد العائلة، وكأن الحزن نفسه يجلب معه نوعًا من الهشاشة والمخاطر غير المرئية. لذلك، قررنا أن نغادر إلى أورشليم القدس ونقيم في أحد الفنادق لبعض الوقت، علّنا نجد هناك فسحة للتفكير في الخطوة التالية.

حزمنا بعض الملابس والكتب، وأخذنا سيارة أجرة، فلم يكن لدينا الجرأة على القيادة بأنفسنا بعد كل هذه الأحداث التي جعلتنا نشعر بأننا في مرمى أسهم القدر. لكن، بدا الأمر كأننا كنّا عالقين في مشهد متكرر من كابوس لا ينتهي، فبينما كنا نجتاز نفق الشارع السريع المؤدي إلى أورشليم القدس، وقع إطلاق نار من جهة بيت لحم. فحبست أنفاسي، وتوسلت في داخلي: "رجاءً، لا تدعنا نصاب بأذى، فقط أبقِنا على قيد الحياة". لكن سائق السيارة استمر في القيادة وكأن شيئًا لم يكن، وكأن هذا هو الواقع المعتاد لمن يعيش هنا.

وعندما وصلنا إلى الفندق، وضعنا الأولاد في غرفة، ونزلتُ أنا وسيث في الغرفة المجاورة. حاولنا أن نلتقط أنفاسنا، وأن نهدأ قليلًا، فشغّل الأولاد التلفاز، وكذلك فعلنا نحن. لكن كيف يمكننا أن نهدأ؟ لم يكن من السهل أن نجد أي نوع من السكينة، فنحن لم نفقد ابننا فحسب، بل قتلوه بوحشية. وبعدها بأيام قليلة فقط، اخترقت رصاصة غرفة إليعانه، ورحمة الله وحدها هي التي حفظتها. ولم يبقَ لي سوى أن أشكره على بقائها سالمة.

في أثناء غيابنا، قرر أصدقاؤنا التحقق من شيء آخر، كأنهم كانوا يحاولون العثور على أي تفسير روحي لما حدث. فقد أخرجوا اللفائف الصغيرة من داخل الـ"مِزوزات" المثبّتة على إطارات الأبواب في منزلنا، ومن الـ"تيفيلين" أيضًا الذي كان يستخدمه سيث وقوبي للصلاة، وأخذوها إلى رجال الدين المتخصصين بفحصها، للتأكد من أنها لا تحتوي على أي خلل أو خطأ في حروفها.

العبارات نفسها من التوراة التي نهمس بها لأنفسنا أثناء الصلاة هي التي كُتبت داخل اللفائف الموضوعة في الـ"مزوزات" والـ"تيفيلين". وعلى هذه اللفائف نُقشت آيات من التوراة، من بينها مقطع "شمع يسرائيل" الذي يقول: 'اِسْمَعْ يَا يِسْرَائِيلُ، الرَّبُّ إِلهُنَا، رَبٌّ وَاحِدٌ'. لكن داخل الصناديق الصغيرة لـ"تيفيلين"، هناك أيضًا نصوص إضافية من التوراة، التي يجب أن يكون كل حرف فيها مكتوبًا بدقة متناهية، بلا نقص أو تشويه. ويؤمن البعض أن أي محو أو طمس لحرف منها قد يكون انعكاسًا لحدث صادم في حياة الإنسان، وكأن الخلل في الكتابة يحمل إشارة لما يحدث في عالمنا المكسور. لكن عندما أنهى رجال الدين فحصها، لم يجدوا أي خطأ. فقد كانت كل الحروف مكتوبة بإتقان، بلا عيب ولا خلل. ولم تكن هناك إذن أي إشارة، ولم يكن هناك أي تفسير. وحتى العقد الذي يربط بيني وبين سيث، عقد الزواج الذي يُسمى بالعبري الـ'كتوبة'، لم يجدوا فيه أي نقص أو خلل.

لكن ماذا كان السبب؟ هل كان مجرد سوء حظ؟ أم كان هناك خطأ في نسخ الحروف المقدسة؟ هل أخطأ الكاتب الذي خطّ النصوص، فحدث خلل ما في المزوزات أو الـ"تيفيلين"؟ هل كان الحيّ الذي اخترناه للسكن هو الخطأ؟ أم أننا اقترفنا خطيئة جلبت علينا هذا العقاب؟

لا، لم يكن هناك أي شيء يمكن أن نفعله أو نمتنع عن فعله ليجلب علينا هذا الغضب. وأدركنا أننا لا نستطيع أن نلوم أحدًا، ولا أن نُعَلّق الأمر على شيء، ولا أن نجد سببًا منطقيًا لما حدث. وطوال ذلك الأسبوع، وبينما كانت الزيارات تتوالى، كان الأصدقاء يأتون محملين بالأطعمة اللذيذة والألعاب والكتب، وكانت اللقاءات غير الرسمية تتكرر مع الصحفيين من *NBC News* و*Jerusalem Report*، إلا أنني بقيتُ قلقة.

شعرت أن لصندوق المجوهرات المحطم معنى يمكن أن يقودني إلى شيء ما، لكنني لم أكن أعرف كيف. كان هذا المعنى يلاحقني ويؤرقني، كرباط حذاء غير مربوط، يعطل خطواتي ويبقى عالقًا في ذهني. وفي وقت لاحق من الأسبوع، زارتني صديقتي ڤاليري وأخبرتني أن منزل الجيران في الشارع المقابل قد تعرض أيضًا لإطلاق نار! ولحسن الحظ، لم يكن تسڤي ونوغاه وأطفالهما الخمسة في المنزل، حيث كانوا في عطلة طوال الأسبوع، لكنهم عادوا ليجدوا أن غرفة ابنتهم قد تعرضت لإطلاق نار، وبأنّ الرصاصة اخترقت الحائط مباشرة. وما الذي تضرر؟ صندوق مجوهراتها! فقد اخترقته رصاصة مباشرة، مدمِرّةً كل ما بداخله، فقطع الحلي الصغيرة، وزينة الطفولة البسيطة، كلها تحطمت. كيف يكون ذلك ممكنًا؟ رصاصتان، في منزلين مختلفين، في وقتين مختلفين، وجدت كلتاهما هدفها في المكان ذاته، وهو صندوق مجوهرات فتاة صغيرة. لقد بدت لي هذه الصدفة غير معقولة، بل بدت كما لو كانت رسالة تنتظر من يفهمها.

في تلك اللحظة، دخلت ڤاليري إلى الغرفة حيث كانت إليعانه تشاهد التلفاز وسألتها عن التعويذة التي تُعلّق في القلادة والتي لم يمسها الرصاص، تلك التي بداخلها دعاء السفر المعروف بالعبرية باسم

"تْفيلات هَادِيرِيخ". فأخبرتها إليعانه أنها اشترتها قبل شهر واحد فقط، خلال رحلة مدرسية إلى شمال إسرائيل، عندما زارت قبر الحاخام شمعون بار يوحاي.

بحلول ذلك الوقت، كنت قد نسيت تمامًا تلك الرحلة، وفقط حين ذكّرتني بها ڤاليري وأخبرتني بالمكان الذي اشترت منه إليعانه التعويذة، تمكّنتُ من استيعاب المعنى الخفي الذي كنت أبحث عنه، والذي كان رسالة واضحة من الحاخام شمعون بار يوحاي، عليه السلام وقدّس الله سرّه. وفجأة، اتّضحت الصورة في ذهني، وأدركت الترابط بين هذه الأحداث ومعناها.

في التقاليد اليهودية، يُعتبَر الحاخام شمعون بار يوحاي أحد الحكماء العظام، وقد هرب من بطش الرومان واحتمى في كهف مع ابنه لسنوات طويلة، وكتب تعاليمه في كتاب الـ"زوهار"، الذي يُعدّ أعمق كتب التصوف اليهودي، وقضى سنوات طويلة بعيدًا عن الحياة البشرية، غارقًا في النور الإلهي. وعندما خرج أخيرًا من كهفه، كانت عيناه تحرقان كل ما تقعان عليه، لأن نظرته لم تعد ترى العالم كما نراه نحن، بل رأت زيفه وهشاشته.

الصندوق قد تحطم، واحترق، وتمزق، واندثر، لقد زال غلافه الخارجي وتلاشى تمامًا، لكن الجوهرة بقيت سليمة. لم تكن مجرد قطعة زينة رخيصة من المجوهرات التقليدية، بل كانت جوهرة حقيقية، صافية، غير قابلة للتلف، إذ إنّها جوهرة روح ابني.

تلك... روحه، لا يُمكِن أن تبهت.
تلك... لا يمكن أن تفسد أو تُدمَّر.
تلك... الجوهرة، روحه، لا تزال تشع بنورها.
تلك... لا تزال تنبض حيّةً في هذا العالم.
تلك... لا تزال هنا، تخاطبنا، وتهمس إلينا.

لم يكن من قبيل الصدفة أن الجوهرة الوحيدة التي بقيت سليمة داخل صندوق المجوهرات كانت تحمل دعاء السفر. وكأنها رسالة واضحة: هذا العالم ليس سوى محطة مؤقتة، مجرد رحلة نعبرها. فكلنا مسافرون، نمضي في طريقنا، وإنّ كل خطوة تقرّبنا من وجهتنا الحتمية. ويوجد، ما بعد الموت، مكان ينتظرنا، وسيكون قربنا أو بعدنا عن الله وفقًا لأعمالنا في هذه الحياة.

لم يعد موت قوبي، ابني الحبيب، مجرد ألم بلا تفسير، بل صار وعدًا، ويقينًا، بأنني يومًا ما، حين أصل إلى محطتي الأخيرة، سيكون هناك من ينتظرني، فذاك الذي أُفكر فيه كل يوم، وأشتاق إليه في كل لحظة، سيكون هناك، بانتظاري. إنّ موت قوبي، لم يعد مجرد فاجعة، بل تحول إلى رؤية مختلفة للموت، إذ لم يعد فراقًا بل عودة، لم يعد خسارة بل لقاءً جديدًا بابني، ورجوعًا إلى النقاء الذي لا تشوبه شائبة، إلى جوهرة روحي... إلى ابني.

الفَصْلُ الخَامِسَ عَشَرَ

الشِّهَابُ الثَّاقِبُ

لكي نتعافى من الألم العميق، لا بدّ أن نخرج من دوامة أنفسنا، ونرفع أبصارنا إلى الأعلى، إلى ما هو أعظم منا ،رغم أن ذلك ليس سهلًا على الإطلاق عندما نكون غارقين في الحزن. في ليلة جنازة السيد توبين رفعنا أبصارنا إلى السماء، بحثًا عن العزاء والقوة وحضور الله. لقد دُفن السيد توبين في المقبرة نفسها التي يرقد فيها قوبي، وهي مقبرة كفار عصيون، حيث دفن أيضًا مقاتلو كيبوتس كفار عصيون الذين سقطوا عام 1948. فبعد إعلان استقلال دولة إسرائيل، بدأ العرب القتال ضدها وشنّوا الهجوم عليها، وأُرسل النساء والأطفال إلى أورشليم القدس لحمايتهم، بينما بقي الرجال يقاتلون حتى نفدت ذخيرتهم. عندها، لم يكن أمامهم سوى مواجهة المهاجمين بالسلاح الأبيض، فقُتِلوا جميعًا تقريبًا. ورغم فظاعة ما حدث، لا يزال أبناؤهم وأحفادهم يعيشون في الكيبوتس حتى اليوم ،ومن بينهم تولي، وهو المسؤول الإداري لقرية تكواع. وقد كان بعض هؤلاء الرجال، الذين يحملون في دمائهم إرث الصمود، حاضرين في جنازة قوبي، وكأن الماضي والحاضر التقيا في لحظة واحدة.

أما السيد توبين، فقد تعرّفنا إليه من خلال ابنه مايكل، صديقنا المقرّب الذي يعمل كمعالج نفسي، والذي أصبح لاحقًا مديري في موقع إلكتروني عائلي أنشأه بالتعاون مع توباي جرينوالد تحت اسم wholefamily.com.

توفي موردخاي توبين، والد مايكل، عن عمر يناهز السادسة والثمانين في منزله في بلدة إفرات. وفي الثمانينيات، عندما قرر ابنه مايكل أن يصبح متدينًا وينتقل للعيش في أورشليم القدس، لم يتقبل والده الأمر. فسافر من الولايات المتحدة إلى إسرائيل محاولًا إقناعه بالعودة إلى أمريكا، لكنه وجد نفسه منجذبًا شيئًا فشيئًا إلى الإيمان. وهكذا، بدلًا من أن يعيد ابنه إلى أمريكا، انتهى به الأمر إلى اكتشاف عالم الروحانيات، ليعود هو نفسه إلى إسرائيل، ولكن هذه المرة بوعي مختلف .في الستينات من عمره، وبعد طلاقه من زوجته الأولى، تزوّج مجددًا وبدأ رحلة انغماس عميق في دراسة التلمود، واضعًا نصب عينيه هدفًا واضحًا: وهو أن يتمكن من إتمام دراسته بالكامل. وقد ظلّ مخلصًا لهذا الهدف، ينهل من العلم بحماسة وإصرار، حتى آخر أيام حياته.

حين كان السيد توبين يصارع السرطان في منزله، زرته عدة مرات برفقة أطفالي. فقد كنت أشعر بانجذاب غريب لزيارته، ربما لأن والدي كان قد مات بالسرطان في فلوريدا العام السابق، بعد ستة أشهر فقط من انتقالنا إلى إسرائيل ،إثر خسارة معركته مع المرض بعد ثلاثة أشهر فقط من تشخصيه به. ولم يرَ أطفالي جدهم في أيامه الأخيرة، ولم يحضروا جنازته، وكان في داخلي إحساس دفين بأنني أريد، بل

أحتاج، إلى أن أرافق رجلًا يحتضر، لأكون معه في لحظاته الأخيرة، برفقة عائلتي، مانحةً إياه شيئًا من السعادة، وبصيصًا من النور وسط عتمة المرض.

وحين توفي السيد توبين، اصطحبت أنا وزوجي سيث ابننا غاڤي وابنتنا إليعانه لحضور الجنازة. وفي طريق العودة، بينما كنا نغادر مقبرة كفار عصيون بعد مراسم الدفن، رفعنا أنظارنا نحو السماء وتأملنا منظر النجوم المتلألئة. كان الليل صافيًا، نقيًا، والنجوم تتلألأ بوضوح. فرأينا مجموعة "الثريا" وهي تتوهج في السماء، كما لاحظنا كوكبة "الدب الأكبر"، تلمع وسط السواد الممتد. ثم فجأة، لمحنا شهابين يخترقان السماء، الواحد تلو الآخر، ينسابان بسرعة مذهلة، كأنهما رسالتان من عالم آخر. نظرتُ إليهما، واستشعرت شيئًا لا يمكن تفسيره بالكلمات، فقلتُ: "يبدو أن الله يرحب بالسيد توبين في السماء."

في تلك اللحظة، لم أكن أدرك أن رؤية الشهابَيْن كانت بمثابة إعدادٍ ورسالة روحية تسبق ما كنت سأمرّ به بعد عامين، حين تلقيت إشارة أخرى من الله، تمامًا بعد ثلاثين يومًا من مقتل ابني قوبي.

وفقًا للتقاليد اليهودية، فإن فترة الحداد على الوالدين تمتد لعامٍ كامل، وخلال هذه المدة، يُمنع الأبناء من حضور حفلات الزواج أو احتفالات "بار ميتسڤاه"، أو حضور حفل موسيقي، أو حتى شراء ملابس جديدة ،بهدف الإبقاء على حالة الحزن احترامًا للوالدين الراحلين.

لكن حين اكتشفت أن فترة الحداد على الابن لا تتجاوز الثلاثين يومًا، كنت في حالة ذهول. كيف يمكن أن تمتد مدة الحداد على الوالد لعام، بينما يُختصر الحداد على فلذة الكبد في شهر واحد؟ لكن إحدى الأمهات، التي مرت بنفس التجربة، فسّرت لي الأمر ببساطة وقالت: "لأنكِ ستظلين في حداد طوال حياتك. لا تحتاجين إلى الطقوس كي تتذكري حزنك، فلن تنسيه أبدًا. إنّ كل قطعة ملابس جديدة ستذكّرك بأنه لم يعد بإمكانك اصطحاب ابنك للتسوّق، وكل دعوة لحفل أو مناسبة ستكون بلا معنى، لأنك لن ترغبي في الرقص أو الغناء أو الاحتفال. ستشعرين أن الموسيقى أصبحت شيئًا غريبًا عنك، وستفضلين البقاء في المنزل، مع ذكرياته وحزنك وغيابه. ولكن الـ"هَلاخَاه"، أي الشريعة اليهودية، لا تريد من الإنسان أن يتوقف عن الحياة، بل تدفعه إلى الاستمرار والمضيّ قُدمًا".

في اليوم الثلاثين بعد مقتل ابني الحبيب قوبي وصديقه العزيز يوسف، الذي يُعرف في التقاليد اليهودية باسم "شلوشيم" (أي: الثلاثين)، تختتم فترة الحداد الرسمية. وفي قريتنا، لم يَمُرّ ذلك اليوم مرور الكِرام، بل خُصِّصَ بالكامل لإحياء ذكرى الفتيين. يومها، امتلأت الأجواء بروح الحنين والاستذكار، حيث تلقّى جميع أهل القرية شمعة خاصة لإحياء الذكرى، ظلّت مشتعلة طوال اليوم. وفي المعتقد اليهودي، تُشبَّه الروح ("نِشَماه") بالشمعة، كما جاء في الآية السابعة والعشرين من المقطع العشرين من سفر الأمثال "روح الإِنْسَانِ سِرَاجُ الرَّبِّ". ولهذا، فإن اشتعال الشمعة ليومٍ كامل يرمز إلى بقاء الروح واستمرار حضورها، حتى بعد الموت الجسدي. حملتْ هذه الشمعة آية من المزمور السابع والسبعين في سفر المزامير، وهي الآية التي أصبحت مرتبطة بقوبي ويوسف، وكأنها كُتِبَت خصيصًا لهما:

"بِذِرَاعِكَ فَدَيْتَ شَعْبَكَ، بَنِي يَعْقُوبَ وَبَنِي يُوسُفَ."

في هذا اليوم، يُعلن عن "تعنيت ديبور" – أي "صوم" الكلام، وهو ما يعني عادةً الامتناع التام عن الحديث، لكنه في هذا اليوم بالتحديد لا يعني الصمت، بل أن نختار كلماتنا بعناية، فننطق فقط بما

هو خير، سواء عن أنفسنا أو عن الآخرين. فلا مكان للحديث السلبي، ولا مكان للشتائم أو النميمة، إذ نستبدل الكلمات الجارحة بكلمات مشجعة، خالقين مساحة حيث لا يكون للكلمات إلا تأثير إيجابي.

وبالإضافة إلى ذلك، يصوم بعض الناس عن الطعام أيضًا، كنوع من التعبد والتأمل. وقد كان ذلك اليوم مليئًا بالأنشطة الروحية، من ورش الفنون إلى حلقات دراسة الدين والدعاء. وفي المساء، ذهبتُ إلى الكنيس لحضور صلاة خاصة تُعرف باسم "قاديش" (Kaddish) في العبرية، أقيمت تخليدًا لذكرى قوبي ويوسف. هناك، تحدث زوجي سيث عن معنى غياب قوبي عن هذا العالم، فقال إن ابننا لم يعُد موجودًا ليعبد الله ويعمل الخير. لذلك، فإن على كلّ واحدٍ منا أن يُكثِر من الأعمال الصالحة، فيعمل خيرًا إضافيًا يُعوّض به ما فُقد من العالم، أي الخير الذي لم يعُد بإمكان قوبي تقديمه.

كان جمر الغياب يشتعل في داخلي، ولم يكن لي ملجأ سوى الدعاء. فصرختُ من أعماقي، والدموعُ تغمرُ وجهي: "يا الله، أتوسّل إليك، أعطني إشارة، أرني أن ابني بخير. أحتاج أن أعلم... أحتاج أن أشعر أنه بخير!".

في قاعة الكنيس، كانت صديقاتي قد أعددن مائدة الإفطار، واجتمع الناس حول الطعام، يتحدثون، بل حتى يضحكون. حينها، شعرتُ أنني لا أنتمي إلى هذا المكان الذي انتهى فيه الحداد، حيث يشعر الآخرون بأنهم قد أدوا واجبهم تجاه أهل الفقيد، فيجدون نوعًا من الراحة، ويشعرون بالرضا فيكون بإمكانهم الضحك، بينما كنتُ أعرف أن أمامي طريقًا طويلًا ومظلمًا من الحزن لا نهاية له.

خرجتُ وحدي في الظلام، مستعدة للعودة إلى البيت. كان الهواء باردًا ونقيًا، والليل حالكٌ، وبينما كنت أمشي، شعرتُ بشيء ما يجذبني لأنظر إلى الأعلى. وما إن رفعت بصري حتى رأيت شهابًا يخترق السماء في ومضة خاطفة. كان الشهاب ذاته الذي قال لي غافي إن قوبي يستطيع رؤيته الآن، لأنه هناك في السماء، مع الله. وقد كان شهابًا مثل ذاك الذي رأيته بعد جنازة السيد توبين.

وفي تلك اللحظة، عرفتُ أن الله كان يرحب بابني الغالي قوبي في السماء.

الفَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ

عِيدُ مِيلادِ قوبي - حين أصبحنا مُتَسَوِّلِينَ مُقَدَّسِينَ

في الرابع عشر من حزيران/يونيو، كان من المفترض أن نحتفل بعيد ميلاد قوبي الرابع عشر لو كان حيًا، لكنه كان قد مات منذ خمسة أسابيع، وقد بدا غيابه وكأنّه لم يمضِ عليه سوى خمس ساعات، فقد كان الجرح لا يزال مفتوحًا، وكان الألم حادًّا كما لو أنه وقع للتو. ورغم ذلك، يظلّ هذا اليوم هو يوم ميلاده، وكانت صديقتي شيراه، التي أصبحت دليلي في درب الحزن، قد أخبرتني أن عليّ أن أفعل شيئًا لأُحيي ذكراه.

وهذا ما حدث: كنتُ مضطرةً على أيّ حال لتجديد جوازات سفرنا، فذهبتُ إلى أورشليم القدس، حيث تقع مكاتب وزارة الداخلية المسؤولة عن إصدارها. وبينما كنتُ أراجع الأوراق الرسمية، وَقَعَتْ عيناي على جواز سفر قوبي، فشعرتُ، لحظتها، برغبة جارفة في الإمساك به وطلب تجديده، وكأنني أستطيع استعادة ابني بقيامي بذلك، وكأن ذلك قد يعيده إلينا، لكنني كنتُ أعلم أن هذا مستحيل. بدا لي الأمر وكأنّ عدم تجديد جواز سفره سيعني أنّ هويته ستُمحى، وكأنني أفقده مرة أخرى، فلم أتمالك نفسي وانفجرتُ بالبكاء داخل مكتب الجوازات.

بعد ذلك، قررتُ أنا وأولادي الذهاب إلى مطعم برغر كينغ تكريمًا لذكرى ميلاد قوبي، لأنه كان يحب تناول البرغر، وكان من أكثر ما أحبّه في إسرائيل إمكانية الاستمتاع بتناول برغر كوشِر ،أي موافق لأحكام الشريعة اليهودية في إعداد الطعام. كان قوبي عاشقًا للطعام لدرجة أنه جعل شاشة التوقف في حاسوبنا تعرض عبارة: "أنا جائع، أطعموني حالًا!" لقد كان حبّه للطعام طاغيًا، وكأنّ هذا الحبّ كان كيانًا مستقلًا بذاته، وقوة لا يستهان بها.

كنا مرهقين وجائعين، وبدا المشي إلى "برغر كينغ" وكأنه مهمة شاقة. وعلى الطريق، لمحنا مطعمًا نباتيًّا، فتبادلنا النظرات ثم دخلنا. لم نكن بحاجة إلى الحديث، وشعرت أننا جميعًا تنفسنا الصعداء، لأننا نجونا من الحزن المصاحب لأكل البرغر دون قوبي .وحين توجّهَ أولادي إلى المنضدة ليأخذوا المشروبات، أغمضتُ عينيَّ ومسحتُ دموعي بمنديل ورقي وأنا أبكي في صمت. تساءلت في نفسي: كيف سأواصل حياتي؟ من أين سأجد القوة لأقف على قدميّ؟ كيف سأتمكن حتى من مغادرة هذا المطعم، وأخذ أطفالي إلى المنزل بالحافلة؟

كنتُ أفكر، غارقةً في حزني، كيف أنني لطالما أحببتُ أن أسبح ميلًا واحدًا (حوالي 1.6 كيلومتر) في يوم ميلادي، لكن ماذا أفعل في عيد ميلاد قوبي؟ هل أسبح أربع عشرة دورة في المسبح تكريمًا لعامه الرابع عشر؟ بدا لي الأمر سخيفًا، وبلا معنى. لقد كنا في وسط أورشليم القدس، وفي هذا اليوم، كان قوبي سيكمل الرابعة عشرة من عمره لو ظلّ حيًا. وفجأة، خطرت لي فكرة، وعندما عاد أولادي إلى الطاولة حاملين المشروبات، نظرت إليهم وقلت بحماس: "هيا نبحث عن أربعة عشر متسولًا ونعطيهم الصدقة باسم قوبي". وفي تلك اللحظة، تقدم رجلٌ يشع النور من وجهه، وكان حليق الذقن بشعرٍ أبيض كثيف، ووضع بطاقةً على طاولتنا. ومن نظرةٍ واحدة، علمت أنه مكتوبٌ على البطاقة أنّ الرجل أصم ويبحث عن مساعدة.

في الماضي، كانت هذه البطاقات تزعجني، خصوصًا عندما كنتُ أحاول تناول وجبتي في هدوء، فيقاطعني متسوّل فجأة. لكن في تلك اللحظة، شعرتُ أنا وأولادي بالسعادة لرؤيته وقلنا له: "تفضل، هذا المال" فنظر الرجل إلينا مُبتسمًا.

عندما انتهينا من وجبتنا، أخذنا الطعام الذي لم نكمله معنا وخرجنا من المطعم، ممتلئين بالنشاط لإكمال مهمتنا. لكن الجو كان حارًّا، ولم يكن هناك كثير من الناس في وسط أورشليم القدس لخوفهم من الهجمات الإرهابية. ثمّ رأينا رجلًا يُقدّم الصدقة لرجلٍ مسنٍّ منحني الظهر وقد واصل المسنّ طريقه، فأسرعنا نحوه لنعطيه المال. وفي سعينا للبحث عن أشخاص نعطيهم الصدقة، توجهنا نحو شخصين برِجْلَيْن مكسورتَيْن يستريحان على مقعد، حيث اعتقدنا أنهما متسوّلان، لكننا أُصبنا بخيبة أمل عندما لم نجد الكوب أو السلّة حيث يضع الناسُ المالَ للمتسوّلين.

شعرتُ أن قوبي كان يضحك من علىائه على مغامراتنا، فلم يكن يحبّ شيئًا كحبّه للمفارقات، وقد تمثّلت المفارقة الكبرى في أننا كنا نبحث عن المتسوّلين لأننا بحاجة إلى أن نعطي. لقد كنا نحن من يتسوّل وجودهم، ولكن يا للسخرية، حين احتجنا إليهم حقًّا، لم نجد أحدًا. ولعلّ هذه المفارقة الساخرة كانت رسالة قوبي إلينا ،التي تدلّ على أن روحه ما زالت حية، وأنّه ما زال مرتبطًا بنا.

أدركتُ عندها أن الحرّ كان شديدًا لدرجة أننا لم نعد قادرين على البقاء في الخارج أكثر. وقد خطرت لنا فكرة الذهاب إلى حائط المبكى، الحائط الغربي، حيث يتجمع المتسوّلون عادةً في الطريق المؤدي إليه، لكننا كنا في منتصف النهار، وكان الجو خانقًا، فقررنا تأجيل الأمر. وفي النهاية، اتفقنا على أنه في العام القادم، في عيد ميلاد قوبي، سنستيقظ باكرًا، ونتوجه إلى الحائط الغربي، ونتأكد من أن نعطي باسمه الصدقة لخمسة عشر متسوّلًا.

لاحقًا، عندما أخبرتُ زوجي عن فكرة البحث عن أربعة عشر متسوّلًا لنمنحهم الصدقة، ابتسم وقال: "في عيد ميلاد قوبي العام القادم، لن نكتفي بتوزيع المال، بل سنجمع المتسوّلين ونأخذهم معنا إلى مطعم لنتناول الطعام معًا".

كنت واثقة أن قوبي كان سيجد فكرة الجلوس مع المتسوّلين حول مائدة الطعام أمرًا رائعًا. وحينها فقط، أدركتُ أننا أصبحنا متسوّلين مقدّسين، تمامًا كأبطال الحكاية التي كان يرويها الحاخام شلومو كارليباخ، الذي رحل عام 1994، وقد كان شغوفًا بالغناء، وساهم بصوته العذب، وشغفه في دراسة

التوراة، وكرمه اللامحدود، في تقريب العديد من اليهود إلى تقاليدهم وإيمانهم اليهودي. لقد منحنا ابني الحبيب قوبي هذا التحوّل، وجعلنا متسوّلين مقدّسين، أي أناسًا يتوسّلون ليعطوا، ويتوسّلون ليخلقوا الحب. تلك كانت هديته لنا.

احتفال الـ"بار ميتسڤاه" الخاص بقوبي

الفَصْلُ السَّابِعَ عَشَرَ

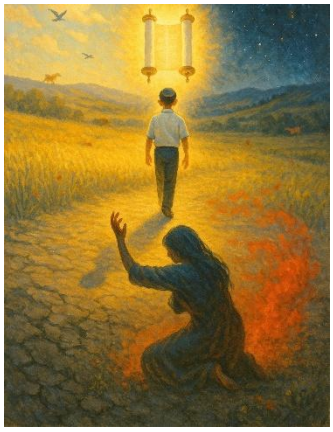

الـ"بار ميتسڤاه": الاحتِفالُ بِبُلوغِ سنِّ التَّكليفِ الدِّينيِّ

قُتِلَ ابني الحبيب قوبي في العام الذي بلغ فيه سنَّ الـ"بار ميتسڤاه"، وهو في الثالثة عشرة من عمره. ومع ذلك، أشعر بالامتنان لأنه نال فرصة الاحتفال بهذه المحطّة الفارقة في حياته، ولأنه تحمَّل مسؤولية الالتزام بالوصايا الدينية، خاصةً وأن الاحتفال بالـ"بار ميتسڤاه" لم يكن جزءًا من تقاليد عائلتي لثلاثة أجيال متتالية. فقد كان والدي الابن الوحيد لوالديه، لكن عيد ميلاده الثالث عشر صادف أن يكون في فصل الصيف، وقد قضى والداه تلك الفترة في مجمّع صيفيّ بعيد عن المدينة، فقرّرا ببساطة عدم الاحتفال به. أمّا والدتي وشقيقتها، فلم تحظيا بأي تربية دينية، ولم تحتفل عائلتهما بأي مناسبات دينية على الإطلاق. وقد نشأتُ أنا أيضًا في بيئة لم تُعِر التقاليد الدينية لمرحلة البلوغ اهتمامًا ،إذ كنت واحدة من ثلاث شقيقات، ولم نحتفل عند بلوغنا سنّ الثانية عشرة، لا بـ"بات ميتسڤاه"، ولا حتى بأي احتفال دينيٍّ بديل، كما هو الحال في بعض التقاليد الأخرى. ولهذا، كان احتفال قوبي بالـ"بار ميتسڤاه" لحظةً مفصليةً في عائلتنا، وحدثًا استثنائيًا غير مسبوق.

ولم يكن الاستعداد لهذا الاحتفال مجرد تجهيز عاديّ لمناسبة دينية، بل كان تجربة تعليمية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وكما أخبرتني إحدى صديقاتي مرّةً، فإن الـ"بار ميتسڤاه" لا يُعبّر فقط عن نضوج الابن وانتقاله إلى مرحلة جديدة من حياته، بل هو أيضًا علامة على نضج الأم وتطوّرها في رحلتها كوالدة.

كان قوبي يكبر أمام عينيّ، وكنت أرى ملامح النضوج ترتسم عليه يومًا بعد يوم. لذلك، منحته كامل الحرية لاتخاذ القرارات المهمة المتعلقة باحتفاله، فاختار بنفسه أن يكون مكان إقامة الحفل في الحقل القريب من منزلنا المطلّ على الوادي. كما قرر بنفسه قائمة الطعام، وفضّل أن يكون الطبق الرئيسي هو الدجاج المقلي الذي يُعدّه صديقنا شمعون. وحتى الدعوات، لم يكن له فيها رأي فحسب، بل انتقى كذلك تصميمًا بسيطًا بالأزرق والأبيض، وكتب بنفسه نص الدعوة، وأضاف إليها الآية الرابعة من المقطع مئة وخمسة وثلاثون من سفر المزامير" :وَٱخْتَارَ ٱللَّهُ يَعْقُوبَ لِنَفْسِهِۦ، وَيِسْرَآئِيلَ كَنْزَهُ ٱلثَّمِينُ."

يُعَدُّ تلاوة نصٍّ من التوراة جزءًا أساسيًّا من احتفال الـ"بار ميتسڤاه"، وهو ما بدأ قوبي الاستعداد له تحت إشراف معلّم ديني. وكان عليه تلاوة النصّ التوراتي الأسبوعي "پرَاشَة حُقَّة"، الذي يتضمّن المقاطع تسعة عشر إلى اثنين وعشرين من سِفر العدد. ولم تكن هذه المهمّة سهلة، فهي تتطلّب إتقانًا

دقيقًا، إذ تُتْلَى التوراة وفق تقاليد صارمة لا يجوز الخطأ فيها، وإلا فإنّ المصلّين في الكنيس يبادرون إلى تصحيح القارئ على الفور، وأحيانًا بصوت مرتفع.

وعندما بدأ قوبي دراسة النصّ، اتّصل بنا المعلّم ليخبرنا بأنه قد يواجه صعوبة في تلاوة المقطع بإتقان، وربما لن يتمكّن من ضبط نطقه بالكامل. وقد كان التحدّي أمامه مضاعفًا، فلم يكن عليه فقط حفظ النصّ وإتقان قراءته، بل كان يخشى أيضًا أن تنكشف لكنته الإنجليزية أثناء التلاوة، فازداد قلقه كيف سيبدو صوته أمام الحاضرين. لكن قوبي لم يستسلم ،فواصل التدريب بعزيمة، وبذل جهدًا كبيرًا حتى أتقن التلاوة. ولذلك، عندما حلّ يوم احتفاله، وقف أمام الجميع بثبات، وتلا المقطع بدقة، دون أن يحتاج إلى تصحيح ،إذ أدّاه بإتقانٍ كامل.

أقمنا احتفالًا ليلة الخميس، ودعونا خمسين شخصًا لحضور الـ"قيدّوش" - تلاوة شكر لله على نعمة الخمر والخبز - في كلٍّ من وجبتي يوم الشبات، ليصل إجمالي الضيوف إلى مئة شخص. وفي مساء الجمعة، وقفت أتأمل ابني الحبيب قوبي وهو يرقص في القسم المخصص للرجال داخل الكنيس، بوجهٍ يشع نورًا، وعينين تلمعان وهو ينظر إلى الأعلى. بعد أيام، سألته عن اللحظة الأجمل في احتفال الـ"بار ميتسڤاه"، فأجاب دون تردد: "تلاوة التوراة." عندها، غمرني شعور عميق بالرضا، وكأنّ كل التضحيات التي بذلناها للعودة إلى إسرائيل كانت تستحق العناء، والتي شملت الصعوبات المالية، ومشقة البحث عن عمل، والتحديات التي واجهها أطفالنا في التأقلم مع بلد جديد لا يتحدثون لغته. ولم يكن قوبي يعتنق يهوديّته كهوية فقط، بل كان يعيشها بصدق، فهي جزء أصيل منه، وانعكاسٌ لأعمق ما في روحه.

النصّ التوراتي الذي تلاه قوبي في الكنيس خلال احتفاله بالـ"بار ميتسڤاه"، پرَاشَة حُقَّة، أصبح لاحقًا معينًا لي على مواجهة الألم بعد موته. تعني "حُقَّة" الشريعة أو الفريضة، وهي الأحكام الإلهية التي نلتزم بها لمجرّد أن الله أمرنا بها، دون أن يكون هناك تفسير واضح للحكمة منها. أما صيغة الجمع، "حُقُّوت"، فتشير إلى مجموع هذه الشرائع التي تُتَّبع عن إيمان وتسليم، لا استنادًا إلى منطق أو فهم بشريّ. وفي التوراة، هناك وصايا تبدو لنا بديهية وواضحة المعنى، مثل تحريم السرقة، وإقامة نظام قضائي عادل، وتحريم الزنا. لكن في المقابل، هناك وصايا أخرى قد يصعب على العقل البشري استيعاب الحكمة منها، ومع ذلك، نلتزم بها لأنها جزء من أوامر الله، كالقوانين الصارمة المتعلقة بالأطعمة وفق أحكام الكشروت، وارتداء الرجال للتيفيلين على الذراع والرأس، وتحريم الجمع بين الكتّان والصوف في نسيج واحد.

يبدأ النصّ التوراتي الأسبوعي "حُقَّة" بالحديث عن شريعة البقرة الحمراء، التي تُعَدّ النموذج الأبرز للشرائع التي لا تفسير واضح لها في التوراة. وفي هذه الشريعة، يختار الكاهن بقرةً حمراء كاملة لا عيب فيها، ثم تُحرَق بالكامل، ليُستخدم رمادها في طقس تطهير من لامسوا جثمان ميت، حيث يُمزَج الرماد بماء نبع طبيعي، ثم يقوم الكاهن برشّ الماء الممزوج بالرماد على من يحتاج إلى التطهير. ورغم أنّ النار والماء عنصران متضادان، إلّا أنّهما يجتمعان في هذا الطقس لتحقيق الطهارة. لكن المفارقة تكمن في أن هذا الرماد الذي يُطهِّر، هو ذاته يُسبِّب النجاسة أيضًا. فالكاهن الذي يُعدّ ماء التطهير الممزوج بالرماد يصبح هو نفسه نجسًا، ويُلزَم بغسل ثيابه وجسده بالكامل بعد إتمام الحرق.

إذن، فالغاية هي القداسة، لكن الطريق إليها محفوف بالتناقضات؛ فمع كل طقس تطهير، تولد نجاسة جديدة. وكأن الطهارة والنجاسة وجهان متلازمان، مرتبطان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا، في دورة لا

نهائية، وحلقة مستمرة بلا انقطاع. ويرى بعض مفسّري التوراة أن البقرة الحمراء تُجسِّد "تيكون"، أي إصلاحًا وتكفيرًا عن خطيئة العجل الذهبي، وهو الصنم الذي صنعه بنو إسرائيل عندما صعد النبي موسى إلى الجبل ليتلقّى التوراة من الله. وحين مضت أربعون يومًا ولم يعد، ظنوا أنه قد تأخّر، فسادتهم مشاعر الخوف والضياع، وبدلًا من الصبر، جمعوا الذهب وصهروه ليصنعوا منه عجلًا يعبدوه. ولا يقتصر دور البقرة الحمراء على التكفير عن خطيئة عبادة الأصنام التي وقع فيها الشعب، بل يتجاوز دورها العميق ذلك؛ فهي الأم التي تطلب المغفرة عن خطيئة ابنها، العجل الذهبي، وكما قال الحاخام راشي: "لتأتِ أمّه وتمسح وسخَه" أي لتأتِ الأم وتمحو أثر الفوضى التي أحدثها ابنها، مصلحةً ما أفسده.

قدَرُ الأم أن تمسح آثار الفوضى وتعيد الأمور إلى نصابها، سواء رضينا بذلك أم لا. لكن موت ابني قوبي ليس فوضى، بل مأساة. وعليَّ أن أحذر من أن يتحوّل حزني عليه إلى صنم أعبده، أو أن تستهلكني فاجعته حتى تطغى على فكري وروحي. لذلك، لا خيار أمامي سوى أن أسعى إلى تقبّل قضاء الله وقدره، وأن أدرك أن شريعة البقرة الحمراء تعلّمني الإيمان المطلق والتسليم التام بمشيئته، حتى وإن كنت لن أفهمها أبدًا. فهذه الشرائع تفرض علينا الإقرار بأن مهمّتنا ليست أن نفهم كل شيء، فلا يمكننا أن نعتقد أننا قادرون على سبر أغوار كل حقيقة بالعقل والمنطق وحدهما، لأن هناك أمورًا تتجاوز حدود لغتنا وإدراكنا البشري.

ولهذا، وبما أنها تتجاوز حدود الفهم، فإن شريعة البقرة الحمراء تندرج ضمن عالم التناقضات؛ فالمادة نفسها قد تكون وسيلة للتطهير أو سببًا للتنجيس بحسب السياق، وقد تكون مقدّسة أو مدنّسة وفقًا لطريقة استخدامها.

تُعَلِّمُنا الشرائع الدينية، الـ"حُقَّوت"، أن لا خيار لنا سوى التعايش مع التناقضات، وأن نقبل الأمور التي تبقى بلا تفسير، وأن ننفّذ أوامر الله لمجرّد أنه أمر بها، لأنه هو من يشاء. وهكذا، فإن موت ابني الحبيب قوبي يفرض عليّ هذه الحقيقة ذاتها: أن لا خيار لي سوى أن أعيش في ظلّ تناقضات مقتله ، فالألم عميق لكنّ من حولي أفاضوا عليّ بحبّهم ودعمهم، وإنّ ابني حيٌّ في ذاكرتي لكنّه ميّتٌ في الواقع، وأنا بحاجةٍ إلى التمسّك بالحياة بينما تمتدّ روحي نحو العالم الآخر، وإنّ جمال المكان الذي قُتل فيه يناقض رعب قتله المروّع.

وحده الله هو القادر على احتواء التناقضات والتوفيق بينها، كما تقول عالمة التوراة وأستاذة التفسير التوراتي أڤيڤاه غوتليب زورنبيرغ، فهو وحده من يستطيع فكّ هذا التداخل شديد التعقيد الذي يعجز عقل الإنسان عن إدراكه. أما نحن، البشر، فلا يمكننا الإمساك بخيطي التناقض معًا، ولا نستطيع أن نستوعب النقيضين في آنٍ واحد.

يقول الحاخام شلومو كارليباخ إن عقولنا لا تحتمل سوى شعور واحد، إما الفرح وإما الحزن، لكن أرواحنا قادرة على حمل الاثنين معًا. فالروح تبكي وتضحك في اللحظة ذاتها، رغم أنّ الروح في جوهرها هي كلٌّ واحدٌ غير مجزّأ، وأحيانًا نلتقي بأشخاص يلمسون هذا العمق داخلنا، فيوقظون فينا الحزن العميق والفرح المطلق في آنٍ واحد.

اليوم، أبحث عن هؤلاء الأشخاص الذين يستطيعون أن يلامسوا وحدة روحي التي لا تتجزّأ، الذين لا يشفقون عليّ، بل يفهمون أن الحزن لا ينفي وجود الفرح، وإنما يسكنان معًا في داخلي، حيث ينتظر الفرح من يكتشفه.

ومع ذلك، عليّ أن أؤمن بأن موتَه يقودنا إلى مكان ما، وذلك المكان، رغم كونه موطنًا للتناقض والمفارقات، إلّا أنّه مغمور بالقداسة.

الفَصْلُ الثَّامِنَ عَشَرَ

الجُدْجُدُ (صَرْصُورُ اللَّيْلِ)

طوال فترة الحِداد الطويلة التي عِشتها، تعلّمتُ أن حتى المخلوقات الصغيرة، مثل الحشرات، هي رُسُلٌ تحملُ رسائلَ خفيّة. وهذا ما حدث: بعد ستة أسابيع من مقتل ابني وصديقه، نهضتُ من فراشي ونزلتُ إلى الطابق السفلي في الصباح الباكر، مثقلةً بالشوق إلى قوبي. فلم يهبني النوم راحةً ولا سكينة، بل زاد من لهفتي إلى ابني. ورغم أن يومًا جديدًا قد بدأ مع إشراقة الصباح، إلّا أن قوبي لم يكن معي لنستقبله معًا.

وضعتُ الغلاية على النار، وفجأةً، بدأ جُدجُدٌ يُحدِثُ ضجيجًا في المكان! كان صوته أشبه بأجراسٍ رنّانةٍ ،كأنها مُعلّقةٌ على عربةٍ تنساب فوق الثلج، بنغمةٍ تخترق صمتَ الفقد، وتذيبُ شيئًا من برودته في قلبي، وكأنها تقول: "مرحبًا! أنا هنا! ولن أدعكِ وحدكِ!" ثمّ أخذ الصوت يعلو أكثر فأكثر، يطالب بالانتباه، متواصلاً بلا انقطاع، ونافذًا إلى أعماقي.

ومنذ ذلك الحين، وعلى مدار أكثر من شهر، ظلّ الجُدْجُدُ هناك، ينتظرني كل صباح حين أستيقظ. وقد كنتُ أعلم أن الذكور من هذه الحشرات هم وحدهم من يُصدرون الأصوات، وليس الإناث، وأنّهم عادةً ما يغنّون في الليل فقط. فهم يصدرون أصواتهم عن طريق احتكاك أجنحتهم ببعضها، حيث تُلامس العُرق السميكة لأحد الجناحين الحافة الصلبة الحادة للجناح الآخر. لكن هذا الجُدجد كان يُحدِث ضجيجَه في وضح النهار!

كان هذا تمامًا ما أحتاجه بشدّة ،أن أشعر بالتواصل مع ابني الحبيب قوبي. فقد كنتُ أنزل كل صباح إلى المطبخ بشوق وحنين إليه بلغا أوجهما ،فأضع الغلاية على النار، وما إن يبدأ الماء بالغليان حتى يصلني صوت الجُدْجُد، فيتسلّل إلى أعماقي شعورٌ خافتٌ من السكينة والطمأنينة. إنّ هذا الكائن الصغير كان مفعمًا بالحياة، يملأ المكان بصوته، الذي كان أحيانًا عاليًا ومزعجًا، وكان أحيانًا أخرى كأنّه همهمةٌ رتيبةٌ مهدّئة، لكنه لم يكن يصمت.

ثم جاء الصيف، وبعد شهرين من مقتل قوبي، سافرنا إلى الولايات المتحدة، ولم يكن أمامي خيارٌ سوى ترك الجُدْجُد خلفي، فراودني القلق من أن يختفي أثناء غيابنا. لقد كنتُ خائفةً من العودة إلى البيت ومواجهة الصمت.

وبالفعل، كان خوفي في محلّه، فلم يكن الجُدْجُد هناك عندما عدنا. "حسنًا، إنه مجرد جُدْجُد، لا داعي لأن أُكَبِّر الموضوع"، قلتُ لنفسي، محاوِلةً التهوين من الأمر. وبالتأكيد، لم أكن أريد جُدْجُدًا، بل

كنتُ أريد ابني قوبي. ومع ذلك، عندما نزلتُ إلى الطابق السفلي صباحًا، اجتاحتني الكآبة، إذ كنتُ أفتقد ذلك النداء الصباحي الذي اعتدتُ عليه.

ثم، بعد شهرين، أرسلتُ الفصول الأولى من هذا الكتاب إلى وكيلةٍ أدبية، وفي اليوم نفسه، اتصلت بي مغدقةً الكتاب بالمديح. وربما يجدر بي أن أوضّح أنني طوال سنوات أمومتي كنتُ أعمل كاتبة، ولقد كتبت قصصًا للأطفال وروايات ومقالات كثيرة، ونُشرت لي مقالاتٌ عديدة وكتابٌ واحد، لكنني لم أتلقَّ من قبل أي إشادةٍ من وكيلٍ أدبي، خاصةً من وكيلٍ يُمثّل كبار الكتّاب.

كان قوبي يُثني أحيانًا على كتاباتي، وأحيانًا أخرى يسخر منها، لكنه في كل الأحوال كان لديه دائمًا ما يقوله عنها. لقد كان أكثر قرّائي إخلاصًا، حتّى أنّه كان أحيانًا يدخل إلى ملفاتي على الحاسوب ليقرأ مقالاتي، فقط ليعرف ما الذي أعمل عليه. وقد كان بلا شك مشجّعًا رائعًا بحق.

في الليلة التي اتصلت فيها الوكيلة الأدبية التي أثنت على الكتاب، ديبورا هاريس، استيقظتُ فجأةً في منتصف الليل على صوتٍ حادٍّ ونفّاذٍ يمزّق السكون. فافترضتُ أن أحد أطفالي قد ضبط ساعةَ منبّهه عن طريق الخطأ، فنزلتُ إلى الطابق السفلي في الظلام، واتجهتُ مباشرةً إلى غُرفهم أبحثُ عن الساعة، لكنني لم أجد شيئًا. ثم نزل زوجي أيضًا، إذ أيقظه الضجيج ذاته، فقلتُ له: "أعتقد أنها ساعة منبّه".

بدأنا نبحث، لكننا لم نجد أي ساعة. ورغم أننا أردنا العودة إلى النوم، فقد كان من المستحيل أن ننام ما لم نكتشف مصدر هذا الصوت المُزعج. وبينما كنا نبحث في أرجاء المنزل، كنا نقترب أكثر فأكثر من مصدر الصوت، حتى ناداني زوجي سيث من المطبخ قائلًا: "لن تُصدّقي هذا!"

لقد عاد الجُدْجُدُ، وبقوّة هذه المرة! كان يحتفل كما لو أنه تُوِّج ملكًا على الجداجد، وكأنّه أطلق ألبومه الأول، ورافقه فيلمٌ مُلحقٌ به في اليوم ذاته! كان يُحدِث ضجيجًا كما لو أنه في قمة نشوته، وكأنه يُغنّي بلذّة الانتصار!

رأيتُ في ذلك إشارةً من ابني قوبي، وكأنّه يُعبّر عن فرحته بالأخبار السعيدة حول الكتاب، ويريدني أن أعرف أنه معي، لكنه يعلم، وأنا أعلم أيضًا، أن هذه الفرحة لها وجهٌ آخر؛ فاللحظة التي حصلتُ فيها على التقدير الذي طالما سعيتُ إليه كانت لحظةً مشوبةً بالأسى، إذ أكّدتْ لي أنني فقدتُ ذلك الذي أحتاجه حقًا، الوحيد الذي كان ضروريًا لسعادتي.

ثم سمعتُ صوت نيتسان.

نيتسان هي وسيطةٌ روحانية، تبدو كما لو أنها خرجت من مشهدٍ سينمائي عن العرّافات، بفستانها القطني الأبيض الفضفاض، وشعرها الأسود الطويل، وعينيها الداكنتين اللتين تبدوان وكأنهما تُبصران المستقبل. وقد تعرّفنا إليها عندما جاءت لزيارتنا خلال الأسبوع الذي تلا مقتل قوبي، وحين جلست في غرفتي، أمسكت بيدي وقالت لي: "قوبي يريدكِ أن تُكملي المشروع الذي بدأتماه معًا".

وحينها أدركتُ أن مشروعنا المشترك هو هذا الكتاب. إنّ قوبي معي، يدفعني إلى الأمام، يساعدني في سرد حكايتنا. وحين رويتُ قصة الجُدْجُد لمخرجةٍ فرنسية بعد أشهر، نظرت إليّ وقالت: "ألا تعلمين؟ في جنوب فرنسا، لا يقتلون الجُدْجُد أبدًا! إنه رمزٌ للروح".

الفصلُ التاسِعَ عَشَرَ

الكَأسُ المَكْسُورةُ

كانت كارلي، وهي الابنة الكبرى لصديقتي ڤاليري، تستعد للزواج في عمر الثامنة عشرة من يهوداه، الذي كان في العشرين من عمره، وذلك بعد مرور ثلاثة أشهر على مقتل قوبي. وقد كنتُ أعلم أنَّه كان متوقعًا مني أن أحضر هذا العُرس، لكن كم كان صعبًا أن أكونَ في مكانٍ يعجُّ بالفرح بينما قلبي وروحي يعتصرهما الألم. ومع ذلك، ورغم الحزن، حضرتُ العرسَ مع زوجي سيث وأطفالنا، وبكيتُ أثناءه متأثرةً بجماله، لكنني بكيتُ أيضًا على نفسي، لأنني لن أحظى أبدًا بالفخر والفرح اللذين كنتُ سأشعر بهما لو رأيتُ ابني الحبيب قوبي عريسًا. ولن أتمكنَ أبدًا من معرفة المرأة التي كان سيختارها لتكون عروسه وشريكة حياته.

بكيتُ ونُحْتُ، لكنني في الوقت ذاته لم أُغلِق أبواب قلبي أمام الفرح والدهشة الممنوحَيْن من هذا العالم. بل على العكس، بدا لي وكأنَّ طيف مشاعري قد اتّسع، فأصبحتُ أعيش الفرح بعمقٍ أكبر، وكأنه بات أكثر نقاءً وصفاءً، لأنني أدركتُ أن الحبَّ نعمةٌ يجبُ أن نتمسَّك بها، ونقرِّبها من قلوبنا، ونقدِّرها حقَّ قدرها، لأنّها الكنز الأثمن لنا .وقد كانت اللحظة التي يعود فيها أطفالي من المدرسة إلى المنزل، من بين اللحظات التي كنتُ أشعرُ فيها بالامتنان العميق.

إنّ قلبي أشبهُ بقلبٍ نابضٍ بالحقيقة يشتاقُ إلى الأبدية، وهو قلبٌ مكسورٌ كالكأسِ التي يكسرُها العريسُ في مراسمِ الزفافِ اليهودي، إحياءً لذكرى دمار الهيكل المقدّس في أورشليم القدس.

أتذكَّر يوم زفافي، حين تعلَّمتُ معنى كسرِ الكأس، وأنّه يُذكِّرنا بأنَّه حتى في لحظات السعادة العظمى، يجبُ علينا ألا ننسى التزاماتنا أمام الله عزَّ وجلّ، وألا نغرقَ في نشوة الفرح إلى حدِّ الغفلة. إنَّه يُذكِّرنا بأنَّنا دائمًا في حاجةٍ إلى رحمة الله، وبأنَّ سعادتنا لن تكتملَ أبدًا، لأن هيكل أورشليم القدس، حيثُ كانت سُكْنَى الله، قد دُمِّر. إنَّه يُذكِّرنا بأنَّ الفرحَ المطلقَ غيرُ ممكنٍ في هذا العالم.

في ذلك الوقت، كنتُ أفهمُ معنى الكأسِ المَكْسُورةِ بصورةٍ مُجرَّدة، لكن بعد مقتلِ قوبي، عشتُ الكأسَ المكسورة حقيقةً وواقعًا. إنَّ اللهَ نفسهُ يبحثُ عن الأوعيةِ المُنكسِرَةِ ليجعلَ منها أداةً لخدمته، كما ورد في مدراش ڤايِكْرا رَبّاه - تفسير سفر اللاويين 7:2، وكما جاء أيضًا في الآية الثالثة من المزمور المئة والسابع والأربعين، من سفر المزامير: "الرَّبُّ يَشْفِي مَكْسُورِي القُلوبِ، وَيَجْبُرُ كَسْرَهُمْ." وفي التراث اليهودي، يُستخدم تعبير "الأوعية المكسورة" أحيانًا كاستعارةٍ للأشخاص الذين مرُّوا بالمِحَن والأحزان، وفَقَدوا شيئًا ثمينًا. لكنّ الله لا يغلق بابه أمام هؤلاء الأشخاص، فهم في نظره ليسوا ضعفاء أو مرفوضين، بل على العكس، هم الأقرب إليه والأقدر على تحقيق الغاية الروحية. فالله لا يختار الأوعية السليمة فقط، بل يُفضِّل تلك التي كُسِرَت ثم أعيد تشكيلها لتصبح أقوى وأكثر نقاءً.

الآن، أدركتُ أنَّه لا بُدَّ أوَّلًا أن يَحدُث الكَسْرُ، ثم يأتي الشفاء، وأنّ الفداءُ لن ينبثقَ إلا من قلب الدمار. ففي التقاليدِ اليهودية، يُقالُ إنَّ المشيحَ وُلِدَ في اليوم الذي دُمِّرَ فيه الهيكل، ويعني ذلك أنّ المشيح يُولد من قلب الألم. ففي هذا العالم، يتجاورُ الألمُ والجمالُ معًا، أمَّا في العالَم الآخر كما أفهمهُ، فإنَّ الألمَ سيزول، ولن نحتاجَ هناك إلى إجاباتٍ عن أسباب معاناتنا، لأنَّنا ببساطةٍ لن نطرحَ أيَّة أسئلة.

في كتاب Made in Heaven (مُقَدَّرٌ في السماء)، وهو كتاب يتناول الحكمة الإلهية الكامنة في الزواج، يُعلِّمنا المؤلِّف آريه كاپلان أنَّ الإنسانَ يشبهُ الكأسَ الزجاجيّة، فهي هشَّةٌ وعُرضةٌ للكسر. لكن حين يتحطّم الزجاج، يُمكنُ إذابته وإعادة تشكيله مرَّةً أخرى، ليعودَ مكتملًا كما كان. وكذلك الإنسان، فحتى بعد موتِهلا تنتهي حياتُهُ تمامًا، بل يُمكنُ أن يُستعادَ ويُعادُ تشكيله، وكذلك هي قلوبُنا أيضًا.

ورغم أنَّني لن أعود أبدًا تلك العروسَ البريئةَ التي كنتُها يومَ زفافي، ورغم أنَّني لن أحضر عرسًا يومًا دون أن يعتصرَ الألمُ قلبي، إلّا أنني أصبحتُ إنسانةً أخرى، أكثر هشاشةً، وأكثر انفتاحًا، وأرجو أن أكونَ أكثر رحمةً.

أدعو اللهَ أن ألتقيَ يومًا بابني في العالَم الآخر، وعندها ستلتئمُ كلُّ الأجزاءِ المكسورةِ من هذا العالم، وسأفهمُ حينها ما قاله الحاخام الحسيدي مناحيم مندل من كوتسك، والذي عاش في القرن التاسع عشر: "لا شيءَ أكثر كمالًا من قلبٍ مُنْكَسِرٍ".

الفَصلُ العِشرونَ

شِمعون بار يُوحاي

في ذلك الوقت، كانت تفاصيل الحياة اليومية العادية تُرهِقُني وتُلقيني في هاوية من الرهبة. فبعد مُضِي نحو أربعةِ أشهرٍ على موتِ قوبي، كنتُ في المسبح، أُبدّلُ ملابسي بعد أن أنهيتُ السباحة. وكان هناك امرأتانِ تتبادلانِ الحديثَ عن ملابسِ بناتِهما، فقالت إحداهما إنّها اشترت لابنتِها تنّورةً من متجر الملابس "پيني" (Penny's) خلال رحلتِها إلى الولاياتِ المتحدةِ في الصّيفِ الماضي، وبأنها دفعت نصف ما كانت ستدفعه لو اشترتها في إسرائيل. أمّا الأخرى، فتحدّثت عن أسعارِ الأحذيةِ في كتالوج " Land's End"، وتساءلتا إن كانت تتوفّر مقاسات نصفية للجِزَم الجلدية، وما إذا كان عليهما شراء جِزَم مُبطّنة بالفرو، أم أن ذلك غير ضروريّ، لأن شتاء إسرائيل ليس شديد البرودة.

آه، كم كرهتُهُما لأنّهما تخوضانِ هذا الحديثِ وأنا في غرفةِ تبديلِ الملابس! كيف يمكنُ لهما الانشغالُ بمثل هذه الأمور بينما أعيشُ في عالمٍ أثقله الموتُ وجعلَني غريبةً عن كلّ ما هو عاديّ؟ لم يكن بإمكاني أن أشاركَهُما اهتمامَهما بالملابس والمقاساتِ والأسعار. لقد جئتُ إلى هنا لأسبح، في محاولةٍ لتحريك الألمَ في داخلي، لأتنفّسَ بسرعةٍ، وأُجهد نفسي بما يكفي حتى لا يظلّ اسمُ قوبي يُدوّي في رأسي كنَقْرِ الصّنج طوالَ نصفِ الساعةِ هذه.

أتذكّرُ الليلةَ الأولى بعد الجنازةِ، حينما جاء بعضُ الناسِ لتعزيتنا خلال أيّامِ الشِّيڤعاه، وبدأوا يتحدّثون عن طبيبهم وعن أسلوبه في معاملة مرضاه، وكم شعرتُ حينها بالاشمئزازِ من حديثِهم عن موضوعٍ لا يتعلّقُ بابني قوبي!

فجأةً، وبينما كنتُ في غرفةِ الخزانات في المسبح، أدركتُ تمامًا ما شعرَ بهِ الحاخامُ شمعون بار يوحاي عندما قضى اثنتي عشرةَ سنةً في الكهف، ثم خرج ليجد نفسه عاجزًا عن تحمّل تفاهات الحياة اليومية. لقد أيقظَتْ هاتانِ المرأتانِ في داخلي غضبًا دفينًا تجاهَ الأشخاص الذين يقضونَ وقتَهُم منشغلينَ بالتفاهاتِ بينما هناكَ آخرون يتألّمونَ، حاملين الحزن كما لو كان وشاحًا من الموتِ يثقلُ أكتافَهم.

في الليلةِ التي سبقت موتَ ابني الحبيبِ قوبي، وكان ذلك في الأسبوع الذي نحتفلُ فيه بعيد لاغ (لَغ) باعومِر، ذهبتُ إلى درسٍ دينيٍّ تعلّمت فيه قصّةَ الحاخام شمعون بار يوحاي. لقد تحدّثتُ في أحد الفصولِ السابقة عن النظامِ العدديّ في اللغة العبرية، حيث يُمنَحُ كلُّ حرفٍ في الأبجديةِ العبريةِ قيمةً عددية. ومن هنا، يعادل مجموع الحرفين العبريّين لامِد (ل) وغيمِل (غ)، اللذَين يُشكّلان كلمة "لغ"، العددَ 33، وهو اليومُ الثالثُ والثلاثونَ من فترة الـ"عومِر" التي تمتدُّ لسبعةِ أسابيعَ بين عيد الفصحِ اليهوديّ وعيد الـ"شّڤوعوت" المعروف أيضًا باسم عيد الأسابيع.

يُقالُ إنّ الحاخام شمعون بار يوحاي خرجَ من الكهفِ في هذا اليوم، كما أنّه مات في مثل هذا التاريخ، ولهذا السبب يُعَدُّ هذا العيدُ مناسبةً لتكريمِه، بالإضافةِ إلى الاحتفاءِ بذكرى طلابِ الحاخام عقيفا، الذين يُقالُ إنّ حالات الوفاة بينهم توقّفت بسببِ انحسار الطاعونِ في هذا التاريخ.

كان الحاخام شمعون بار يوحاي أحدَ طلابِ الحاخام عقيفا، الذي استُشهِدَ على يدِ الرومانِ بعد تعذيبٍ وحشيّ، ومع ذلك لم يتوقّف عن تمجيدِ اللهِ وإعلانِ توحيدِه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. ويُقال إنّ الحاخام شمعون بار يوحاي، في يومِ وفاتِه، كشفَ لطلابه الأسرار الخفية الكامنة في التوراة، وقد أكمل تعليمهم قبل أن تغرب الشمس. ولم يُرِد هذا الرجل العظيم أن يكون يومَ رحيله يومَ حداد، بل أراده يومَ فرحٍ واحتفاءٍ بكل ما علّمه من حِكَمٍ وأسرارٍ مستمدةٍ من التوراة.

ويعتقدُ معظمُ الناسِ أنّ قبرَ الحاخام شمعون بار يوحاي يقعُ في شمالِ إسرائيل، على جبلِ ميرون، حيثُ يجتمعُ آلافُ الأشخاصِ في ليلةِ لاغ باعومِر، ويحتفلونَ بإشعالِ النيرانِ تخليدًا للنورِ الذي جلبَهُ إلى العالمِ بحكمته. لكن هناكَ من يعتقد أنّ قبرَه يقع في الوادي القريبِ من قرية تكواع.

لقد هربَ الحاخام شمعون بار يوحاي وابنُه إليعازر إلى الكهف، ليختبئ من الرومان، الذين أرادوا القبضَ عليه بسبب انتقادهِ للحُكمِ الرومانيّ. وأثناء إقامتِهما في الكهف، كرّسا نفسيهما لدراسة التوراة يوميًا، واكتشاف أسرارَها، مستخرجَين النورَ الإلهيَّ الكامن في كلِّ حرفٍ من الكتاباتِ المقدّسةِ، ويُقالُ إنّ النبيّ إلياهو ظهرَ لهُما هناك وأرشدَهما في رحلتهما الروحية.

ويُعتقدُ على نطاقٍ واسعٍ أنّه في هذا الكهفِ تحديدًا، ألّفَ الحاخام شمعون بار يوحاي كتابَ "الزوهار"، الذي يُعدُّ المصدرَ الأساسيَّ والأعمق للتعاليمِ الصوفيةِ اليهودية. ومع ذلك، هناكَ من يعتقدُ أنّ كتاب "الزوهار" كُتِبَ في وقتٍ لاحقٍ، وأنّ مؤلّفَه الحقيقيّ هو موشيه دي ليون، الذي عاشَ في أواخرِ القرنِ الثالثِ عشر.

على ماذا كانا يعيشان غير كلمات التوراة؟ فرغم أنّ الكهف قد يكون قبرًا، إلّا أنّه قد يكون أيضًا رحمًا، وبالنسبة لهذين الرجلين، الأب وابنه، كان رحمًا يمنحهما الغذاء: فقد نبتت شجرة خروبٍ بجوار الكهف تمدّهما بالطعام، وتدفّق نبع ماءٍ ليمنحهما الشراب. وقد كانا يخلعانِ ملابسهما للحفاظ عليها، ولا يرتديانها إلا للصلاةِ وفي يوم الشّبات. وخلال النهار، كانا يغطّيان جسديهما بالرمل حتى لا يكونا عاريين، فيحافظا بذلك على قدسية تعلّمهما. لقد دفنا نفسيهما حرفيًا في حياةٍ من القداسةِ والتفرغِ الكاملِ للروحانية.

وبعد اثنتي عشرة سنة، جاء النبي إلياهو إلى مدخل الكهف ليخبر الحاخام شمعون بار يوحاي بأنّ الإمبراطور الروماني قد مات، وأنّ المرسوم الصادر بإعدامِه هو وابنه قد أُلغِي، وبات بإمكانهما الخروجُ من عزلتهما.

لكن حين خرج الحاخام شمعون بار يوحاي، رأى أنّ العالم لم يتغير، فالناس يحرثون الحقول، والحياة تسيرُ كما كانت، وكأنّ شيئًا لم يحدث، فحدّق إليهم بنظرةٍ حادة، وكان وهجُ عينَيهِ قويًا لدرجةِ أنّه أحرق كلّ ما وقعَ عليه بصرُه محوّلًا إياه إلى رماد. عندها، سمع الحاخام شمعون وابنه صوتًا سماويًّا يقول: "هل خرجتَ من الكهفِ لتدمّر عالمي؟ عُد إلى كهفك!" وهكذا، عاد الحاخام شمعون وابنه إلى الكهفِ لسنةٍ أخرى.

ومع مرور الأيام، خرج الرجلانِ من جديد من الكهف في أحد أيام الجمعة، وبينما كانا يسيران، شاهدا رجلاً عجوزًا يجري مسرعًا، وهو يحمل حزمتين من أغصان الآس الطازجة، فسألاه: "لماذا تحملُ هاتين الحزمتين؟" فأجاب العجوز: "لأجل تكريم يوم السّبات وتذكّره."

هذه المرة، استطاع الحاخام شمعون وابنه أن ينظرا إلى العالم بعينٍ جديدة، فقد أدركا أنّ وصايا الله لا تزال عزيزةً على بني إسرائيل، وأنّ القداسة تسكنُ هذا العالم رغم كل شيء.

يُشبّه الكاتب الشهير إيلي فيزيل، الناجي من المحرقة النازية، خروجَ الحاخام شمعون بار يوحاي من الكهف بخروج الناجين من معسكرات الاعتقال بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. فحين عاد هؤلاء الناجون إلى الحياة، واجهوا سؤالًا مريرًا: ماذا يفعلون بغضبهم؟ وبألمهم؟ وبيأسهم؟ كيف يتعاملون مع ذكرياتهم بعد أن كانوا أمواتًا في أجسادٍ بقيت تتنفس داخل تلك المعسكرات، وبعد أن ذُبحت عائلاتهم ودُمّرت مجتمعاتهم؟ ومثلما حدث مع الحاخام شمعون بار يوحاي، كان بإمكانهم أن يستسلموا لغضبهم، وأن يردّوا على ما عانوه بتدمير ما حولهم. فقد كان بإمكانهم أن يقتلوا، أو أن يغرقوا في الإدمان، أو أن ينهبوا، أو أن يحرقوا كل ما حولهم، لكنهم اختاروا طريقًا آخر، إذ رفض أغلبهم الاستسلام لليأس. لقد كان كثيرٌ منهم يبكون في الليل حتى يغلبهم النوم، لكنهم مع ذلك نهضوا في الصباح، وأعادوا بناء حياتهم من جديد.

وأنا كذلك... لن أستسلمُ للغضب أو اليأس.

غالبًا ما يسألني الصحفيون: "ألا تشعرين بالغضب؟" فأجيبهم قائلةً: بالطبع، لكن هذا ليس ما أُكرّس طاقتي له، وليس ما يدفعني للاستيقاظ كل صباح. فبالنسبة لي، القتلة مجرد أدوات مبرمجة للشر، بلا إنسانية، وبلا رحمة، وبلا أي بقايا من الضمير. فحياتهم هي لعنتهم الخاصة. طبعًا، أتمنى أن يتم القبض عليهم، ولستُ ضد أن تُنفّذ الدولةُ فيهم حكمَ الإعدام، لكنني أؤمن بأن من بلغ هذا الحد من الكراهية والوحشية قد مات بالفعل. تمامًا كما يقول التلمود: الأشرار ميتون حتى وهم أحياء، والصالحون أحياء حتى بعد موتهم.

أفضل طريقة لتكريم ابني الحبيب قوبي ليست عبر الكراهية، بل في إبقاء روحه حية. إذا استسلمتُ للغضب والكراهية، فسأصبح واحدةً من الكارهين، ككائنٍ طفيليٍّ يتغذّى على الخوف والحقد. وإذا عشتُ فقط من أجل الانتقام، فهذا يعني أن القتلة قد انتصروا... لأنهم دمروني. لكنني لن أدع الكراهية تمزّق ما يربطني بهذا العالم، أو تحرق عائلتي، أو تحوّلني إلى رماد.

من اليمين إلى اليسار: قوبي، وشقيقته إليعانه وشقيقه دانيئيل

الفَصلُ الحادِي والعِشرونَ

الذَّنبُ

يُنظَر إلى الأمِّ التي فقدتْ طفلَها على أنّها أمٌّ سيئة، وكأنها قد أخطأت في أداء رسالتها. ولذلك، فأنا أمٌّ مذنبة، أمٌّ فاشلة، أمٌّ أضاعت أهمّ من كان عليها أن تحميَه وتحتضنه.

يُثقِلُ الألمُ بقسوة على الروح، لكن الذنبَ أشدُّ ضراوة، فلا يهدأ ولا يرحم. ورغم أنّ الإنسان يُمكِن أن يتعافى من الألم، إلّا أنّ الذنب ينهش الروح كلَّ يومٍ كما يفعل الحمض حين يذيب ما يلامسه. وقد قالت لي ريناه، والدة يوسف، ألا أشعر بالذنب، لأنني لستُ مسؤولة عن مقتل ابني. وأضافت :"الأمُّ تشبهُ سائقَ الحافلة، لا شيء يحدث بدونها، لكنها في الوقت نفسه لا ترى ما يجري خلفها".

لكنني كنتُ أراقبُ ما في الخلف وأنا "أقود" حافلة يركبها أطفالي في طرقات الحياة، كنتُ أنظرُ في المرآةِ، معتقدةً أنني أرى كلَّ شيء، وأنه ليس لديّ نقاطٌ عمياء لا أعي وجودها. كنتُ أتوقّفُ لأتفقد أطفالي، وكنتُ أعرفُ دائمًا أين هم، وكنتُ أتحدث إليهم كلَّ يوم، محاولةً أن أنفذَ إلى أعماق أرواحهم. ولم أكن أعملُ إلا لساعاتٍ قليلة في اليوم، حتى أكونَ معهم في البيت، وأبقى إلى جانبهم. وكنتُ أحاولُ أن أخصّصَ لكلّ واحدٍ منهم وقتًا خاصًا، ومع ذلك، تلقيتُ الضربة القاصمة، فأصبحتُ... "الأم السيئة."

في اليوم الذي كتبتُ فيه هذا الفصل، كنتُ في قلب أورشليم القدس ورأيتُ رجلاً عجوزًا يقودُ درّاجته في زقاقٍ ضيق وكان أمامه شاحنةٌ كبيرة تسدُّ الطريق، فمدَّ يدهُ إليها ودفعها، كأنّه يظنُّ أنّ بإمكانهِ إزاحتَها عن طريقهِ بهذه البساطة. وعندها أدركتُ أن الذنب يشبه تلك الشاحنة تمامًا. آهٍ، كم كنتُ أتمنى أن أزيحَه بعيدًا عن طريقي بلمسةٍ واحدةٍ فقط! لكنّه ما زال هناك... ينتظرني. إنّه ينتظرُ أن أواجهَه وإن لم أفعل، فسيظلُّ يسدُّ طريقي معيقًا تقدّمي ومانعًا إيّاي من المضيّ قُدمًا.

كلُّ أمٍّ تعرفُ شعورَ الذنبِ، ذلك الإحساسَ اللاذع، عندما تخشى أنها لم تكن أمًّا جيدةً بما يكفي. لكن كما قالت لي صديقتي شولاميت: "هناك الكثيرُ من الأمّهات السيئات، ومع ذلك... لم يفقدن أطفالهن، أليس كذلك؟"

إنّ الذنبُ جشِع ومتوحش، ويريدُ أن يلتهمني حيّةً، فهو يبتلعُ كلَّ ما يمرُّ في طريقه، كما يفعل "Thing 1" و"Thing 2 ("الشيء 1" و"الشيء 2") في كتاب The Cat in the Hat (القط ذو القبعة)، اللذَين يستوليان على كلّ شيءٍ لأنفسِهما. ولطالما كرهتُهما حتى وأنا طفلة! إذ أكرهُ الفوضى، وكلَّ ما يحاولُ أن يبتلعَنا أحياءً ،وكلّ مايجرفُنا معه ليسحقَنا.

لم يمنحني الذنبُ راحة، غمرني بأفكارٍ لا تهدأ: لماذا جئتُ إلى هنا، إلى تكواع؟ لماذا لم آخذ معي ابني قوبي عندما ذهبتُ إلى أورشليم القدس ذلك اليوم؟ لماذا لم أتحدثْ معه في الليلة التي سبقت الحادثة؟ لقد تحدثتُ إليه في خيالي بعد مقتله، فسألته: "كنتَ معي في آخر ليلةٍ من حياتك، عندما أردتَ الحديث معي، فهل كنتَ، يا حبيب قلبي وفلذة كبدي، ستخبرني بنيَّتِكَ الذهابَ إلى الوادي؟ هل كان بإمكاني أن أثنيَكَ عن ذلك؟ لماذا لم أعرف أنك كنتَ تتغيّبُ عن المدرسة؟ ولماذا أنا مَن يجب أن يتحمل العذاب؟ ما هو الخطأ الذي ارتكبتُه؟"

حين تحدثتُ إلى الحاخام الدكتور أبراهام تْوِيرْسْكي، وهو طبيبٌ نفسيٌّ ومستشارٌ يساعد الناسَ الذين يعانون من أنواعٍ مختلفةٍ من الإدمان، قال لي: "بإمكانكِ أن تنجي من ألم فقدانه، لكن الذنب... الذنب هو ما سيقتلكِ".

إنّي أشعرُ بالذنبِ لأنني جلبتُه إلى هنا، إلى مكانٍ لم يكن آمنًا... وهذا الذنبُ قد يقتلني إن لم أحاربه. لقد كنتُ أخشى المخاطرَ على الطرق المؤدية إلى منزلنا، ولهذا كنتُ أحرصُ على أن يستقلَّ الحافلةَ المصفحةَ ضدَّ الرصاص. وكنتُ كثيرًا ما أثنيه عن الذهاب إلى المجمع التجاري في أورشليم القدس خوفًا عليه من هجومٍ إرهابي، لكنني لم أتخيل أبدًا أن يكون الخطرُ أقربَ مما أتصور. فلم يسبق لأحدٍ أن تعرّض للأذى في الوادي أو في قريتنا تكواع، حيث كنتُ أشعرُ بالأمان. لكن اللهَ عزّ وجلّ أكثرُ إبداعًا ممّا نتصور، فما نقلقُ بشأنه نادرًا ما يكون هو ما ينبغي علينا القلقُ منه حقًا. إنّ اللهُ عزّ وجلّ لا يُكرّرُ نفسَ الأنماط، بل يخلقُ كلَّ شيءٍ بطريقةٍ فريدة.

لقد جئنا إلى هذا المكانِ محمّلين بالأمل، والآن علينا أن نحيا مع ألم اختيارِنا.

في إحدى المرّات، استمعتُ أنا وزوجي إلى تقريرٍ على الراديو عن رجلٍ أنهى حياتَهُ خلال عيد سمحات توراه، في اليوم ذاته الذي قُتلت فيه ابنته قبل ستة عشر عامًا. ورغم أنّ سنواتٍ طويلةٍ مرّت على مأساتها، إلّا أنّهم لا يزالون يربطون سبب انتحاره بموتها، لأنه كان مقتنعًا بأنه كان بإمكانه إنقاذها.

إننا نحن، الآباء، من نأتي بأطفالنا إلى هذه الدنيا، ومن واجبنا إذن أن نحميهم، ولهذا من الطبيعي أن يشعرَ كلُّ والدٍ فقدَ طفلَهُ بالذنب. ودائمًا ما يشعر الوالدُ أنّه كان بإمكانه أن يفعل شيئًا ليُنقِذ طفلَه، بغضّ النظر عن طريقة وفاته، سواءً كانت بسبب السرطان، أو الفشل الكلوي، أو الغرق، أو الحريق.

لقد قال لي زوجي سيث بأننا لو قدّمنا إطارًا أكثر استقرارًا لابننا قوبي، لما كان ميتًا الآن. وما كان يقصدُهُ أنّنا لو كنا قد حددنا مثلًا موعدًا ثابتًا للعشاء في السادسة مساءً كل يوم، أو لو كنا نجلسُ معه أثناء قيامهِ بواجباته المدرسية... ربما... ربما... ربما...لكن هذه الـ"ربما" هي ما يقتلك حقًا.

قال لي الحاخام الدكتور أبراهام تْوِيرْسْكي، إن المعاناة تشبه نمو جراد البحر ،فحين يضيق عليه صدفه، يضطر إلى التخلص منه ليواصل نموه. وهكذا نحن أيضًا، تدفعنا المعاناة إلى تجاوز حدودنا القديمة والنمو من جديد، رغمًا عنّا. وكذلك أنا... أنمو رغمًا عني، حتى وإن كنتُ أقاوم ذلك.

لقد أخبرتني ريناه، والدة يوسف إشران، عن حلمٍ رأته، والذي كان عزاءً لي، إذ جعلني أُدرك أنّه لم يكن بمقدوري أبدًا أن أمنعَ موت ابني. كانت ريناه تؤمنُ بقوة الأحلام، فقد سبق لها أن رأت رؤيا عن

جدّها قبل زواجها بسنوات، فرأته يحملُ سلةً كبيرةً من الفاكهة والخضروات على كتفه، جلبها حتى يتمكنوا من تلاوة الحمد والشكر لله على كلِّ ثمرةٍ منها. وحين أخبرت أمها عن الحلم، قالت لها: "حبيبتي ريناه، هذه إشارةٌ إلى أنكِ ستتزوجين قريبًا لأنَّ جدَّكِ، رحمه الله، كان يُقدّمُ لكِ هذه الهدايا تجهيزًا لحدثٍ كبيرٍ في حياتكِ، وكانت تلك الفاكهةُ والخضرواتُ رمزًا للخصوبة". وبالفعل، لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى التقت بزوجها.

قبل شهرٍ واحدٍ فقط من مقتل قوبي ويوسف، رأت ريناه حلمًا آخر. فقد رأت نفسها برفقة جدّها وهما يسيران في الوادي على طريقٍ وعر، تتناثرُ فيه الصخور، حتى وصلا إلى كهفٍ مظلم، فأشار إليه جدّها، الذي كان متدينًا في حياته، وقال: "هذا بيتٌ سيّئ... بيتٌ سيّئ!" وأخذ يُلوّحُ بيدهِ بلا توقف، وكأنّه يشير بكلّ جسده، ويصرخ: "غادري هذا المكان! اخرجي من هنا!" وقد أدركتُ أنا أنه الكهفُ الذي قُتل فيه ولدانا.

في ذلك الوقت، كانت ريناه وعائلتها يُحضّرون للانتقال من مقطورتهم المؤقتة التي تطلّ على الوادي، إلى منزل جديد وجميلٍ في قريتنا تكواع صمّمته بنفسها وأشرفت على بنائه خطوةً بخطوة.

وفي اليوم الذي سبق مقتل ابنها يوسف، كانت تشتري الطلاء الأزرق الذي اختاره بنفسه لجدران غرفته. وقد اعتقدتْ حينها أن حلمها كان يتعلق بالانتقال من المقطورة إلى البيت الجديد، لكنه كان رؤيا تحذيرية، أي رسالةً غامضة حملت في طياتها نبوءةً لم تفهمها في وقتها. كان جدُّها رجلًا صالحًا وتقيًا، وكان اسمه خير دليلٍ على ذلك، فاسمُ عائلته هو 'قادوشي'، ويعني القداسة. لقد أرسل إليها رسالة ليحذّرها ويُهيّئها للصّدمة القادمة. لكن الرسالة بقيت مبهمة، ولم أفهم معناها بالكامل إلا بعد حين، عندما أدركتُ أن لدى الله عزّ وجلّ خطة، لكننا لا نراها إلا بعد أن تتحقق، وهذا هو جوهر الأمر بكل بساطة. وعندما نعود بذاكرتنا إلى الوراء، يصبح معنى الحلم واضحًا، لكن ريناه لم يكن بوسعها أن تدرك ذلك قبل وقوع المأساة، تمامًا كما لم يستطع النبي والرسول موسى رؤية الله إلا من جانبه الخلفي ولقد رأى أثر الله فقط بعد أن مضى، ونحن كذلك لا ندرك بصمة الله في حياتنا إلا عندما تبدأ بالابتعاد عنا. فنحن لسنا ممن يحيطون بكلّ شيءٍ علمًا كما قد نعتقد، ولن نكون كذلك مهما حاولنا. وإنّ الاعتراف بأننا لا نملك السيطرة على الأمور... هو من أصعب الحقائق التي علينا أن نواجهها.

يا الله، امنحني القوةَ والحكمةَ لأدرك أنَّ الأمر لم يكن خطأي، ولأفهم أنني، لسببٍ ما، كان عليّ أن آتي إلى هنا. فلقد جُذِبنا إلى تكواع، وتضافرت جميع الظروف لتقودنا إلى هذا المكان.

في الفترة التي سبقت قيامنا بـ"عاليَة" – وهي كلمةٌ عبرية تعني حرفيًّا "الصعود" أو "الانتقال إلى الأعلى"، في إشارةٍ إلى الصعود نحو أرض إسرائيل – وكان ذلك بعد اتفاقية أوسلو، قال لي زوجي سيث: "ربما الآن، لن يضطرَّ الأولاد إلى الالتحاق بالجيش".

لقد كنّا نظنُّ حينها أننا سنكون بأمان في إسرائيل. وعندما لم نجد أيَّ بيتٍ أو شقةٍ للإيجار في بلدة إفرات، انتقلنا إلى قرية تكواع التي كانت البيوت فيها تُبنى، وحاولنا شراء منزل. لقد كنتُ أعتقد أنني سأتمكّن أخيرًا من أن أوفّر لأطفالي بيتًا في إسرائيل، بيتًا يشعرون فيه أننا نرعاهم كما يجب. وكنتُ أظنُّ

أنني سأكون أمًّا جيدةً حين أحضرتهم إلى هنا، إلى مجتمعٍ صغيرٍ مترابطٍ، حيث سيساعدهم الأصدقاء على أن يصبحوا إسرائيليين.

لكن الذنب يأتي كالموج، يرتفع ثم ينحسر، ولكي أحاربه عليّ أن أدرك أنني حتى لو كنتُ أفضل أمٍّ في العالم، وأقلَّ الأمهات أنانيةً، وأكثرهنَّ تنظيمًا وعطاءً، وأحكمهنَّ وأبعدهنَّ عن حبِّ الذات، وأكثرهنَّ انتباهًا لأطفالها، لم يكن بوسعي منع هذه المأساة. وحتى لو كنتُ قد أبقيتُ قوبي في الولايات المتحدة، فربما كان سيموت بطريقةٍ أخرى... ربما لم يكن ليموت في تكواع، وربما لم يكن ليموت أبدًا، لكنني أؤمن أن الله عزّ وجلّ، إن كان هو من يدبّر العالم، قد نادانا للمجيء إلى هنا.

أعلم أنني لم أقتل ابني، وأنّ الإرهابيون هم من قتلوه، ويجب عليّ أن أتمسّك بهذه الحقيقة، حتى لا يقتلني الذنبُ كلَّ يوم.

القِسمُ الثّاني: عُشُّ العُصْفُورِ

الفصلُ الثاني والعِشرونَ

الأَمَلُ

قلبي أشبه بخزينةٍ تم اقتحامها، بابها يتأرجح على مفصلاته، يكاد ينخلع. ولم تعد هناك خزينة، بل فوضى وألم وكنزان مسلوبان: وهما ابني الحبيب وكنز الأمان. إنّ العالم في نظري ينقسم إلى قسمين ، أولئك الذين فقدوا أحباءهم، وأولئك الذين لم يفقدوهم بعد، أو بمعنى آخر: من انكسرت قلوبهم، ومن لم تنكسر بعد. وإنّ منكسري القلوب يشبهون من اقتُحمت خزائنهم. والآن، يعيش الناس في الولايات المتحدة في ظل انعدام الأمان، ويشبهون شخصًا يسكن تحت سكة قطار الأنفاق، يحاول النوم وهو يعلم أنه كلما وجد لحظة صمت، يقترب قطار مسرعًا، زائرًا داخل المحطة.

لكن، مع مرور الأيام، أحاول أن ألملم نفسي، وأعيد ترميم أجزائي المحطمة. وفي هذا الصدد، تقول راشيل نعومي ريمن، الطبيبة والكاتبة المعروفة بعملها في الطب التكاملي وبمؤلفاتها مثل "حكمة مائدة المطبخ"، إن لكل منا طريقته الخاصة في الشفاء؛ فبعض الناس يشفون لأن لديهم عملًا عليهم إنجازه، بينما يشفى آخرون لأنهم تحرروا من أعباء العمل. ويحتاج البعض إلى الموسيقى، بعكس آخرين يجدون الشفاء في الصمت. أما أنا، فأحتاج إلى الكلمات والصور، وإلى وقتٍ لأكون مع ألمي. كأنني أكتب طريقي للخروج من الثقب الأسود الذي يسكنه اليأس والألم والغضب، ومن خلال هذه الكلمات أشفى. فالكلمات هي خريطتي وطريقي، لكن لا أستطيع دائمًا الإصغاء إليها، وفي الواقع، في كثير من الأحيان، أرغب في الاختباء في الكهف مع ابني تحت الأرض.

لكي أشفى، أحتاج أن يكون زوجي بجانبي، وفي الليلة التي بدأتُ أكتب فيها هذه الكلمات، كان في طريقه من إسرائيل إلى فلوريدا لإلقاء خطاب هناك، ولم أكن أعرف كيف سأتمكن من القيام بالأعمال المعتادة بدونه. إنه يحمل الألم معي، وحين يكون بجانبي يصبح ثقله أقل وطأة. ونحن نتعامل مع الحزن بطرق مختلفة؛ فهو انطلق إلى العالم ليروي قصتنا، وأسّس مؤسسةً تخليدًا لذكرى قوبي، وهكذا يحوّل ألمه إلى عمل. ورغم أنّ كلًّا منّا يستطيع تقبّل طريقة الآخر ،إلّا أنّ إيجاد لغة مشتركة بين الرجال والنساء للحديث عن ألمهم غالبًا ما يكون صعبًا. وأحيانًا، يعجز أحدهما عن مساعدة الآخر، وهو ما عبّر عنه الشاعر الأمريكي روبرت فروست الذي فقد ابنه البكر، في قصيدته "Home Burial" (دفن في المنزل)، التي تُصوِّرُ بعمقٍ انعدام التواصل بين الزوج والزوجة بعد وفاة طفلهما.

في القصيدة، تُبدي الزوجة غضبها من زوجها الذي انهمك بحماسةٍ في حفر قبر طفلهما، ثم عاد إلى البيت، والغبار والتراب لا يزالان عالقين في حذائه، ليخوض بعدها حديثًا عابرًا عن أن الأمطار يُمكِن

أن تـفسد سياجًا من أشجار البتولا. ثمّ يتوسل إليها قائلًا: "اسمحي لي أن أدخل إلى حزنك"، لكنها تظل بعيدة عنه، ويظلّ كلٌ منهما في عزلته، عاجزًا عن مشاركة الآخر ألمه. ثم تلتفت الزوجة إليه وتصرخ:

"أنت لا تفهم معاناتي لأنك لا تعرف كيف تتحدث! لو كان لديك قلب، لما حفرتَ أنتَ القبر بيديك! كيف استطعت ذلك؟ قبر ابننا الصغير! لقد رأيتك من تلك النافذة هناك، رأيت الحصى يقفز في الهواء، يقفز ويعلو ثم يهبط بخفّة، ثم يتدحرج عائدًا إلى أسفل الكومة بجوار الحفرة. وقلت في نفسي: من هذا الرجل؟! لم أعد أعرفك!"

أحمد الله على أنني وزوجي سيث قادران على أن نكون سندًا لبعضنا البعض، حتى ونحن نواجه أحزاننا بطرق مختلفة. ولعلّ الفضل في هذه القدرة على التساند، رغم الاختلاف بيننا في التعامل مع الحزن، يعود إلى الدعم الكبير الذي أتلقاه من صديقاتي، اللواتي يساعدنني على احتمال الحزن. وقد أصبحتُ أُفضِّل البقاء في المنزل؛ فأكتب، وأبكي، وأعيش دور الزوجة والأم. وحتى الأعمال المنزلية البسيطة التي كنت أزدريها، كطيّ الملابس وكنس الأرض، صارت وسيلتي للارتباط بالعالم، إذ تُشعرني بأنني ما زلتُ موجودة فيه.

لقد أصبح الخروج من المنزل تحديًا بحد ذاته. وأتذكر أنني كنت في أورشليم القدس بعد شهر واحد فقط من مقتل ابني الحبيب قوبي، برفقة ابني الآخر دانيئيل، لشراء حذاء له. فجأة، غمرتني موجة من الحزن، فبدأت أبكي وأنا أحدّق إلى واجهة المتجر. فنظر إليّ دانيئيل بقلق ونفاد صبر، وفي تلك اللحظة، خطرت لي فكرة تُمكّنني من البكاء دون أن أثير خوفه أو أزيد من حزنه. فناولته ساعتي وقلت له: "خذ، حبيبي، واحسب لي دقيقة واحدة فقط لأبكي". فقام بتوقيتها، لكنني لم أحتج سوى اثنتين وعشرين ثانية. ومنذ ذلك اليوم، كلما شعرت برغبة في البكاء، كنت أعطي أطفالي ساعتي، حتى صار الأمر أشبه بلعبة بيننا. "أعطني دقيقة واحدة"، كنت أقول لأحدهم، لكنني غالبًا ما كنت أبكي لمدّة لا تتجاوز عشرين ثانية. وهكذا، رأوا بأعينهم أن الألم مساحة يمكن عبورها دون أن تدمّرهم، وأن البكاء والحزن أمران طبيعيان. لقد جعلني تقبّلي لحزني لا أخشاه، وجعل أطفالي وزوجي أيضًا لا يخافونه.

أحيانًا، يكون الألم أشبه بالذعر، وبالخوف، وبالجنون، لكنه حين يُقبَل، حين يُعطى مساحة للحياة، يصبح قابلًا للاحتمال دون أن يحطمنا. وحينها، تبدأ رحلة الشفاء، وخياطة الحياة من جديد، غرزةً تلو غرزة.

الفصل الثالثُ والعِشرون

قِصَصٌ عَنِ الطُّيُورِ

تهدَّمَ عُشِّي، وكان عليَّ أن أبنيَ عُشًّا جَدِيدًا، وأبتكرَ طريقةً جديدةً لحمايةِ أطفالي. في تلك الفترةِ، أصبحتِ الطيورُ وأعشاشُها رُموزًا للشفاءِ في حياتي. وخلالَ أيَّامِ العزاء السَّبعةِ، الـ"شيڤْعاه"، قالت لي صديقتي: "أنتِ كطائرٍ جناحُهُ مكسورٌ، يرقدُ على الأرضِ، ضعيفًا لا يقوى على الحركةِ." والآن ،وأنا أكتبُ هذه الكلماتِ، أشعرُ كأنَّني طائرٌ جاءَ من أرضٍ بعيدةٍ وهاجرَ إلى أرضٍ قصية، ورغم أنني أستطيع العودة ، إلا أنني سأبقى في إسرائيلَ، في هذه الأرضِ التي سأحيا فيها مع الفقدِ.

كانت الطيورُ مُعلِّماتي، أرَتْني كيفَ أبنيَ عُشًّا، عودًا تلوَ الآخرِ، حتى وإنْ أثقلَتْني المشقَّةُ. لقد علَّمَتْني الطيورُ الجميلةُ الحكيمةُ أنَّني يُمكنني أنْ أواصلَ التحليقَ، وأنْ أساعدَ عائلتي على النهوضِ والتحليقِ معي، حتى وإنْ أحسسنا بأنَّنا مُحاصَرونَ، وحتى وإنْ شعرتُ أنَّني كالحَمامةِ التي أطلقَها نوحٌ من الفُلكِ لتستكشفَ إنْ كان المطرُ قد انحسرَ، أو إنْ كانت الأرضُ لا تزالُ مغمورةً بالماءِ، ويمكنني أن أواصل التحليق حتى ولو لم يكن هناك مكانٌ لي أهبطُ عليه.

في صباحِ أحدِ الأيام، زرتُ صديقتي شُولَاه، وهي أرملةٌ. وكان زوجُها قد خدمَ في الجيشين الأمريكيِّ والإسرائيليِّ، وقد ماتَ قبل مقتلِ ابني قوبي بعامٍ واحدٍ. ورغم معاناته من السَّرطانِ، إلّا أنّه تُوفِّي فجأةً بسببِ فشلٍ في القلبِ. وقد تحدَّثنا معًا لمدّةٍ من الوقت، وعندما غادرتُ منزلَها، سمعتُ زقزقةَ الطيورِ، فخاطبتُ نفسي: "يجبُ أنْ أخرجَ للمشي وأُصغيَ لصوتِ الطيورِ. فأنا بحاجةٍ إلى صوتِها، إلى هذا الصدَى الشافي الذي يُصبحُ نسيجًا، وشيئًا ملموسًا". وبينما كنتُ أسيرُ، تذكَّرتُ ثلاثَ قصصٍ عن الطيورِ كانتْ مُرتبطةً بحياةِ قوبي ،وساعدتني في أنْ أشعر بالارتباط معه.

القصةُ الأولى عن الطيورِ:

أرادَ أطفالي أنْ أَجلبَ لهم طائرًا ليربُّوهُ، لكنَّ الفكرةَ لم ترُقْ لي. فقد كنتُ أشعرُ بالنُّفورِ من تلكَ السَّاقينِ النحيلتَيْنِ، ومن المخالبِ المُقوَّسةِ، والمنقارِ الحادِّ. كانتِ الطيورُ في نظري تنتمي إلى الفضاءِ الواسعِ، ويجب أن تُحلِّقُ بحريةٍ في السَّماءِ، لا أنْ تُحبسَ في قفصٍ داخلَ المنزلِ. ولكنّ أطفالي أصرُّوا، وقد كان لدى زوجي معرفةٌ بتربيةِ الطيورِ لأنَّهُ امتلكَ واحدًا في صغرِهِ. وذاتَ يومٍ، مررنا بمحلٍّ لبيعِ النَّباتاتِ وكان صاحبُهُ يبيعُ الطيورَ أيضًا، إذ كان يُربِّيها بنفسهِ ويُطعمُها بيديهِ. وكان هناكَ قفصٌ كبيرٌ خارجَ المحلِّ مُقسَّمٌ إلى أقسامٍ، ويضمُّ أنواعًا مختلفةً من الطيورِ المُلوَّنةِ: ببغاواتٍ، وطيور كناري، ومَكاو، وكوكاتيل. أشارَ ابني دانيئيل إلى كوكاتيل أصفرَ ببقعٍ برتقاليةٍ على وجهه، لكنَّ صاحبَ المحلِّ أخبرنا أنَّه محجوزٌ لشخصٍ آخرَ، وأنّه كان يُربِّي طائرًا مِثلهُ في منزلِه، وإنِ انتظرنا بضعةَ أشهرٍ فسنحصلُ عليهِ.

وفي كلِّ مرةٍ كنا نعودُ لزيارةِ المحلِّ والاطمئنانِ على طائرِنا، كان الرجلُ يُقدِّمُ لأطفالي قطعةَ شوكولاتةٍ أو بالونًا. كان ذا ابتسامةٍ جميلةٍ، وشعرٍ أسودَ مُجعَّدٍ، وبشرةٍ سمراءَ زادتْ ملامحَهُ دفئًا، وكان دائمًا يجعلُنا نشعرُ بالتميُّزِ. وقد كنا نستمتعُ بالحديثِ معهُ عن طائرِنا، حتى اتَّصلَ بنا ذات يومٍ ليُخبرنا أنَّ الطائرَ أصبحَ جاهزًا، فانطلقنا بحماسٍ لاصطحابهِ إلى المنزلِ.

حالما أدخلنا الكوكاتيل إلى البيتِ، حاولَ الأطفالُ وضعَهُ على يدي، فصرختُ: "أبعدوهُ عني!" لأنني لم أكن مُهتمَّةً بذلكَ الطائرِ، الذي أطلق أطفالي عليهِ اسمَ "جونيور".

شيئًا فشيئًا، وبعد أن استغرقَ الأمرُ وقتًا طويلًا، بدأتُ أشعرُ بأُلفةٍ تجاههُ. أوَّلًا، لأنَّهُ كان طائرًا جميلًا، برأسٍ وبطنٍ يزدانانِ بلمساتٍ من الأصفرِ والبُرتقالي. وثانيًا، لأنَّهُ كان رقيقًا وودودًا. ثمَّ بدأ يتحوَّلُ إلى صديقٍ لي، وحين كنتُ أعملُ في المنزلِ خلالَ النهارِ، كان بحكمةٍ يجثمُ على قضبانٍ أسفلَ كرسيِّ مكتبي، حيث يكونُ في مأمنٍ من أنْ أركلَهُ دونَ قصدٍ. وعندما كنتُ أقرأُ، كان يجلسُ في حجري، ويرفعُ رأسَهُ ليطلبَ مني أنْ أُداعبَهُ تحتَ منقارِه. وكنّا نتركه طليقًا، فكان يُحلّقُ داخلَ المنزلِ، ويَحطُّ على رفوفِ الكتبِ أو خزانة البوفيه، وبحلول ذلك الوقت، كان قد أصبحَ بالفعلِ فردًا من العائلةِ.

لكنَّني كنتُ قلقةً بسبب سماحنا له بالطيرانِ داخلَ المنزلِ، خشيةَ أنْ يُحلّقَ خارجه إذا تُرِكَ أحدُ الأبوابِ مفتوحًا. لذلك، طلبتُ من زوجي قصَّ ريش جونيور حتى لا يتمكَّنَ من الهرب، وهي طريقة شائعة لدى مُرَبِّي الطيور تتمّ دون إيذاء الطائر. غير أنَّ مخاوفي تحقَّقت في اليوم التالي، إذْ فتحَ ابني غاڤي، الذي كان في الثالثةِ من عمرِه، وصديقُهُ، بابَ القفصِ وتركاهُ مفتوحًا، إضافةً إلى بابِ المنزلِ الأمامي. وكما هو متوقَّع، طارَ جونيور إلى الخارجِ.

طلبتُ من الأطفالِ أن يبحثوا عنه في الساحة الخارجية، بينما خرجتُ أفتش عنه في الشارع. كنتُ أبحثُ عن بُقعِهِ الصفراءِ والبُرتقاليةِ، وأرهفُ السمعَ علّني ألتقط صوتَهُ، لكن سرعان ما أدركتُ كم كان حيُّنا يعجُّ بالطيور. فقد كان تغريدها ينبعث من كلِّ شجرةٍ وعمودٍ وشجيرةٍ، فاختلطت الأصوات عليّ وضاعت وسطها أيُّ إشارة تدلني عليه. ولم أعرف ماذا أفعل، إذ شعرتُ بأنني غارقةٌ وسط كلِّ تلك الطيورِ، وزقزقتها التي تملأ الأشجارَ، فأحسستُ بعجزٍ تامٍّ، فقد كان يمكن أن يكون في أيِّ مكان!

كان الأطفالُ الأكبرُ سِنًّا لا يزالون في المدرسة، ولم يكن معي سوى طفلين في الثالثة من عمرهما. ثم خرج عاملٌ فلسطينيٌّ كان يعملُ على طلاءِ المنزلِ المجاورِ، وقد لطَّختْ ملابسَهُ بُقَعُ الطلاءِ الأبيضِ. وكان ذلكَ في عامِ 1999، قبل انتفاضةِ الأقصى، عندما كنَّا نؤمنُ بأنَّ السلامَ يلوحُ في الأفقِ.

سألني وهو ينظر إليَّ باهتمام: "هل تبحثين عن طائر؟" فأومأتُ برأسي موافقةً.

عندها أشار بيده إلى الأمام، وقال: "رأيتُه يطير في هذا الاتجاه". ثم أضاف وهو يصغي إلى الأصوات من حوله: "سمعتُه قبل قليل، تعالي وسأُريكِ".

تبعته عبر السَّاحات الخلفيَّة لمنازل الجيران، وهو يُطلق صفيرًا محاولًا مناداة الطائر، بينما كنا نبحثُ في كلِّ شجرةٍ، ونتفحَّص كلَّ شرفةٍ، ونُدقق في كلِّ سياجٍ. وبعد لحظات من البحث، التفتَ إليَّ قائلاً بحزم: "لنبحث عن أطوَلِ شجرة، ربَّما يكون هناك".

واصلنا التقدُّم تحت شمس الظهيرة الحارقة، فتنقَّلنا بين الساحات الخلفيَّة والأماميَّة، ومررنا بمنازل السكّان، وأخذنا نُدقق في كل زاوية، لكنَّنا لم نعثر عليهِ. لا أُنكر أنَّني بدأت أشعر بالخوف معه في تلكَ الأماكنِ المعزولةِ، ومع ذلك، واصلتُ البحث معه.

بعد برهة، تنهد قائلًا وكأنه يُحاول طمأنتي: "ربَّما يعود إلى المنزل بنفسه". ولم يكن أمامي سوى أن آمل أن يحصل ذلك، فعدنا أدراجنا بصمتٍ مثقلٍ بالخَيبة. ودخلتُ بيتي مُثقلةً بالحزن، بينما عاد هو إلى المنزل الذي كان يعمل فيه.

جلستُ وبدأتُ أبكي، فقد كنتُ أعتقد أنَّني لن أرى جونيور مُجدَّدًا. ضحك أطفالي مني، وقالوا: "سنُحضرُ لكِ طائرًا آخر، ماما". لكنني أجبتُهم: "أعلم أنني أبدو سخيفة، لكنني لا أريد طائرًا آخر، أريد جونيور". لقد غمرني الفقدُ بالحزن.

خرجتُ لنشر الغسيل، ورفعتُ رأسي نحو السماء ،فلمحتُ طائرًا يقف على أحد أعمدة الكهرباء يشبه جونيور قليلًا، لكنه لم يكن هو. وبينما كنتُ أنشُرُ الملابس، أخذتُ أصغي إلى أصوات الطيور من حولي، وأدركتُ أنني لم أُصغِ إليها بهذا الانتباه من قبل. وبعد لحظات، خرج العامل الفلسطيني مرةً أخرى، مال برأسه قليلًا وقال: "أصغي جيدًا الآن، إنّه طائركِ، أستطيع سماع صوته." لكنني لم أسمع شيئًا.

تبعته مرةً أخرى عبر الساحات الخلفية، بينما كان الطفلان الصغيران يسيران خلفنا. ثمّ التفت إليَّ مجددًا وقال: "أصغي مرة أخرى، ستستطيعين سماعه"، لكن، وسط هذا العدد الهائل من الطيور، تداخلت الأصوات في سيمفونية واحدة، فلم أستطع تمييز صوت جونيور بينها. واصل الرجل سيره بخطوات واثقة، ثم فجأةً توقف في إحدى الساحات وأشار بيده: "انظري!" وهناك كان طائرنا! كان جونيور يقف على التعريشة البيضاء لشرفةٍ في الطابق الثاني، وقد مال رأسه الأصفر قليلًا وكأنه ينظر نحونا. "إنه هو!" ناديتُ بفرح، "إنه هو!"

نظرنا سريعًا حولنا بحثًا عن صاحب المنزل، لكن لم يكن هناك أحد. عندها رفع العامل جسده للأعلى، متسلقًا السياج الخارجي للمنزل، ومد يده ليُمسك بجونيور. احتضنه برفق بين كفّيه، ثم سلّمه إليّ. فضممتُه إلى صدري، قريبًا من قلبي وكان دافئًا وناعمًا.

"كيف فعلتَ ذلك؟ كيف عرفتَ مكانه؟!" سألته بدهشة. "كنتُ متأكدةً أنني فقدته للأبد."

نظر إليّ وقال ببساطة: "عليكِ أن تعرفي كيف تُصغين."

"لكنني كنتُ قد فقدتُ الأمل..." همستُ، "يئستُ من العثور عليه".

ألقى عليّ نظرةً، ثم حرّك رأسه بصمت، ثم بدأنا نتحدّث، وأخبرني عن زوجته وأطفاله، وعن القرية التي جاء منها. وقد علمتُ أن اسمه إبراهيم، وأنه اضطرّ لترك المدرسة في سنٍّ صغيرة جدًا ليُساعد في إعالة أسرته، وأنه بالكاد يستطيع القراءة والكتابة.

في اليوم التالي، رأيتُ ابني دانيئيل، الذي كان يخشى العرب دائمًا، يسير نحو المنزل الذي كان يعمل فيه إبراهيم. فوقف عند الباب، وناداه، وشكره على إنقاذ طائره.

في تلك اللحظة، راودتني فكرة أنَّ السلام ربما يأتي هكذا... ببطء، وتدريجيًا، خطوةً خطوة، وطائرًا بعد آخر، حين يتعلّم الناس الإصغاء. لكنني كنتُ ساذجة، وبريئة. حتى في تلك اللحظة، شعرتُ أن ما حدث مع الطائر لم يكن سوى قصة أشبه بحكاية خرافية، وكنتُ على حق، لأن الإصغاء وحده لا يكفي لصنع السلام. إذ يجب أن يكون هناك "لغة مشتركة"، لا تُبرر القسوة، ولا تُقدّس الإرهاب، وتحترم الحياة البشرية وتجلّها.

بعد مقتل قوبي، رأيتُ بائع الطيور في لقاءٍ جمع الأهالي الذين فقدوا أبناءهم في الهجمات الإرهابية. وقد كان برفقة والدته العجوز، وعلمتُ أن شقيقته—وهي معلمة تبلغ من العمر خمسةً وأربعين عامًا وأمٌّ لستة أطفال—قُتلت برصاص الإرهابيين في إطلاق نار من سيارة مارة.

القصة الثانية عن الطيور:

بعد شهرٍ من مقتل قوبي، كنتُ في طريقي إلى المسبح مع صديقتي شولاميت، وأخبرتها أثناء القيادة أن اثنين من أصدقائي رأيا أحلامًا ظهر فيها ابني الحبيب قوبي، وكأنما زارهما في المنام ليُوصل رسالة. وفي الحلمين، بدا ابني الحبيب قوبي مُطمئنًا، كأنه أراد أن يخبرهما أنه بخير.

في إحدى الليالي، زارني مايك، وهو صديق عاش في تكواع لأكثر من عشرين عامًا بعد أن هاجر من بريطانيا إلى إسرائيل، وقصّ عليّ حلمه، قائلًا: "رأيتُ نفسي في مدينة ملاهٍ أو مهرجان احتفالي، وفجأةً لمحتُ قوبي. كان وجهه يشعّ نورًا، ويبتسم بسعادة، ويمرر كرة بين يديه. وما إن رآني حتى بادر بمخاطبتي قائلًا: 'مرحبًا مايك! أخبر أمي أنني بخير هنا، وأن المكان رائع ومثير جدًا!"

قال مايك إنه لم يفهم معنى هذا الحلم، فلم يسبق له أن رأى أحلامًا كهذه من قبل. وفكرتُ بأنّ قوبي ربما جاءه لأنه كان يحب تبادل النكات معه، فابتسمتُ بيني وبين نفسي. ثم قلتُ له: "هذا يشبه أسلوب قوبي تمامًا". فقد كان يشعر بالملل بسرعة، ولهذا كان يحب دراسة الغمراه (أو چمارة)، ويُعرف أيضًا بـ 'التلمود البابلي'، إذ كان بحاجة إلى شيء يُبقي عقله نشطًا ويحفّزه باستمرار.

إنّ الغمراه هو جزء من الشريعة اليهودية الشفوية، ويَضمُّ تفسيرًا للتوراة جُمِع بين القرن الثالث والخامس للميلاد. ويتضمن نقاشات معمّقة حول القوانين، وحكايات، وأساطير دينية استمر الحاخامات عبر القرون في تفسيرها وإعادة النظر فيها. ويمكن اعتباره اليوم أشبه بـ"منتدى حواري" يمتدّ عبر الأزمان والقارات. وقد كان هذا هو الموضوع الوحيد الذي كان قوبي يستمتع بدراسته في المدرسة، لأنّه كان يُحفّز عقله ويمنحه التحدي الفكري الذي كان دائمًا بحاجة إليه.

لكن مايك لم يكن الوحيد الذي رأى قوبي في حلمه.

فقد زارتني صديقتي أندريا، التي عرفت قوبي منذ يوم ولادته، لتخبرني بما رأته في حلمها. وكان ابنها الأكبر، حاييم، يكبر قوبي بشهرٍ واحد، وقد كانا صديقين منذ الطفولة. وعندما عدنا إلى إسرائيل بعد سبع سنواتٍ من الإقامة في أمريكا، التقيا من جديد، وسرعان ما استعادت صداقتهما قوتها وكأنهما لم يفترقا قط.

وبعد مقتل قوبي، لم يعد حاييم قادرًا على النوم جيدًا.

وفي حلمها، رأت أندريا قوبي مرتديًا ثيابًا بيضاء فضفاضة، تتكوّن من قميصٍ واسعٍ بأزرارٍ قليلة عند العنق وسروالٍ من الكتَّان الأبيض الفضفاض. وقالت لي: "كنتُ أسير في طريقٍ حجريٍّ طويل، حتى وصلتُ إلى بوابةٍ حديديةٍ ضخمة. وما إن نظرتُ إلى ما خلفها، حتى رأيتُ قصرًا أبيض هائلًا، يشبه قصور القصص الخيالية، بواجهته المرتفعة وأبراجه الشاهقة. وقد كانت الشمس تتلألأ فوق حجارته، وعندما فتحتُ البوابة الكبيرة، اجتاحني شعور غامرٌ بالتوتر، وكدتُ أبكي، لكن قبل أن أتمكن من طرق الباب، فتحه قوبي بنفسه.

كان يبدو مختلفًا... أطول قامةً، وكان حافي القدمين، ووجهه مشرقٌ صافٍ، كأن بشرته تكاد تكون شفافة. وكان شعره أفتح لونًا، تمامًا كما كان عندما كان طفلًا. لكنه لم يكن جميلًا فحسب، بل بدا مسالمًا تمامًا، ومطمئنًا. وقد ابتسم لي ابتسامةً تُشبه تلك التي يرسمها الأبُ على وجهه عندما يرى طفله يتألّم بلا سبب. فنظرتُ إليه وقلتُ بقلق: 'قوبي، هل أنت بخير؟' لكنه لم يُجبني بكلمات... لم يحرك شفتيه مطلقًا، ومع ذلك، فهمتُ ما كان يريد قوله. وكأنه أوصل لي رسالته دون أن ينطق بكلمة: 'أخبري حاييم أنني بخير'".

أثناء القيادة، التفتُّ إلى شولاميت وقلتُ لها: "إنه أمر غريب... كلاهما تلقى نفس الرسالة".

نظرت إليّ شولاميت وقالت بثقة: "هذا نمط معروف من الأحلام" .فقد كانت تعرف ما تتحدث عنه، فهي معالجة نفسية من مكسيكو سيتي، وتمتلك خبرةً طويلة في مساعدة الناس على فهم أحلامهم. وأضافت: "حين يموت شخصٌ ما، لا يتمكن من التواصل مع أحبّائه المباشرين، خاصةً أولئك الذين غرقوا في ألمٍ عميق. لذا، يلجأ إلى التواصل مع آخرين قريبين منه، لأنّ معاناتَهم تكون أقل حدة، فيكونون قادرين على تلقّي رسائله".

وبعد أن فكرتُ في كلماتها، فهمت منها أنّ الحزن العميق يُحدث اضطرابًا داخليًا شديدًا، أشبه بضوضاء مشوِّشة، تمنعنا من التقاط أي إشاراتٍ من الراحلين، كما لو أن الألم نفسه يحجب عنا رسائلهم. ورغم ذلك، استدرتُ نحوها وقلتُ لها بنبرةٍ يملؤها الحزن: "لكنني أريد أن يتواصل معي مباشرةً، وليس عبر وسطاء. أريد أن يأتي إليّ بنفسه".

وفجأةً، وفي اللحظة نفسها التي نطقتُ بها هذه الكلمات، اصطدم طائرٌ بزجاج السيارة الأمامي بضربةٍ عنيفة! ثم، وكأن شيئًا لم يكن، ارتفع محلقًا في السماء دون أن يسقط أو يُصاب بأذى.

"ها هو!" قالت لي شولاميت. "ما عليكِ سوى أن تصدقي."

يا إلهي... أريد أن أصدق، لكنني لا أريد طائرًا يصطدم بسيارتي، أريد ابني الحبيب قوبي.

القصة الثالثة عن الطائر:

كانت تلك أوّل مرّةٍ أزور فيها قبر قوبي بعد موته برفقة عائلتي فقط، وكنتُ مستعدةً لانفجارٍ هائلٍ من الألم، كبركانٍ من الخوف والرعب. وحين نزلنا من السيارة وسرنا نحو القبر، ركض الأطفالُ ونزلوا عبرَ تلّةٍ تغمرُها أشجارُ الصنوبر، بدلًا من المشي على الطريق المعبدة من موقف السيارات. ثمّ وصل ابني غاڤي إلى القبر حاملًا ريشةً جميلةً ذات خطوطٍ زرقاء لامعة، صغيرةٍ ومتقنةٍ، بنقوشٍ متشابكةٍ دقيقة وقال: "هذه هديةٌ لقوبي، لتسعدَ روحَهُ". غرسَ الأطفالُ الريشةَ في الأرض عند قبر قوبي، ثم وضعوا

حجرًا فوقها حتى لا تطير بعيدًا. وقالوا: "سنرى إن كانت ستظل هنا حين نعود إلى القبر في المرة القادمة". ثمّ نظرتُ حولي، إلى أشجار الصنوبر والسماء الزرقاء الفاتحة المليئة بالسحب الرقيقة الناعمة، وفكرتُ في نفسي: يا له من مكانٍ جميلٍ هذا العالم. ثم فتحتُ كتاب صلاتي، ووجدتُ نفسي أقلب صفحاته حتى توقفتُ عند هذه الكلمات:

"ٱلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ ٱللهِ، وَٱلْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ. يَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ يُذِيعُ كَلَامًا، وَلَيْلَةٌ إِلَى لَيْلَةٍ يُبْدِي عِلْمًا." (الآيتان الثانية والثالثة من المقطع التاسع عشر من سفر المزامير)

وفجأةً أدركتُ أنَّ الطبيعةَ هي كلامُ الله، لكن لا بدَّ أن نعرف كيف تُحسن الإصغاء.

الفصلُ الرابعُ والعشرونَ

نِعَمُ عِيدِ الشُّكْرِ

رغم أنني إسرائيلية، فقد وُلدتُ في الولايات المتحدة، وهذا يعني أنني أمريكية أيضًا. وبالنسبة للأمريكيين، فإن عيد الشكر مناسبةٌ يحتفلون بها أينما كانوا. وفي هذا العيد، من المفترض أن نُعبّر عن امتناننا بِشُكْرِ الله على نعمه. وكجزءٍ من عملي، طَلب مني أحد المواقع الإلكترونية كتابة مقالٍ عن عيد الشكر. لكنني وجدتُ نفسي غارقةً في التفكير: ما معنى الامتنان حقًا؟ كيف يمكنني أن أشكر وأنا في هذه الحالة؟

إن كان الامتنان يعني القبول بما حدث لي، فلا أستطيع أن أكون ممتنة. لكن ربما لا يكمن الامتنان في قبول الفقد، بل في تقدير ما لا يزال لديّ، بدلًا من الاستغراق في التفكير فيما خسرته. وبمعنى آخر، ربما يكون الامتنان هو أن أتحلى بالتواضع الكافي لتقبّل ما أنعم الله به عليّ.

لكن، أن نكون ممتنين ليس أمرًا سهلًا على الإطلاق.

عندما كان أطفالي صغارًا، لم يكن الامتنان بالنسبة لي سوى إحساسٍ بسيط بأنني نجوتُ من يومٍ آخر دون أن أنهار، فقد كان الاعتناء بهم مُرهقًا بكل معنى الكلمة. ولن أُخفي الحقيقة، لم يكن الأمر سهلًا أبدًا، فقد كانوا يُرهقونني إلى حدٍّ كان يجعلني أحيانًا أضعهم في السيارة وأقود بها لبعض الوقت، علّهم يخلدون إلى النوم.

لكن، كيف يمكنني أن أكون ممتنة بعد أن قُتل ابني؟

اضطررتُ إلى إعادة النظر بالكامل في مفهوم البركة، وخلال بحثي عن إجابة، عدتُ إلى كتبنا اليهودية المقدسة. فإن كانت التوراة تخبرنا أن بني إسرائيل، أي الشعب اليهودي، مباركون، فماذا يعني ذلك بالنسبة لي؟

لقد بارك إسحاقُ، أحدُ أجدادنا الأوائل، أبناءَه، وتذكر التوراة في سفر التكوين، في المقطع السابع والعشرين، في الآية الأولى: "وَكَانَتْ عَيْنَا إِسْحَاقَ قَدْ ضَعُفَتَا عَنِ ٱلْبَصَرِ فَلَمْ يَكُنْ يَرَى"، وكذلك نحن الآباء، حين نبارك أبناءنا في كل ليلة شبات بعد تلاوة شكر لله على نعمة الخمر والخبز، نُغمض أعيننا. وإنّ إحدى الحِكم وراء هذه العادة هي أن نغفر لهم زلّاتهم، أن نُغمض أعيننا عن أخطائهم فلا نرى فيهم إلا الخير. وفي تلك اللحظة، أدركتُ بوضوح أن البركة لا تعني أن نحصل على ما نريده، بل أن نتحرر مما نعتقد أننا

نريده، حتى نتمكن من رؤية النِعَم التي منحنا الله إياها. إن اكتشاف البركة يبدأ بقبول النقص في العالم الذي خلقه الله، وفي الآخرين، وفي أنفسنا.

لم يكن من السهل أن أتقبّل ابني الحبيب قوبي على طبيعته. وبما أنه كان طفلي الأكبر، كنتُ أتوقع منه أن يكون أكثر انضباطًا وتحمّلًا للمسؤولية، وأن يؤدي دور الأخ الأكبر المثالي. ولذلك، كانت الصعوبات التي أواجهها مع تقبّل العيوب تنعكس عليه أكثر من غيره. فقد كنتُ أجد أنه من السهل التغاضي عن الأخطاء الصغيرة في أطفالي الآخرين، لكن مع قوبي، كان الأمر مختلفًا تمامًا، إذ بدت شخصيته وكأنها تختبر صبري بطرقٍ كثيرة. فعلى سبيل المثال، كان بإمكانه أن يكون كسولًا بطريقة مدهشة، وكأنه أمير مدلّل! فلم يكن يشعر بأي استعجال، وكان هادئًا تمامًا، يعيش اللحظة بكاملها دون أن يسمح لأي التزامات أو واجبات أن تُفسدها... لا سمح الله!

لكن، لم يكن قوبي كسولًا في جميع الأوقات. أتذكر أنني عدتُ إلى المنزل ذات يوم، فوجدته قد أزال طبقةً كاملةً من الثلج المتراكم على مدار عامٍ كامل في الفريزر! كان أيضًا يعتني بأخيه الصغير متى طلبتُ منه ذلك، وكان يخرج لشراء البيتزا دون أي تذمّر. وفي أحد الأيام، خرجنا لِنتمشّى، وعندما تعب أخوه غافي، حمله قوبي على كتفيه طوال الطريق إلى المنزل، بينما كان يتزلّج بحذاء "رولر بلِيدس" (Rollerblades) ذي العجلات، قاطعًا أكثر من كيلومتر ونصف!

ولم تكن المشكلة تكمن في كسله بحدّ ذاته، بل في كونه يختار متى يكون نشيطًا ومتى لا يكون، وهذا ما لم يكن من السهل عليَّ التعامل معه كأمّ. وقد كانت تحضيرات الأعياد اليهودية تحديدًا من أكثر الأوقات التي تُشعرني بالإحباط، إذ كنتُ أُحاول إقناعه بالمساعدة في تجهيز البيت، لكنّ الأمر كان أشبه بمهمة مستحيلة، فأشعر بالغضب منه كثيرًا، خصوصًا عندما كنتُ أرى أطفال الجيران يعملون معًا كخلية نحل نشطة. ثم كنتُ أغضب أكثر، لأنني كنتُ أشعر أن كسله يعكس فشلي كأمّ.

وفي الحقيقة، حين أفكّر في الأمر، أُدرك أن سبب غضبي الشديد منه لم يكن كسله بحدّ ذاته، بل لأنني كنتُ أرى فيه شيئًا لم أُحبّه في نفسي، فأنا أيضًا كنتُ كسولةً مثله.

لكن الآن، بعد مقتل قوبي، حين نستعدّ ليوم الشبات أو الأعياد اليهودية، دون وجود قوبي حولي لأصرخ عليه كي يساعدنا، أُدرك شيئًا لم أنتبه إليه من قبل: أنّ كسله، بطريقةٍ ما، أصبح هديّته لي، أنا التي يتمزّق قلبي بفقدانه، لأنني لستُ مضطرة خلال الأعياد للتفكير في: "ليت قوبي كان هنا ليساعدنا"، فأنا أعلم تمامًا أنه كان سيستلقي في سريره، ويأكل الشيبس مع صلصة السالسا، وكنتُ سأكون هناك، أصرخ عليه كي ينهض ويساعدنا.

إنّ تقبّل الواقع كما هو، ودون تجميله، يعني أنني لا أستطيع أن أجعل قوبي قديسًا لمجرد أنه قُتل، لأنني أتذكره بكل وضوح، وأتذكر عيوبه مثلما أتذكر كل ما كان يجعلني أحبه.

لكنني الآن أرى كسله من زاويةٍ مختلفة، وأدرك شيئًا لم أكن مستعدةً لرؤيته من قبل: لقد كان هناك جانبٌ إيجابيٌّ أيضًا في عدم رغبته بالنهوض لمساعدتي في أعمال المنزل. ولستُ أقول إن الأطفال لا ينبغي عليهم المساعدة في أعمال البيت، ولكنني أدرك الآن أنني كنتُ أستطيع أن أتعلم منه كيف أعيش

اللحظة، وكيف أتوقف عن القلق بشأن نظرة الآخرين إليّ، وكيف أستمتع بالحياة، وكيف أسترخي، وكيف أسامح. بعبارةٍ أخرى، كان يمكنني أن أتقبّل طبيعته أكثر، بل وأكون ممتنة لأنّه كان لي ابنٌ أكبر مشاكله، في نظري، غرفةٌ غير مرتبة وعدم الرغبة في العمل حين كنتُ أريده أن يعمل. والآن، أدرك أن رفضه للمساعدة هو في حدّ ذاته شيء يساعدني، لأنه يجبرني على أن أتذكره كما كان حقًا، لا كما أتمنى لو كان.

وبطريقةٍ معجزة، بدأتُ أفهم كيف يجب علينا أن نبارك السيئ كما نبارك الجيد. والآن، يتولّد الأمل لديّ بأنني سأتعلم قبول الحياة التي أنعم الله بها عليّ ،وكأنني ألمس حياتي بيديّ، وأُغمض عينيّ متغاضيةً عن نواقصها ،فأشعر بأنّها كلٌّ متكاملٌ كما باركني الله بها.

من اليمين إلى اليسار: قوبي، وشقيقه دانيئيل، وشقيقته إليعانه، وشقيقه الأصغرُ غافي

الفَصْلُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

الوَلَدُ البِكْرُ

إنّ فقدانُ الوَلَدِ البِكْرِ هو خسارةٌ لنعمتَيْن، وسأوضّح ما أعنيه: فالشريعةُ اليهوديّة تُقِرُّ بمكانةِ الابنِ الأوَّلِ وتمنحهُ حقًّا خاصًا، إذ ينالُ البِكْرُ، أو كما يُسمَّى بالعِبريّة "بيخور"، ضعفَ نصيبِ إخوتهِ في الميراث. وقد ذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ هذا الامتيازَ ليس إلا تعويضًا عن كونهِ "فأرَ تجاربٍ" لوالدَيْنِ لا يزالان يتعلّمان فنَّ التربية. لكنَّ الأرجحَ أنَّ السببَ وراء هذه الميزةِ لا يقتصرُ على ذلك، بل يعودُ إلى أنَّ البِكْرَ يحظى، دونَ غيرهِ، بضعفِ اهتمامِ والديه، فهما يعيشانِ من خلالهِ لحظاتِ الاكتشافِ الأولى، وينظرانِ إليهِ بدهشةٍ وحُبّ، ولكنَّهما في الوقتِ نفسهِ يسعيانِ إلى صَقلِهِ وتشكيلهِ وفقَ الصورةِ التي يحلمان بها. ونتيجةً لذلك، يتعلّمُ البِكْرُ الكثيرَ عن السلطةِ، كيفَ يمارسُها ويُقاوِمُها. ولو ألقينا نظرةً على التاريخِ، لوجدنا أنَّ عددًا كبيرًا من روّادِ الفضاءِ والرؤساءِ كانوا من الأبناءِ البِكْر، وكأنَّ الابنَ الأولَ يولَدُ ليكونَ في دائرةِ الضوءِ، مهيَّأً لتسلُّمِ القيادةِ.

لقد كان ابني الحبيبُ قوبي بلا شكٍّ نجمَ مسرحِ حياتي، وكأمٍّ حديثةِ العهدِ بالأمومةِ، عايشتُ كلَّ مرحلةٍ من مراحلِ نموِّهِ وكأنّها اكتشافٌ فريدٌ من نوعه. فعندما خَطَا خطواتهِ الأولى، شعرتُ وكأنَّه نيل آرمسترونغ عندما مشى على سطحِ القمر. وعندما نطقَ بكلماتهِ الأولى، شعرتُ كأنّ النُّطقَ اختُرِعَ لتوِّهِ.

في الحقيقة، هو الذي "درَّبني" على تربيةِ الأطفال، إذ لم يكن لديَّ أدنى فكرةٍ عن كيفيةِ رعايةِ رضيعٍ قبلَ ولادتِهِ. فلم أكن أعلمُ إن كان ينبغي أن أرضعهُ طوالَ اليوم، أو كيفَ أتعاملُ مع رغبتِهِ في دَفْعِ عربةِ الأطفالِ بدلًا من الجلوسِ فيها. ولم أفهم لماذا كان يعضّني، أو كيفَ يمكنني أن أردَّ دونَ غضب، وأُرشِده دونَ قسوة، وأتركَ لهُ المجالَ لينموَ بشخصيّتِهِ كما هو، لأنَّ قوبي كان بحدّ ذاته طاقةً لا تنضب، إذ لم يكن يتوقّفُ عن الاصطدامِ بنا، مطالبًا إيانا بالانتباه الدائم له. وفي صورِنا العائلية ،نرى قوبي دومًا في قلب المشهدِ، وهو يضحكُ، ويُشاكس، ويمدُّ ذراعيهِ الطويلتينِ ليلفّ إخوتَهُ بحيوية، مستعرضًا بعفويّته الطفوليّة. وكانَ إخوتهُ ينجذبونَ إليهِ تلقائيًا، فيميلونَ نحوه كأنَّهُ مغناطيسٌ يشدُّهم إليهِ.

ولقد كانَ دائمًا سابقًا لعمرَهُ، وأحيانًا يسبقُني أنا أيضًا! ففي إحدى المرات، عندما كان جالسًا في مقعدِ السيارةِ المخصَّصِ للأطفال، وهو لم يتجاوز سنتين من عمره بعد، أشارَ إليّ نحو الطريقِ المؤدّي إلى المركزِ حيثُ يُقامُ لقاءُ "الأم والطفل" الذي اعتدنا الذهابَ إليه، وظلَّ يُلحُّ عليَّ حتى انعطفتُ حيث أراد، وبالفعل، كان مُحقًّا في توجيهِه.

ومرّةً، حين كان في الحاديةِ عشرة، وأثناء وجودنا معًا في السيارة أخذَ يُعلّمني كيف أقود! حيث قال لي بثقةٍ إنَّ عليَّ أن أَنقُلَ الغيار من الثالثِ إلى الرابع. فنظرتُ إليهِ بدهشةٍ وسألتُه: "متى تعلَّمتَ القيادة؟!" لكنَّني نفَّذتُ ما قال، فإذا بالسيارةِ تنطلقُ بسلاسةٍ أكبر.

وقد كانَ يعرفُ أشياءَ كثيرة، فمثلًا: كانَ يعلمُ تمامًا ماذا سيفعلُ بالمالِ الذي أعطته إياه جدَّتُهُ في حفلِ البار ميتسڤاه، إذ قرَّرَ أن يستثمرَهُ كلَّهُ في أسهمِ شركةِ مايكروسوفت! كما أنَّهُ كانَ يفهمُ طريقةَ عملِ سوقِ الأسهمِ، رغمَ أنَّنا لم نكنْ نملكُ أيَّ استثماراتٍ فيه!

حتّى إنَّهُ لم يكن يفوّت فرصةً لإبداء ملاحظاته ونقده حول أسلوبي في التربية! فبعدما قرأَ الكتبَ التي كنتُ أستلهمُ منها نهجي في تربيةِ أطفالي، وخاصَّةً كتاب "كيفَ تتحدَّثُ فيستمعُ الأطفال، وكيفَ تستمعُ فيتحدَّثُ الأطفال" (How to Talk so Kids will Listen, and How to Listen so Kids will Talk) للمؤلّفَتَيْن أديل فابر وإلين مازليش، صارَ يشيرُ إليَّ كلّما أخطأتُ، في نظرِهِ، في التعاملِ معهُ ومعَ إخوته. وكانَ يمزحُ قائلًا: "لا تصرخي عليهم... بل تحدَّثي بهدوءٍ وصِفي الموقفَ ببساطة، جاعلةً إياه أشبهَ بأُحجيةٍ لهم، وقولي مثلًا: أرى أطفالًا وشاحنةً واحدة، ماذا يمكننا أن نفعلَ الآن؟" تمامًا كما يقترحُ الكتاب. وكنتُ أضحكُ من كونهِ تحوَّلَ إلى "شريكٍ" لي في تربيةِ الأطفال وتوجيهِهم!

وقد كنَّا نتشاركُ في كلِّ شيء، وكانَ بمثابة مشجّعٍ لي. وكان شريكًا لي في التفكير، وقارئًا ناقدًا لما أكتب، حيث يُشيرُ إلى ما يجبُ عليّ أن أحذفَهُ أو أبقيه، ويقترحُ تعديلاتٍ في الصياغة، وكأنَّه محرِّري الصغير. وكانَ يستمتعُ أيضًا بقراءةِ مجلاتِ النساء، ليسَ فقط بدافع الاهتمامِ بمحتواها، بل أيضًا للسخريةِ من المقالاتِ التي تحملُ عناوينَ مثل "مئةُ طريقةٍ ليقعَ زوجكِ في حبِّكِ من جديد!"

بل إنَّهُ حينَ كانَ في الثانيةِ من عمرِه، كانَ يستطيعُ ترديدَ القصصِ التي كنتُ أقرأُها لهُ كاملَةً، وكأنَّهُ هو الذي يرويها. ومنذ ذلك الحين، صارَ عاشقًا للقراءة، يلتهمُ كتبَ هاردي بويز وهاري بوتر مرّاتٍ عديدة حتى حفظَ تفاصيلَها عن ظهر قلب. وفي سنِّ الثانية أيضًا، خرجَ مرّةً من البيتِ وحدَهُ وذهبَ إلى الحديقةِ دون أن يخبرَ أحدًا!

لقد كانَ التعاملُ معهُ تحدِّيًا حقيقيًّا. فعندما بلغَ السابعةَ، انتقلنا إلى منزلٍ جديد، فاستشاطَ غضبًا إلى حدِّ أنَّهُ هربَ من البيتِ وتاهَ في الطريق، واضطررنا إلى الاتصالِ بالشرطةِ بحثًا عنه. وبعدَ دقائقَ قليلة من اتصالنا بالشرطة، عادَ إلى المنزلِ برفقةِ أشخاصٍ وجدوهُ وأعادوهُ إلينا. وفي إحدى الليالي، وتحتَ وطأةِ الغضب، ركلَ نافذةَ المنزلِ بقوَّةٍ فكسرَها.

وإنّي أشعرُ أحيانًا أنَّهُ لا يزالُ يُجبرُنا على الانتباهِ إليه، وأنّه يستحوذُ على اهتمامِنا حتَّى وهوَ في العالم الآخر، بل إنَّ إخوتهُ لا يزالونَ يشعرونَ بالغيرةِ منه أحيانًا.

لم يكنْ قوبي سهلًا أبدًا، لكنَّهُ كانَ محبًّا وقويًّا. وعندما كنتُ برفقتِهِ، كنتُ أشعرُ بالأمانِ، فقد بدا لي أنّه لا يُقهَر. ولم يكن يرتدي معطفًا في البردِ القارسِ، ومعَ ذلكَ لم يكنَ يشعُرُ بالبرد. وحينَ أصيبَ جميعُ أُفرادِ أُسرتنا بالتهابِ الكبدِ بعدَ قيامِنا بال"عالية"، أي الهجرة إلى إسرائيل، كانَ هوَ الوحيدَ الذي لم يُصبْ به، وكأنَّهُ في منأى عن كلِّ ما قد يضعفُ الآخرين.

عِشْنا في إسرائيل حتَّى بلوغ قوبي عامه الثاني، ثمَّ عدنا إلى أمريكا، لأنَّني في ذلك الوقت لم أكن مستعدَّةً لأن أصبحَ إسرائيليَّة. وكنتُ قد جئتُ إلى إسرائيل في إجازة، وانتهى بي المطافُ بالبقاءِ هناكَ لسبعِ سنوات، لكنَّني لم أخطِّط يومًا للحصولِ على الجنسيَّةِ الإسرائيليَّة، فقد كنتُ خائفةً من تربيةِ أطفالي في ظلِّ المخاطرِ هناك، ولم أكُن مستعدَّةً بعد للعيشِ في بيئةٍ أكثرَ صعوبة، حيثُ يبدو كلُّ شيءٍ – العملُ، والمدارسُ، والتسوُّقُ، وحتَّى القيادةُ – تحدِّيًا يوميًّا. وقد كنتُ أفتقدُ أمورًا بسيطةً، مثلَ السجادِ الذي يُغطِّي الأرضيَّات، وقنواتِ الراديو بالإنجليزيَّة. وأردتُ أن أعيشَ في مجتمعٍ أفهمه، وكنتُ أيضًا بحاجةٍ لأن أكونَ أقربَ إلى عائلتي.

لذا، حصلَ زوجي سيث على وظيفةِ مديرٍ في مؤسَّسةِ "هليل"، وهي منظَّمةٌ تهتمُّ بالجوانبِ الروحيَّةِ والعاطفيَّةِ والتعليميَّةِ للطلَّابِ اليهودِ في الجامعات، وكانت وظيفته في البداية في جامعةِ ولايةِ بنسلفانيا في مدينة ستيت كوليدج، ثمَّ لاحقًا في جامعةِ ميريلاند. أمَّا أنا، فكنتُ أدرِّسُ الكتابةَ الإبداعيَّةَ في الجامعتَيْن. وقد كانت لدينا وظائفُ مستقرَّة، وأصدقاء، ومنزلٌ مريح، لكن كان هناكَ شيءٌ ناقص، وكان قوبي يشعرُ بهِ أيضًا. لقد كنّا نُدرك في قرارة أنفسنا بأنَّ هناكَ شيئًا أعمقَ مفقودًا... وأحسسنا بالحنينِ إلى إسرائيل، وإلى حياةٍ روحيَّةٍ أكثرَ ارتباطًا بالثقافةِ اليهوديَّةِ والتوراة.

وعندما كانَ قوبي في الروضة، أعدَّت معلِّمتهُ كتابًا يجمعُ إجاباتِ الأطفالِ عن أسئلةٍ مثلَ: ماذا تريدُ أن تتعلَّم؟ وأينَ ترغبُ في الذهاب؟ وكانَ معظمُ الأطفالِ يريدونَ تعلُّمَ رياضة الهوكي أو ألعابِ الكمبيوتر، لكنَّ قوبي أرادَ أن يتعلَّمَ اللغة العبريَّة. وبينما اختارَ الأطفال الآخرون ديزني لاند وفلوريدا وجهةً لأحلامهم، كانَ هو يريدُ زيارةَ أورشليمَ القدس. إذ كانَ ارتباطُهُ بإسرائيلَ متجذِّرًا في أعماقِه.

لكن بعدَ سبعِ سنواتٍ في الولاياتِ المتَّحدة، لم يكنَ الرجوعُ إلى إسرائيلَ سهلًا، بل كانَ محفوفًا بالصعوباتِ والتحدِّيات. بدأ قوبي المدرسة في إسرائيل في الصفِّ الرابع، وانتقلَ من صفٍّ صغيرٍ يضمُّ خمسةَ عشرَ طفلًا هادئًا في أمريكا إلى صفٍّ في إسرائيلَ يضمُّ أربعينَ صبيًّا مشاكسًا، لكنَّهُ لم يشتكِ قط، رغمَ أنَّهُ لم يكنَ يتقنُ العبريَّةَ بعد، ولم يكنَ يفهمُ ما يدورُ حولهُ. أمَّا إخوتُهُ، فلم يتمكَّنوا من تكوينِ صداقات، ولم يتعلَّموا اللغة، ولم نجدْ نحنُ عملًا. وقد كنَّا نعيشُ في إفرات، وهي بلدةٌ تبعدُ نحوَ عشرينَ دقيقةً عن أورشليمَ القدس، أُسِّسَت في أوائلِ الثمانينيَّاتِ على يدِ الحاخامِ شلومو ريسكين. لقد ظننا أنَّ الانتقالَ إلى هناكَ سيكونُ أسهلَ لأنَّ عددًا كبيرًا من السكَّانِ كانوا مهاجرينَ يهودًا من أمريكا، لكن حتَّى الأطفالُ الأمريكيُّون لم يكونوا يتحدَّثونَ الإنجليزيَّةَ في المدرسة، وهكذا، تُرِكَ قوبي ليواجهَ الوضع وحدَهُ.

لقد كانَ هذا الوضع قاسيًا على الجميع، لكنَّهُ كانَ أشدَّ وطأةً على قوبي، لأنَّهُ كانَ الابنَ الأكبر، ومعَ ذلك كانَ يدركُ أنَّ إسرائيلَ هيَ موطنُهُ الحقيقي، وكانَ يعتبر العيشَ فيها أمرًا يفتخر به. ولحسنِ الحظِّ، فقد ساعدَهُ تميُّزُهُ في الرياضةِ على الاندماجِ مع زملائه، فحتَّى لو لم يكنْ قادرًا على الحديثِ معهم، فقد استطاعَ أن يلعبَ كرةَ القدم، وكانَ ذلكَ كافيًا ليقبلوهُ بينهم.

أتذكَّرُ صيفنا الأوّل بعدَ انتقالِنا إلى إفرات، حينَ كنتُ أسيرُ بجوارِ المكتبةِ ورأيتُ قوبي جالسًا في الداخلِ يقرأُ وحدَه. بدا هذا المشهدُ رائعًا، لكنَّني شعرتُ بوخزةِ ذنب، فقد كانَ لهُ الكثيرُ من الأصدقاءِ في سيلفر سبرينغ بولايةِ ماريلاند، وكانَ محبوبًا للغايةِ بينهم، وها أنا قد "جررتُهُ" إلى هنا، ليجدَ نفسَهُ وحيدًا،

بلا رفاق. وقد حاولتُ أن أواسيَ نفسي بفكرة أنَّ وجود طفلٍ ذكيٍّ واجتماعيٍّ ومحبوبٍ مثله في ظروفٍ صعبة، أصبح فيها أحدَ أقلِّ الأطفالِ شعبيَّةً، قد يجعلهُ أكثرَ حساسيَّةً وتعاطفًا مع الآخرين.

وفي تلكَ السنوات، كانَ قوبي يمضي الكثيرَ من الوقتِ في البيت، منشغلًا بالقراءة. واستغرقَ وقتًا طويلًا حتَّى يعثرَ على أصدقاء، وهذا منحَني فرصةً لقضاءِ المزيدِ من الوقتِ معه، والاستمتاع برفقتهِ. وقد كانَت لحظاتُنا معًا تبدو سحريَّة أحيانًا. فمثلًا، قبلَ شهرٍ تقريبًا من مقتلهِ، وقفنا معًا في المطبخِ، وبدأنا بتأليفِ قصةٍ بشكلٍ عفوي، وبجملةٍ منِّي وأُخرى منه، نسجنا حكايةً من العدم. وأدركتُ فجأةً أنَّهُ لا يُضفي لمسة إبداعيةً على القصّة فحسب، بل ينسجُ الأحداثَ بذكاءٍ وترابطٍ، وكأنَّهُ يرفعُ من مستوى الحكايةِ التي ابتدأتُها.

وفي الليلةِ التي سبقت مقتله، طلبتُ منهُ أن يهتمَّ بإخوتهِ خلال الوقت الذي سأكون فيه في درسِ توراةٍ للنساء، لكنَّهُ كانَ مشغولًا أخيرًا، فقد كانَ لديهِ لقاءٌ طالَ انتظارهُ مع مجموعةٍ من الأصدقاء ،إذ كان وقتها قد بدأ أخيرًا في الاندماج، فشعرتُ بالارتياح. وكنتُ قد خطَّطتُ يومها للذهابِ إلى حفلٍ في المدينةِ بمناسبةِ زيارةِ رئيسِ تحريرِ مجلَّة هداسا إلى إسرائيل قادمًا من نيويورك، لكنَّ الساعاتَ مرَّت، وشعرتُ فجأةً أنَّني لا أرغب في مغادرةَ المنزل، فقد كانت الطرقُ خطرة، وكانَ كلُّ ما أردتُهُ هو أن أبقى بينَ عائلتي.

وكأنَّ شيئًا مجهولًا أبقاني في المنزل، دون أن أدركَ أنَّني كنتُ أنتظرُ أن أحتضن ابني قوبي وأُقبّله للمرّة الأخيرة. وفي تلك الليلة، صعدَ إلى غرفتي فجأةً وأحاطني بذراعَيه بقوَّة، ثمَّ طبعَ قبلةً على وجهي، وقالَ لي ممازحًا بصوتٍ دافئٍ: "أمِّي، أنتِ جميلةٌ جدًّا." فقد كانَ يعرفُ كم يُسعدُني سماعُ ذلك، وكانَ يُداعبُ غروري كعادتهِ. لكنَّني كنتُ قد ودَّعتهُ بالفعلِ في الطابقِ السفلي، فلم أفهمْ لماذا عادَ ليقولَ لي تصبحينَ على خير مرَّةً أخرى.

الآن، أظنُّ أنَّهُ كانَ يشعرُ بالذنبِ بسببِ خطَّتهِ للذهابِ إلى الوادي دونَ أن يُخبرني، وكأنَّهُ أرادَ أن يمنحني جرعةً إضافيَّةً من الحنانِ قبلَ أن يُقدِمَ على شيءٍ يعلمُ أنَّهُ لم يكنْ صائبًا. وربما كانَ ينتظرُ منِّي أن ألحظَ الأمر، أن أوقفَهُ، أن أقنعَهُ بالعدولِ عن فكرتهِ.

كم أشعرُ بالغضبِ منهُ الآن وهوَ في عدادِ الموتى! لماذا كانَ عليهِ أن يكونَ شجاعًا إلى هذا الحدِّ؟ لماذا لم يكنْ أكثرَ حذرًا؟ لماذا كانَ عليهِ أن يكونَ بهذه الحماقة؟ أريدُ أن أهزَّهُ، أن أصرخَ في وجههِ آمرةً إيَّاهُ بأن يعودَ إلى المدرسة، أن أصحِّحَ تلكَ اللحظة، أن أتأكَّدَ من أنَّهُ استقلَّ الحافلةَ، ودخلَ إلى الصفِّ، وأكلَ شطيرتهُ بالسلامي، ثمَّ عادَ إلى البيتِ، ليفتحَ البابَ مندفعًا، ويرمي سترتهُ وكتبهُ على الأرضِ ويصرخُ: "أنا جائع!" لكنَّني أتذكَّرُ أنَّ الأطفالَ حينها كانوا دائمًا يذهبونَ إلى الوادي، فلم يكنْ ذلك أمرًا استثنائيًّا، بل حتّى في ذلكَ اليومِ المشؤومِ نفسه، حينَ قُتلَ قوبي وصديقهُ يوسف، كانَ هناكَ أشخاصٌ يتسلَّقونَ المنحدراتِ بالحبال، وآخرونَ يتجوَّلونَ سيرًا على الأقدام، دون أن يدركَ أحدٌ أنَّ المأساةَ كانت تقعُ على مقربةٍ منهم.

إنَّهُ لأمرٌ غريب أنّه في التوراة، لا يبدو أنَّ الابنَ البكرَ يحصلُ على مكانتِه الموعودةِ أبدًا. فإسماعيلُ يتركُ مكانَهُ لإسحاق، وعيسو يُزاحُ من قِبلِ يعقوب، ومَنَسَّى يتقدَّمُ عليهِ أفرايم. إنَّ هذه المكانةَ هشَّةٌ، وهذه القوَّةَ معرَّضةٌ دومًا للانقلاب. وفي التوراة، لا يكونُ مَن يُحقِّقُ مصيرَ البكرِ هوَ الابن ذاته الذي كُتِبَ

لهُ هذا الدور في الأصلِ، ولهذا، يا ابني الحبيب، لم تَضِعْ قوَّتُك، بل تحوَّلتْ إلى شكلٍ آخر. فهناكَ قوَّةٌ في موتِكَ، وقوَّتُكَ تتجسَّدُ في صفةٍ أخرى للبكرِ، وإليكَ التفسير:

فالبكرُ في النصوصِ المقدَّسةِ هوَ المختارُ للخدمةِ في الهيكلِ المقدس، وهوَ المكلَّفُ بتمثيلِ العائلةِ في تقديمِ القربان، أي أنَّهُ يمثِّلُها في القداسة. وأنا أشعرُ أنَّني مدعوَّةٌ الآنَ لأن أسيرَ معكَ في طريقِك، فأواصلَ مصيرَكَ، وأُكملَ رحلتَكَ.

وبحسبِ كتابِ الزوهار، وهوَ المصدرُ الأساسيُّ للتصوُّفِ اليهوديِّ، فإنَّ لكلِّ روحٍ رسالةً في هذهِ الحياة. وفي العادة، لا تتغيَّرُ رسالةُ الروحِ إلَّا عندَ الموت، حينَ تعودُ إلى عالمٍ آخر، لتُبعثَ من جديدٍ في جسدٍ جديد. لكن هناكَ استثناءٌ واحدٌ، حينَ يمرُّ الإنسانُ بتجربةِ موتٍ قريبة، يُمكنُ أن تحلَّ فيهِ روحٌ جديدة، وكأنَّهُ يولدُ مرَّةً أخرى وهوَ على قيدِ الحياة.

وأنا، في هذا الألمِ القاسي، في هذهِ المأساةِ التي عشتُها بعدَ مقتلِ ابني، كنتُ كمن ولِدَ من جديد. فلم أعدْ الشخصَ الذي كنتُهُ سابقًا، بل اكتسبتُ رسالةً جديدةً في هذهِ الحياة. وإنّ قوبي لا يزالُ يقودُنا إلى أفقٍ جديدٍ من القداسة، فيدفعُنا باستمرار، ويصطدمُ بنا، ويُجبرُنا على إعادةِ تعريفِ أنفسِنا، وعلى أن نغوصَ أعمقَ في إيمانِنا باللهِ، وفي فهمِنا لرسالتِنا على هذه الأرض.

قالَ لي أحدُ الحاخاماتِ ذاتَ مرَّةٍ إنَّ الجميعَ يدركُ وجودَ الشرِّ في هذا العالم، لكنَّ مَن يُجبَرونَ على مواجهتِه عن قُربٍ، ومن يصبحونَ على معرفةٍ وثيقةٍ به، تتغيَّرُ رسالتُهم في الحياة: فهُم يُنادَونَ لمقاومتِه.

قوبي، يا ابني الجميل، لقد منحتَنا بموتِكَ رسالةً جديدة، وهي أن نستمدَّ من قوَّتِك ونُخرج إلى العالم، قوَّةَ حبِّكَ لإسرائيل، وحبِّكَ ليهوديَّتِكَ، وإيمانِكَ الراسخِ باللهِ.

أتذكَّرُ عندما سألتُكَ يومًا إن كنتَ تؤمنُ حقًّا باللهِ، فنظرتَ إليَّ بعينينِ واثقتَيْن وقلتَ باستغراب: "طبعًا! كيفَ لا؟!" فقد كانَ الإيمانُ جزءًا منك، ولم يكنَ فكرةً تقتنعُ بها، بل حقيقةً متجذِّرةً في أعماقِكَ، كأنَّكَ وُلِدتَ بها. وقد كنتَ تؤمنُ أنَّ لكلِّ شيءٍ في الحياةِ غايةً، وأنّ لا شيءَ يحدثُ عبثًا.

واليوم، لي أيضًا غايةٌ جديدة، ولن أحيدَ عنها، وهي أن آخذَ هذا الألمَ القاسي، هذه القسوةَ التي لا تُحتمل، وهذا الشرَّ الذي خطفَكَ منِّي، وأحوِّلهُ إلى محبَّةٍ ورحمة، إلى النورِ الذي زرعتَهُ في هذا العالم.

تكريمًا لذكراك، سأحملُ البركةَ المزدوجةَ التي وُلِدتَ بها كابنٍ بكر، وسأرسلُها إلى العالم، تمامًا كما كنتَ ستفعلُ لو بقيتَ هنا.

الفَصْلُ السَّادِسُ وَالعِشْرُونَ

حانوكاه – عِيدُ الأَنْوَارِ

قُتِلَ قوبي وهو في الثالثة عشرة من عمره، وهذا الرقم هو عدد أوّليّ، والأعداد الأولية هي مجموعةٌ فريدة من نوعها، ومستقلةٌ عن غيرها، ومغلقةٌ على انضمام أعدادٍ أخرى لها، ولا تقبل القسمة إلا على نفسها. وإنّ موت ابني يشبه هذه الأعداد، إذ لا يمكن تقسيمه أو اختزاله إلى أجزاء أصغر، ولا يُقسَم إلا على نفسه، ويبقى واحدًا كما هو.

لكن هل سيبقى قوبي دومًا في الثالثة عشرة؟ أو هل يَكبر، ويَنضَج، ويَشيخ في السماء؟ فلا معنى أن أحُدَّه في رقمٍ، فقد خرج من عالم الأرقام، ولم يَعُد الزمن يهمّه أو يؤثّر فيه. وقد كان لإحدى صديقاتي أخٌ في الثانية والعشرين من عمره حين دخل في غيبوبة استمرّت ثلاث عشرة سنة! وكان من المؤلم جدًا لها أن تراه يَكبُر بينما هو غائب عن الحياة، فيَتراجع خطُّ شعره، ويتحوّل جسده إلى محض غلافٍ لروحٍ ساكنة. ورغم أنّه كان لا يزال في عالم الأرقام، إلّا أنّه لم يَنتمِ إلى أي تصنيف، فلم تكن هناك خانة تحتويه، ولم يكن هناك رقمٌ يعكس حالته.

وهناك معضلةٌ أخرى مع الأرقام، فحين يسألني أحدهم: "كم عدد أطفالك؟" أجد نفسي حائرة، كيف أجيب؟ هل أعدُّ قوبي واحدًا منهم؟ وكيف لا أفعل؟ كيف يمكن لرقمٍ أن يُعبّر عن رغبتي في حضوره، عن إحساسي به، عن مكانه الذي لا يمتلئ أبدًا؟

في غرفة ابنتي صورة تجمعني بقوبي في احتفال بار ميتسفاه لصبيّ آخر، قبل شهرين فقط من مقتله، وحين أتمعّن في الصورة، أرى في عينيَّ مقدار الفخر الذي كنت أشعر به لكوني أمّه، الفخر بأن هذا الطفل العبقري، الجميل، كان في حياتي. وكنت أشعر وكأنه لي وحدي، وكأنني خَلَقتُهُ بيديَّ. لكن الآن أُدرك بوضوحٍ شديد أنني لم أكن أملكه يومًا، لأنني لو كنتُ أملكه حقًا، لما كنتُ لأسمح أبدًا بأن يُنتَزَعَ مني، ويُؤخَذ من هذا العالم.

كنت أظن أن الحياة تدور فقط حول الامتلاك والخلق والحفاظ على الأشياء كاملة بلا كسور. لكن الآن، عندما أذهب إلى السوبرماركت، ما زالت يدي تمتدُّ تلقائيًا نحو أربع عبوات من بودينغ الشوكولاتة في رفّ الثلاجة، كما كنت أفعل دائمًا عند الشراء لأطفالي الأربعة، مع أن أحدهم لم يَعُد هنا... وحينها فقط أدرك أن الحياة تُعلّمنا فنّ الرؤية في العتمة.

إن عيد الحانوكاه في اليهودية يُعلّمنا كيف ننظر إلى الأمور بنظرة جديدة. ولم يكن صراع المكابيين ضد الهيلينيين مجرد حربٍ على الأرض، بل كان معركةً حول نظرة كلٍّ منهما إلى الحياة، ومعنى الوجود.

وقد كان المكابيون مجموعةً من المقاتلين اليهود في القرن الثاني قبل الميلاد، الذين رفضوا الحكم اليوناني الذي حاول طمس العقيدة اليهودية وفرض الثقافة الهيلينية، فأشعلوا ثورةً للدفاع عن إيمانهم وهويتهم. فلم يكن الخلاف بينهما مجرد صراعٍ سياسي، بل كان صراعًا بين رؤيتين للعالم: إذ رأى الإغريق كمالًا في الجمال الخارجي، واعتبروا أنّ مصدر الخلاص هو قوّة الإنسان الذاتية، لا الإله. بينما آمن المكابيون بعدالة الله وخيريّته، وبأن الإيمان هو ما يمنح الحياة معناها.

فبالنسبة للهيلينيين، كان الجسد غايةً في حد ذاته، وتحفةً يجب أن تُعشَق وتُحتفى بها. أما بالنسبة للمكابيين، فكان الجسد مجرد أداةٍ لخدمة الله، ووسيلةً لا غاية.

إنّ المكابيين لم يتنازلوا عن ولائهم لله، ولا عن الالتزام بشريعته وهيكله المقدّس. وحين انتصروا وأعادوا السيطرة على الهيكل في أورشليم القدس، لم يجدوا سوى قارورة صغيرة من زيت الزيتون البكر والطاهر لأداء الطقوس، والتي لا تكفي إلا ليومٍ واحد فقط لإشعال المينوراه ،أي الشمعدان السباعي. ومع ذلك، أشعلوا النور في المينوراه، وحدثت المعجزة، فقد ظلّ الزيت مشتعلًا ثمانية أيام بدلًا من يومٍ واحد، وهو الزمن اللازم لتحضير زيتٍ طاهرٍ جديد. ولهذا، يرى الكثيرون أن جوهر معجزة الحانوكاه هو النور الذي لا ينطفئ، الضوء الذي يصرّ على البقاء رغم محدودية المادة، والذي يرمز إلى الإيمان الذي يتجاوز حدود المنطق، وإلى النظر الذي يخترق العتمة.

لكن، ربما لم تكن هناك معجزةٌ بالمعنى الذي نتصوّره. فربما كان من الممكن دائمًا لزجاجةٍ واحدةٍ من الزيت أن تكفي لثماني ليالٍ، إذا نظرنا إلى حياتنا على أنها مكانٌ لحضور الله. فحينها، لا تعود القوانين والأرقام التي تُقيّد الواقع تنطبق، ونخرج من العالم المحدود، لأن الله غير محدود. وحين نفسح له مكانًا في داخلنا، تتجلّى إمكانياته اللامتناهية فينا أيضًا. عندها، لا تعود الأرقام تقيّدنا، بل تصبح مجرد إشارات تقودنا.

يُعلّمنا عيد الحانوكاه أن ما نراه في هذا العالم ليس سوى انعكاسٍ باهتٍ للحقيقة. وأنّ أدوات قياسنا محدودة، وطرق معرفتنا ناقصة، وعالم الحقيقة لا يُمكن اختزاله في الأرقام التي نرسم بها ملامح واقعنا، إذ يُمكن لزجاجةٍ واحدةٍ من الزيت أن تصبح ثمانيًا، فالنور يتجاوز كلّ الحدود. وليس من المصادفة أن يحلّ الحانوكاه في شهر كيسليف، الذي يرتبط بالنوم والأحلام. فمع اقتراب الانقلاب الشتوي، تتزايد رغبتنا في البقاء في الفراش، وكأن النوم يُصبِح بوابةً نحو عوالم أخرى، حيث تُكشَف حقائق تعجز العين عن رؤيتها في النهار. وإنّ الكثير من المقاطع الأسبوعية للتوراة التي تُتلى خلال هذا الشهر تتمحور حول الأحلام: فيرى يعقوب في منامه سُلّمًا يصل بين الأرض والسماء، ويسمع صوت الله يخاطبه، ويحلم فرعون بأحلامٍ غامضة تحتاج إلى تفسير. إنّ الأحلام ليست مجرد أحداثٍ غامضة، بل هي مفتاحٌ إلى عالمٍ تتلاشى فيه القيود التي تُكبّل يقظتنا.

بل إن عيد الحانوكاه نفسه يتّبع منطق الأحلام، ففي النوم تزول الحواجز، وتُصبح الاحتمالات مفتوحة على ما هو أبعد من المألوف. إذ يمكن للقليل أن يُصبح كثيرًا، وللمستحيل أن يُصبح ممكنًا. والنور في الليل ليس مجرد إنارة، بل شعاعٌ عميقٌ يكشف ما تعجز العيون عن إدراكه في النهار. وهذا هو نور الحانوكاه، هذا هو نور القداسة.

ليس من السهل أن نرى في الظلام، لكننا لا نحتاج إلى الكثير من الزيت لنُبدّد العتمة. إذ يُمكن لقبسٍ صغيرٍ أن ينير أوسع الكهوف، ويُمكن لشرارةٍ واحدة أن تشعل نارًا لا تنطفئ. كما أنّ الكابالا، وهي التعاليم الصوفية في التراث اليهودي، تُخبرنا أننا مثل اللهب، فكلٌّ منا شرارةٌ تسعى للاتصال بنور شمعة الله، كي تلتقي الروح بمصدرها الأبدي.

ولكي أرى الله في حياتي، عليَّ أن أتعلم كيف أرى في الظلام. وعليَّ أن أنظر أبعد مما يظهر لي على السطح، وأن أتجاوز ما هو واضح ومُحدّد، وأن أتحرر من حسابات التملّك التي تقيس الأشياء بعددها، وأن أتعلّم كيف أرى ما هو مجهول، وغير محدد، وما يتجاوز حواسّي المألوفة. ويُخبرني عيد الحانوكاه أن ما يهمّ ليس كم سيكون عمر قوبي الآن، لأنني لن أستطيع أن أحصي سنواته بالمنطق المحدود الذي يسيطر على عالمنا في وضح النهار. فما يهمّ حقًا هو أن أُكرّس حياتي لنور روحه، وأن أجعله يشعّ داخلي، مُبقيةً ضوءه حاضرًا في أعماقي، كأنني أُضيء شمعةً لا تنطفئ.

الفصلُ السابعُ والعشرونَ

الإيمانُ

حتى بعد ستةِ أشهرٍ من موتكَ، يا ابني الحبيب وفلذةَ كبدي، كنتُ لا زلتُ أشعر أن ساقيَّ تهمّان بالمشي نحو سريركَ كلّ صباحٍ لإيقاظكَ للكنيس، كأنّني مصابةٌ بوهم الأطراف.* فجسدي قد تأخّر في إدراك غيابكَ، وظلّ يتوجّه نحوكَ، كما تميل الزهرةُ إلى النور. وإنّ ساقيَّ الواقعتين تحت تأثير ذلك الوهم كانتا لا تزالان تسيران إلى البابِ لاستقبالكَ عند عودتكَ من المدرسة، ولتحضرا لك الشيبس والصلصة حين تعود إلى البيت.

وفي تلك الفترة، عندما كنتُ أمشي نحو الكنيس، كنتُ أرى أصدقاءكَ وقد بدأت كتلتهم العضلية تزداد وعودهم يشتدّ بينما تطول قامتهم ،بحيث صاروا شيئًا فشيئًا يشبهون الرجالَ أكثر من الأولاد. وكان زوجي سيث يكرّر دومًا أنه يراهم ينمون أسبوعًا بعد أسبوع، ويلاحظ التغييرات الطفيفة في ملامحهم، وكيف أصبحت أكتافهم أعرض، وازدادوا طولًا وعرضًا، وكيف نحتت الأيامُ وجوهَهم. وكلّما شهدتُ ذلك، كان ألم الفقدِ يتّسع في داخلي، كالنارِ التي تشتعل في غابةٍ يابسةٍ أنهكها الجفاف لسنين.

كنتُ أدخل الكنيس وأجلسُ مع صديقاتي، وفي ذلك شيءٌ من الحماية لي من الوجع، ففي الكنيس يجلسُ الرجالُ والنساءُ كلٌّ في قسمٍ منفصل، ولم تُتَحْ لي الفرصةُ يومًا أن أجلسَ إلى جانبِ ابني الحبيب قوبي، لكنّ زوجي سيث فعل. ولهذا، صار الكنيسُ بالنسبة إليه كمطرقةٍ تضرب جبهته، إذ إن رؤيتَه للأولادِ هناك تزيد من شوقِه لابنه.

كنتُ أنظرُ أحيانًا عبر الحاجز الفاصل بين قسم الرجال والنساء في الكنيس، وأتذكّر كيف كنتُ أراقب ابني قوبي وهو يُصلّي هناك، في قسم الرجال. لقد كان يقفُ إلى جانب النافذة المفتوحة، التي تطلّ على جبل الهيروديوم مخروطيّ الشكل، والذي أقيم عليه قصر الملك هيرودس. وقد كان قوبي يُصلّي بحرارةٍ وشغفٍ جعلاني أتساءل: من أين جاء هذا الإيمان العميق داخله؟ وكان يرتدي قميصًا أزرق، رغم أنّ التقاليد هنا تقتضي ارتداء قميص أبيض في الكنيس، وأتذكّر أوّل مرّة صلّينا فيها في بلدة إفرات، بعد أن انتقلنا للعيش في إسرائيل. ففي يوم الشّبات الأول لنا هناك، ذهب زوجي سيث والأولاد إلى الكنيس، وكان هناك نحو أربعمئة رجل وولد، جميعهم يرتدون القمصان البيضاء، ما عدا قوبي. وعندما خرجوا من الكنيس، قال

---

*ملاحظة توضيحية من المترجم: "وهم الأطراف" أو "ألم الطرف الوهمي" هو شعور من بُتِرَ أحد أطرافه بأن ذلك الطرف لا يزال موجودًا ويُسبب له الألم، وتستخدم الكاتبة هذا الوصف مجازيًا.

له زوجي سيث: "أتعلم، ربما تفكّر في تغيير قميصك الأسبوع القادم." فنظر إليه قوبي بدهشة وسأله: "لماذا، يا أبي؟"

لم يكن قد لاحظ ما يفعله الآخرون، ولم يشعر أصلًا بالحاجة إلى ذلك. ولم يكن بحاجة إلى موافقة الآخرين، ولم يكن يحاول أن يكون مختلفًا، أو أن يَلفت النظر، أو يتمرّد على التقاليد. فقد كان فقط كما هو... على طبيعته. ويفعل ما يشعر أنه صائب، لا أكثر. وفي هذه الحالة، كان يحبّ اللون الأزرق، فارتداه.

ولهذا السبب، لم يكن يخجل من مرافقتي في الأماكن العامة، حتى وهو في سنّ المراهقة. ولم يكن يهمّه إن كان قضاء الوقت مع والدته قد يبدو "غير عصريٍّ" (uncool) في هذه السنّ، ولم يشعر بالإحراج مني، كإخوتِه في مراهقتهم.

أما أنا، فنادرًا ما كنت أذهب إلى الكنيس في طفولتي. وكنتُ أذهب أحيانًا فقط لأن صديقاتي، اللواتي أُجبِرن على حضور الصلاة، كنّ هناك صباح السبت. لكني لم أدخل يومًا إلى قاعة الصلاة، بل كنتُ أتوجّه إلى حمّام النساء، حيث كنّا نجلس هناك ونتخيّل أنّ لدينا قدرات خارقة نحاول بواسطتها أن نرفع الناس في الهواء، أو كنّا ندخّن السجائر، ونجرب الكريمات والعطور المتبقية من سلّة الهدايا التي تُترك عادةً في الحمّام بعد حفلات الزفاف. فلم تكن الصلاة تخطر ببالي أصلًا.

بعد مقتل قوبي، كنتُ ألجأ إلى "السيدور"، وهو كتاب الصلاة اليهودي، وأجد فيه قصتي. وقرأتُ المزامير التي كنتُ أزدريها في الماضي، وهناك أيضًا وجدتُ حكايتي. وقد خاطبني هذان الكتابان بقوة المأساة والفداء معًا. وفي المزمور السادس، قرأتُ:

"ٱرْحَمْنِي يَا ٱللَّهُ لِأَنِّي ضَعِيفٌ، ٱشْفِنِي يَا رَبُّ لِأَنَّ عِظَامِي قَدِ ٱرْتَاعَتْ.
وَنَفْسِي قَدِ ٱرْتَاعَتْ جِدًّا، وَأَنْتَ يَا رَبُّ فَإِلَى مَتَى؟
ٱرْجِعْ يَا رَبُّ، نَجِّنِي. خَلِّصْنِي مِنْ أَجْلِ رَحْمَتِكَ.
لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَوْتِ ذِكْرُكَ، فِي الْهَاوِيَةِ مَنْ يَحْمَدُكَ؟
تَعِبْتُ فِي تَنَهُّدِي. أُعَوِّمُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ سَرِيرِي، بِدُمُوعِي أُذَوِّبُ فِرَاشِي.
ٱبْعُدُوا عَنِّي يَا جَمِيعَ فَاعِلِي ٱلْإِثْمِ، لِأَنَّ ٱلرَّبَّ قَدْ سَمِعَ صَوْتَ بُكَائِي."

وقد أدركتُ أن قصّة مأساتي هي قصة قديمة عانى منها اليهود من قبل، تتكرر بألم مرارًا وتكرارًا. ولكن في الوقت نفسه، أشعر أن الله سبحانه وتعالى يسمع بكائي، وأنه يتألم عندما أبكي. لذا، أصلي، لكني أخلط بين الله وابني قوبي؛ أعني أني أصلي إلى الله ليحمي ابني هناك في السماء، لينقذه، ولكن ماذا يعني ذلك الآن؟ أصلي إلى الله سبحانه وتعالى ليعتني به الآن كما اعتنيتُ به في هذا العالم، ولكن الحقيقة أني لا أعرف كيف أتحدث إلى الله عن قوبي، لأنه ماذا يمكنني أن أطلب منه؟ هل أطلب منه أن يكون قريبًا من ابني، وأن يحميه؟ لا أعرف ماذا يعني ذلك في السماء بالضبط. لذا، حين أصلي، فإنني بالأحرى أطلب من قوبي أن يساعدنا، أن يساعدني في تحمل الألم، وأن يساعدني وأطفالي وزوجي على الاستمرار.

إنّي أكافح لأتمسك بإيماني بعدالة العالمِ الذي خلقه اللهُ، وأركز كل جهودي على الإيمان بأن الله خير، لأنني لا أستطيع أن أؤمن بغير ذلك. فما من شيءٍ يحدثُ لنا عبثًا. وكيف يكون ذلك، والعالَمُ من حولِنا يشبه قطعةً موسيقيةً معزوفةً بإتقان شديد؟ أفلا نكونُ نحن أيضًا جزءًا من هذه المعزوفة الدقيقة؟ ورغم أنَّ قلوبَنا وحدها تستطيعُ أن تُصغي إلى تلك الموسيقى، أظنُّ أنَّ الطيورَ تسمعها في

الصباح، ولذلكَ تُغنّي. وفي أعماق روحي، أشتاق الآن إلى الفداء، إلى ذلك الشيء المقدس، وأشتاق إلى أن أُكَرِّسَ أسمى ما فيّ لهذا العالم .

لهذا أحتاج إلى الكلمات في كتاب الصلاة. وأصلي إلى الله سبحانه وتعالى الذي، في الكلمات التي نتلوها في بركات الصباح، 'يكسو العراة'، كي يضع غطاءً على ألمي المكشوف. أصلي إلى الله الذي 'يحرر المقيدين'، ليحررني من الألم الهائل، من التدهور، من الغرق في اليأس. أصلي إلى الله الذي 'يعطي القوة للمنهكين' وأقول له إنني متعبة، ومنهكة بالألم الذي يسكنني كصخرة ثقيلة. وأصلي أن يبقيني الله على قيد الحياة، ويحفظ لي قوّتي، كما وردَ في المزمورِ الثامنِ عشر من سفرِ المزامير: "تُوَسِّعُ خُطُواتِي تَحْتِي فَلَمْ تَتَعَثَّرْ كَعْبَايَ وتَشُدُّنِي بِالْقُوَّةِ".

حين كنتُ أصلّي ذات مرّة، تذكّرتُ فجأةً قوبي في يوم احتفاله بالبار ميتسڤاه، وكان، طبعًا، يرتدي الأزرق... كما في كلّ مرة. وقد برز قميصه الأزرق الجميل في ذلك اليوم، كما يبرز الخيط الأزرق في التزيتزيت، وهو الثوب الذي يرتديه الذكور المتديّنون من اليهود عادةً تحت ملابسهم، وهو يذكّرنا بوصايا الله. وفي كلّ زاوية من زواياه الأربع، تُربط خيوط طويلة، وفي بعض الحالات يُضاف خيط أزرق، الذي يرمز إلى السماء والبحر واللانهائية.

وفي كتاب A Thread of Blue ("خيط من الأزرق")، الذي كتبته جودي بيلسكي بعد موت ابنها المراهق، تُشبّه فيه موت ابنها بذلك الخيط. فالموت هو الخيط الأزرق الذي يُبرز بياض شال الصلاة الذي يرمز إلى ما تبقّى من حياتنا. "هدية الخيط الأزرق"، كما كتبَتْ، "هي كلّ هذا الألم الممتزج بكلّ النِعم التي نجدها في الحياة."

حين تنجذب عيوننا إلى اللون الأزرق في الشال، إلى التباين بين الأبيض — الذي يُمثّل ما بقي — وبين ما فُقِد، نبدأ بالنظر إلى العالم بطريقة مختلفة. وفي مذكّراتي، كتبتُ بعد موت قوبي:

"يبدو أن كلّ ما أريده في هذه الحياة قد تكسّر، ومهما حاولت، لا أستطيع إصلاحه. سأظلّ معلّقة بحبل المشنقة، أتأرجح حيّة لبقيّة حياتي... لأنك، يا ابني الحبيب، قد مِتَّ."

وفي كلّ مرّة أختار فيها الحياة، أشعر وكأنني أنهض من الموت لأُمنح حياة جديدة. يُقدِّم بياض الحياة العاديّة نفسه كمرسى ومصدر عزاء، كسرير نظيف بملاءات مغسولة، والنسيم يحرّك الستائر... تتألق لحظات الحياة هذه لأنني أنظر إليها من عمق الألم، فتحوّلها نظرتي إلى موطنٍ للراحة. ويلمع بياض الحياة العاديّة على خلفيّة الوجع الذي نحمله، فنتعلّم أن نُقدّر أولادنا وأزواجنا. وإنّ إعدادي الشاي لأطفالي في الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة يمكن أن يبدو لي أمرًا قيّمًا للغاية... وهنا تتجلّى جمالية الخيط الأزرق.

تُظهر الصورة شيري جالسة على صخرة بجانب الماء مع صديقتها ومستشارتها شيراه

الفصلُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ

لُغَةُ اللهِ

أعلمُ يقينًا أنَّ اللهَ يُخاطبُني، وأشعرُ بذلك، لكن صوتَه أحيانًا صامتٌ، وأحيانًا أخرى يشبه التمتمة، وعليَّ أن أواصلَ التعلُّم، لأُميِّزَ لغتَه ورسائلَه. وعليَّ أن أبقيَ قلبي مفتوحًا، كي أستقبلَ ألوهيَّتَه.

في زمنِ التوراة، حينَ جاءَ الملائكةُ إلى إبراهيم، كانت خيمتُه مفتوحةً من الجهاتِ الأربع، على استعدادٍ دائمٍ لاستقبالِ الضيوف. وعلى الرغمِ من أنَّه كان قد خضعَ للختانِ قبلَ ثلاثةِ أيام فقط، وكانَ يتألَّم، فقد استقبلَ الزوّارَ بحفاوة، وسارعَ إلى إطعامِهم وغسلِ أقدامِهم. وجاءَ في الآيتينِ الأولى والثانية من المقطعِ الثامنِ عشر من سفرِ التكوين: "وَتَجَلَّى لَهُ ٱللَّهُ، فِي مَرْجِ مَمْرَا، وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَ بَابِ خَيْمَتِهِ وَقْتَ حَرِّ ٱلنَّهَارِ. فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَرَأَى، فَإِذَا ثَلَاثَةُ رِجَالٍ وَاقِفِينَ أَمَامَهُ، فَلَمَّا رَآهُمْ، رَكَضَ لِاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ ٱلْخَيْمَةِ، وَسَجَدَ عَلَى ٱلْأَرْضِ."، وليس واضحًا إنْ كانَ اللهُ قد تَجلّى أوّلًا، ثم جاءَ الرجالُ الثلاثة، ولا إن كانوا رسلًا من البشر أو من الملائكة أرسلهم اللهُ عزّ وجلّ، فالكلمةُ العبريّةُ "مَلآخ" (ملاك) تعني رسولًا، أي كلّ مَن أُرسِلَ بمَهمّةٍ إلهيّةٍ إلى هذا العالم.

وأشعرُ الآنَ أنّني حيثُما نظرتُ، أرى هؤلاءِ الرُّسُل، هؤلاءِ الملائكة. آه، لقد كانوا هنا، مصطفّينَ في انتظاري منذ زمن، لكنَّني لم أكنْ أُدركُ ذلك.

أوَّلُ مَن يخطرُ في بالي هي صديقتي شيراه، التي تدرَّبتْ في الأصلِ على تقديمِ الدعمِ الروحيّ، وهي تعملُ في إسرائيلَ أخصائيةً في التدليكِ العلاجيّ، كما أنّها أيضًا مُدرِّسةُ اللغةِ الإنجليزيّةِ لأولادي. ومنذ مَقتلِ قوبي، أصبحتْ شيراه المعالِجةَ المُرافِقةَ لي في حياتي. فخلال الشهرينِ الأوّلينِ بعد الجريمة، كانتْ تزورني كلَّ يوم، فتجلسُ معي، وتُحادثُني، وتسألُني عن تفاصيل يومي.

فالحزنُ يمكنُ أن يُشبهَ الذُّعرَ والخوف، والقلقَ الذي يلامسُ حافّةَ الجنون. وكم من أيّامٍ شعرتُ أنّني أغرقُ في دوّامةٍ من الألم، مرتعبةً من أن أُدفنَ فيها، لكنّي كنتُ أعلمُ أنَّ شيراه ستأتي لتُحادثني، وهذا وحدَه منحَني ترفَ الانغماسِ في الألمِ مطمئنَّةً أنّ هناكَ مَن سيمدُّ يدَه لينتشلَني.

بعدَ بضعةِ أشهرٍ من مقتلِ قوبي، ذهبتُ لأُعزِّي امرأةً لا أعرفها في بيتِها، اسمُها مريام. إذ قُتِلَت ابنتُها شوشي، ذاتُ الستةَ عشرَ عامًا، عندما أطلقَ الإرهابيّون النارَ على الحافلةِ التي كانتْ تُقلُّها عائدةً من مدرستِها في أورشليم القدس. وقد قالت لي مريام، حين جلستُ بقربها، إنّها لم تأكلْ ولم تنمْ منذُ ثلاثةِ أيّام.

ثمّ اقتربتْ منها امرأةٌ تكبرُني قليلًا، بعينَينِ طيبتَينِ وصوتٍ هادئ، وقالتْ لها إنَّ قطعةً من قلبِها هي الأخرى قد انكسرت، ثمّ أضافت: "رجاءً، اتّصلي بي إنْ رغبتِ في الحديث". فقلتُ لها: "بل يجبُ عليكِ أنتِ أن تتّصلي بها، فهي بحاجةٍ إليكِ"، فقد علّمتني شيراه أن علينا نحن أن نَقصِدَ المرأةَ التي تتألّم، ونذهبَ إليها، ونفسح لها مجالًا لها لتُفرِّغَ ألمَها. وعلّمتني أنّ علينا ألّا نربتَ على كتفِها قائلين لها إنّ كلّ شيءٍ يكون بخير. بل أن نقول لها إنَّ هذا يُوجِعُ حقًّا، وإنّهُ وجعٌ عصيبٌ لا يراهُ أحد، لكنه قابعٌ في داخلِها، وإنَّ كونَه غيرَ مرئيٍّ لا يجعلُه أقلَّ قسوة، وإنّ هذا الألمَ سيأخذُ وقتَه، كما يشاء، حتّى يندمل.

بعدَ شهرينِ من مقتلِ قوبي، قالتْ لي شيراه: "أنتِ الآنَ كطفلةٍ في الشهرِ الثاني من عمرِها، عليكِ أن تتعلّمي الزحفَ والمشيَ من جديد، وأن تُحمَلي كالأطفال." وحقًّا، لقد حملتْني، وأتاحتْ لي أن أحزن. لقد رأتْني على حقيقتي، أمًّا مفجوعة، فاحترمتْ هذا الواقع، ومنحتْهُ المساحةَ ليظهرَ بكاملِه، وأتاحتْ لي أن أُعبِّرَ عنه دونَ خوفٍ أو خجل.

وهذا بالضبط ما يحتاجُهُ كلُّ إنسان، سواءٌ أكانَ في حدادٍ أم لا: أن يجدَ مَن يُنصتُ إليه ويرى حقيقتَه، لا مَن يَفرِضُ عليه تصوّراتِه عمّا ينبغي أن يكون. فالإنسان يتوق لمن يحبُّه في وجعِه، في حزنِه، وفي عُريِه.

وكان هناك ملاكٌ آخر في حياتي: ڤاليري، وهي أمٌّ لسبعةِ أطفال، كانتْ تتّصلُ بي خمسَ مرّاتٍ في اليوم، وبقيتْ إلى جانبي ليلًا ونهارًا خلالَ أيّامِ الـ"شِيڤعاه" السبعة. وكانتْ تأتي إلى بيتي كلَّ صباحٍ لتُعدَّ لي بيضًا مخفوقًا، وتدعوني للعشاءِ كلَّ ليلةِ شبات. وطوالَ السنةِ الأولى، لم يمرّ يومٌ دون أن تُهاتفَني وتغمرَني بحبٍّ غير مشروط، كما ينبغي للأمِّ أن تحبَّ طفلَها. لقد كانتْ تعرفُ ماذا تقولُ، وماذا لا تقول، ومتى تتكلَّم، ومتى تصمت، ولم تخفْ من ألمي، ولم تحاولْ أن تُهوِّنَه، ولم تُقلِّلْ من شأنِه. فقد كان عطاؤها لا ينضب، وما زالتْ على العهد حتّى اليوم.

كثيرًا ما يقولُ لي الناس: "لا نعرفُ ماذا نقول". لكنْ حتى حينَ لا يعرفونَ ماذا يقولون، فإنّ بعضَهم يعرفُ تمامًا ماذا يفعل. فإحدى جاراتي، لم تجدْ ما تقوله، لكنها دخلتْ بيتي ونظّفته، وغسلتْ ملابسي، ونشرتْ الغسيل. وفي إحدى الليالي، نزلتُ إلى الطابقِ السفلي من منزلي، فإذا بجارةٍ أخرى، خرّيجةِ جامعةِ هارفارد المرموقة، تغسلُ أرضيّةَ البيت وتُنظّفُ الحمّام.

أنتم، يا قرّائي الأعزّاء، قد لا تجدونَ الكلمات، وقد لا تعرفونَ ماذا تقولون، لكن في أعماق كلٍّ منكم شيءٌ جوهريٌّ تستطيعونَ تقديمه لِمَن يمرُّ في فترة حداد. ففي داخلِ كلِّ إنسانٍ نبعٌ بوسعه أن يجودَ، إنْ لم يَخَفْ من الألمِ القابعِ على الجهةِ الأخرى.

أنا أعلمُ أنَّ الذينَ ساعدوني ليسوا ملائكةً بالمعنى الحرفي، لكن يُقالُ إنَّ اللهَ يُرسلُ ملائكةً ليمسكوا بنا حينَ نكاد نتعثَّر، ولولا ملائكتي، هؤلاءِ الملائكةِ البشريّين، لكنتُ ما زلتُ طريحةَ الفراش، خائفةً من النور، والبشر، ومن أن يرى أحدٌ التمزُّقَ الكامنَ في داخلي.

الملائكةُ قد يأتوننا حيثُما نكون، لكنَّ الأمرَ يتطلَّبُ منّا أن نكونَ مستعدّينَ لتلقّي الرسالةِ الإلهيّةِ التي قد يحملُها إلينا كلُّ إنسان. وكثيرونَ منّا قد يكونونَ ملائكة، لكنَّنا نتردَّدُ في أداءِ "وظيفتِنا"، أي مهمّتنا كملائكة، فأن يكون أحدُنا ملاكًا معناهُ أن يؤمن بأنَّ لديه ما يمنحهُ للآخرين.

وأحيانًا أشعرُ أنَّ كلَّ لحظةٍ هي فرصةٌ للقاءِ ملاك، وما دمتُ أعلمُ أنَّ لا شيء يتكرَّر، فكلُّ لحظةٍ في هذا العالمِ هي كشفٌ فريد، ولحظةٌ لا تتكرَّر. وعندما ننظرُ إلى العالمِ بهذه الطريقة، فإنَّهُ لا يكفُّ عن العطاء، ويظلُّ يُغدِقُ علينا بالمزيدِ والمزيد.

بفضلِ ملائكتي، أستطيعُ أن أحتملَ ألمي، وأتعايش معه. وقد أدركتُ أنَّ الحبَّ موجودٌ حتّى في المعاناة. فالألمُ قد يكونُ طاغيًا إلى درجةِ عجزي عن حملِه وحدي، لكنَّ ملائكتي يُساعدونني على حملِه. وبالتأكيد، سأشتاقُ إلى ابني إلى الأبد، لكنَّ في ألمي جمالًا، وفي الأيادي التي امتدَّتْ لمساعدتي جمالٌ أيضًا.

فالثُّقبُ إما أن يُترَكَ مُمزَّقًا ومُهترئًا، وإما أن يُنسَجَ منه نسيجٌ جميلٌ، كالدانتيل. ويقول الشاعر الإسرائيليُّ يهودا عميحاي في قصيدته "التربص بالسعادة" من ديوان "السكينة الكبرى":

"روحي مُمزَّقةٌ ومشقوقةٌ كما روحُك، لكنها جميلةٌ أيضًا بسببِ ذلك، كالدانتيل الرقيق."

الفَصلُ التّاسِعُ وَالعِشرُون

الإِشَاراتُ وَالأَحلَامُ

جاء عيد "سِمحات توراه" الأول بعد مقتل قوبي، وأنا في حالٍ من الشلل العاطفي، حتى إنني بالكاد كنتُ أستطيع الحركة. وفي هذا العيد الذي يعني اسمه "فرحة التوراة"، نُكملُ دورةَ قراءة أسفارِ التوراة الخمسة، ثم نبدأُ من جديد .

فأخذتُ أتذكّر كيف كان هذا العيد في السنواتِ الماضية، حينَ كانَ قوبي يحملُ أخاهُ الصغيرَ غافي على كتفيه، فيرقصُ به في الكنيس، ويدورُ في حلقاتٍ لا تنتهي مع سائرِ الرجالِ والأطفال. وكان شريط ذاكرتي يعرض لي مشاهد لقوبي وهو يحملُ زيئيفي، صديقَ غافي المقرّب، وأطفالًا آخرين، بوجهٍ محمرٍّ ومشرقٍ، تغمرُه السعادة. لكنني بعد موته، لم أعد أحتملُ حتى اسمَ هذا العيد الذي يحملُ الفرحة بين حروفه. وقد كنتُ أجهلُ كيف سأصمدُ في هذا اليوم من الفرحِ، الذي يُشعلُ فيَّ رغبةً في غرسِ الخناجرِ في الأشجار!

في ذلك اليوم، رنّ جرسُ الباب، ففتحتُه، فإذا بتانيا أمامي وهي فنانةٌ قدمت من جنوب أفريقيا، وأمٌّ لثلاثةِ أطفالٍ صغار. وقد جاءت لتزورني، فقط لتسألني بلطفٍ عن حالي، وكيف أمضي أيّامي. وقد كنتُ أعلم أن والدتَها ماتت في سنٍّ مبكرةٍ بسرطان الثدي، فسألتُها إن كانت قد تلقّتْ أيّ إشاراتٍ من والدتها بعد موتها.

فأجابت: "إشارةٌ واحدةٌ فقط. وكان ذلك في يومِ الشبات الذي تلا موتَها. ففي ذلك اليوم، أشعلتُ الشموعَ وصلّيتُ، وتضرّعتُ إلى الله عزّ وجلّ أن يمنحني إشارة، وفجأةً رنّ جرسُ الباب. فركضتُ نحوه، لكن لم يكن هناك أحد. وقد كنّا نعيش في بيتٍ يطلُّ على ممرٍّ خارجيٍّ طويلٍ يصلُ إلى بابِه، ولو كان هناك أحد، لكنتُ رأيتُه، لكن لم يكن هناك أحدٌ أمام الباب."

إنّي مستعدّةٌ لأن أستقبل إشاراتٍ من النبيّ إلياهو (إلياس)، ومن الملائكة، ومن الجُدْجُدِ (صرصورِ الليل)، ومن الشُهُب، وكذلك من المشيح الذي أُؤمنُ به. لكن من جرسِ الباب؟ هذا يبدو لي شيئًا من عالمٍ آخر، وأمرًا غريبًا حتى بالنسبة إليّ! وبَعد أسبوعٍ من حديثي مع تانيا، دخلتُ إلى بيتِ صديقتي ڤاليري، وفجأةً رنّ جرسُ الباب، وقد كان الباب لا يزالُ مفتوحًا إذ لم أكن قد أغلقتُه بعد أن دخلتُ، لكن لم يكن هناك أحد. فقالت ڤاليري: "هذا غريب. نحنُ أصلًا لا نملكُ جرسًا للباب."

وما قصدتْه أن الزرّ نفسه مفقود، وأن حزمةً من الأسلاكِ تتدلّى من مكانِ الزرّ المفتوح. ثم تابعت قائلة: "لو اقترب أحدٌ من البيت، لكُنّا سمعنا صوته." وحين نظرتُ إلى أعلى الدرج، لم أرَ أحدًا. عندها قالت ڤاليري: "إنه قوبي."

قلتُ في نفسي بشيءٍ من الشك: ربما كانت محقّة. فالجرسُ والجُدْجُدُ يشتركان في شيءٍ واحد: أنّ كِلَيْهما يُوقظُنا. وربما كانت تلك الإشارات تحاولُ أن تُوقظني، وتُقوّي إيماني بأنّ للروحِ حياةً لا تموت. وربما يريد ابني الحبيب قوبي أن أُصدّقَ أننا ما زلنا على صِلة معًا، رغم أنّه قُتل. وكأنّه يريد أن يقول لي: "أنا هنا يا ماما، ما زلتُ هنا."

ثم جاءني قوبي في المنام ليُخبرني بذلك بالضبط.

فقد رأيتُ في حلمي أنّني أنجبتُ طفلًا جديدًا، لم يتعدَّ عمره بضعة أيام، لكنه كان يمشي! قلتُ في نفسي بدهشة: يا له من طفلٍ سابقٍ لعمره! ثمّ نظرتُ حولي، فعدَدتُ أطفالي وكانوا خمسة، وجميعهم معي هنا. فغمرني شعورٌ رائع، كأنّ كلّ شيءٍ عادَ إلى موضعه الصحيح، والدنيا استعادت توازنها.

وفي الحلم، قال لي قوبي: "ماما، عندي امتحان في المدرسة، وأحتاجُ أن توصِليني."

فتركتُ بقيّة أولادي في البيت، وقُدتُ السيارة حتى أوصلتُه إلى المدرسة. وبعد أن دخلنا إلى مكتب الإدارة، أشارت السكرتيرة إلى القاعة التي سيؤدّي فيها الامتحان. وحين بدأ يتّجه نحو القاعة، التفتَ إليّ وقال: "ماما، أحتاج أن تبقي معي أثناء الامتحان." ورغم أنّه كانت لديّ أعمالٌ كثيرة تنتظرني في البيت، لكن... إن كان يحتاجني، فسأبقى. ثمّ ابتسم لي، ودخلَ القاعة ليُجري امتحانه. فجلستُ في المكتب وانتظرتُه.

وحين استيقظتُ من النوم، شعرتُ بالسكينة. فقد كنتُ معه، وكان هو أيضًا معي. ورغم أنني أكن أراه، إلّا أنني كنتُ أعلم أنه في الغرفة المجاورة، يُؤدّي امتحانَه، وكنتُ واثقةً أنه سينجح فيه، وبعلاماتٍ عالية.

وأنا أيضًا أُجري امتحاني في الإيمان، وعليّ أن أستمرَّ، وأن أُصدّق أنّ قوبي ما زال معي، رغم أنني لا أراه. وسأبذلُ كلَّ ما بوسعي لأجتازَ امتحاني، لأننا نخوضُ امتحانَينا معًا.

شيري وابنُها قوبي في الخلف، وفي الأمام، من اليمين إلى اليسار: دانيئيل، وإليعانه وغاڤي

الفصلُ الثّلاثونَ

العائِلَةُ

"الموت صعبٌ على من يموت، لكنّه أشدُّ وقعًا على مَن يُخلّفهم وراءه"، قالها قوبي قبل موته بشهرين فقط، بعد مَقتَلِ طالبَيْن في المدرسة الثانوية على يد إرهابيّين.

والآن، بعد مقتل قوبي، أشعر أنّ عائلتنا قد قُذِفَت عاليًا في السماء، وهي تهوي متخبّطةً في الهواء. وبينما نسقط إلى الأسفل، نحاول أن نتشبث بأيدي بعضنا البعض، لكننا نُنتَزع من بعضنا أحيانًا رغمًا عنا ،حين يحاول كلٌّ منّا أن يجمع شتاته ويُعيد ترتيب نفسه. إنّنا نسقط ،أحيانًا برفق، وأحيانًا بعنف، ومعنا "مظلّات" تُبطِّئ سقوطنا، مثل الروتين، والأصدقاء، وإيماننا، وعملنا... فكلّ واحدةٍ منها تُهوِّنه علينا، وتُعيننا على الاحتمال. لكنّ هذه المظلّات، في أوقاتٍ كثيرة، لا تنفتح، فنجد أنفسنا في سقوطٍ حرّ، متسائلين كيف سنبلغ الأرض دون أن تتكسّر عظامُنا كلّها. وحتّى إن بلغناها، لا ندري إن كانت أقدامُنا ستحتمل الوقوف، أو إن كانت ستقوى على السير فوق تُرابٍ فَقَدْنا عليه كلّ شيء.

صديقتي هاداساه، وهي أمٌّ لعشرة أطفال، قالت لي مرّةً إنّها تُحبّ أبناءها جميعًا، وإنّ حبّها لهم لا يُقاس بالأقلّ أو الأكثر، بل هو فقط مختلف مع كلٍّ منهم. لكنّني أنا، لا أستطيع أن أحبّ أحدًا كما أحبّ قوبي، وكذلك زوجي وأولادي، لا يستطيعون أن يحبّوا أحدًا كما أحبّوه، ولن يجدوا من يُحِبَّهم ثانيةً بذلك الشكل الفريد الذي كان قوبي يحبّهم به.

لقد اهتزَّ مكانُنا وتوازنُنا وثباتُنا في هذا العالم. وصار الشرّ واقفًا أمام وجوهِنا، والموتُ يبيتُ في أسرّتِنا.

في ليلة جنازة قوبي، دخلتُ غرفةَ ابنتي إليعانه، التي كانت في العاشرة من عمرها آنذاك، لأحاول أن أواسيها. كنّا على سريرها، شعرُها الداكن كان مبعثرًا، وعيناها تنظران إليّ برقّةٍ لا حدود لها. وقد حاولتُ أن أُخفّف عنها، فإذا بي أنا مَن يتلقّى العزاء منها. إذ أخذتْ تُدلّك ظهري وسألتني إن كنتُ أريد أن تُحضِر لي كوبًا من الشاي. فقلتُ لها: "أنا الأم، ومن واجبي أن أعتني بكِ". فأومأت برأسها وقالت بهدوء: "لا، أنا أمُّكِ". فأجبتُها بإصرار: "لا، ما زلتُ أنا الأم. هذه أيّامٌ صعبة، لكنّنا سنتجاوزها، وسنُكمِل الطريق، وسأبقى أمّك". لكنها قالت: "لا، أنا سأكون أمَّك!" فقلتُ لها بثبات: "أنا الأم وأعلم أننا نعيش الآن وقتًا عصيبًا، لكنّكِ ابنتي، وسأعتني بكِ". فسكتت لحظة، ثمّ قالت: "حسنًا... إذًا سأكون جدّتكِ".

بعد بضعة أشهر من مقتل قوبي ،طلب أحدُ المُخرجين من إليعانه أن تُحدّثه عن ذكرياتها مع قوبي، وكان ينوي تصويرها لكنّها رفضت. فقد سبق لإحدى القنوات أن صوّرتها دون إذن، وقد أدركتْ منذ ذلك الحين كيف يمكن للإعلام أن يقتحم خصوصيتنا، وأن يسرق براءتنا وأرواحنا. في تلك الفترة، كنّا أنا وزوجي سيث نتحدّث أمام الكاميرا عن قوبي، عن روحه الجميلة، وذكائه، وشخصيته المرحة. وعندما عدتُ إلى المنزل بعد أحد تلك اللقاءات، قالت لي إليعانه: "تعرفين أنه لم يكن ملاكًا، أليس كذلك؟" فقد اعتادت أن تكون صوت الحقيقة لنا ،رافضةً أن تُحوّل قوبي إلى أسطورة. وقد قالت للمخرج إنّه لا توجد لديها ذكريات خاصّة معه، فهو ببساطةٍ أخوها، وكانا يأكلان معًا، ويتشاجران أحيانًا. ولم يكن بطلًا بالنسبة لها، بل كان فقط... أخاها، وهي بكلّ تأكيد تشتاق إليه، تشتاق لأخيها الذي كان يجلس بجانبها على مائدة العشاء، والذي كان يُمازح صديقاتها ويجعلهنَّ يضحكنَ.

لكن بالنسبة لغاڤي، الذي لم يكن قد تجاوز السادسة من عمره، كان قوبي بطلًا حقيقيًا. فقد كان يعتني به كثيرًا، خصوصًا في تلك السنة التي عملتُ فيها بدوامٍ كامل ككاتبة في أحد المواقع الإلكترونيّة. وبما أنّ الفارق بينهما ثماني سنوات، لم يكن بينهما أيّ تنافسٍ أو غيرةٍ من ذلك النوع المعروف بين الإخوة. وكان غاڤي يُقلّد طريقة حديث قوبي، ويردّد عباراته، مثل: "That's really sick!" أي "هذا مُقرف فعلًا!" أو كان يُلقي نُكتةً أخبره إيّاها قوبي. وفي فقدان قوبي، فقدنا أنا وغاڤي نوعًا نادرًا من الحبّ... حبًّا نقيًّا خالصًا.

بعد شهرٍ ونصفٍ من مقتل قوبي، خرجتُ في نزهةٍ مع غاڤي وصديقتي العزيزة شيراه. كانت كلبتُنا معنا، طليقةً بلا رباط، وفجأة قال غاڤي بصوتٍ حادّ: "اربطيها!" فهدّأتُه، وقلت له إنّ الأمور على ما يرام، وإنني دائمًا أخرج معها دون رباط.

لقد كنا نسير على الطريق المُطلّ على الوادي، وما إن أبصره غاڤي حتّى انفجر في بكاءٍ مرير، وقال: "أتريدينها أن تموت؟!" فأجبته: "لا، طبعًا لا أريدها أن تموت." فأكمل: "ستدخل في شجار وتموت! ألستِ خائفةً عليها؟!" قلتُ له: "أنا خائفة، لكن لن يحدث لها شيء. هل أنت خائف؟"

حينها أخبرني أنه يخاف من العرب الموجودين في الوادي، وأنهم قد يصعدون ويقتلوننا نحن أيضًا. وقد حاولتْ شيراه أن تطمئنه بقولها إنّ هناك الآن دوريات أمنية تحرس الوادي، لكنه لم يقتنع، وقال لها: "لكن يُمكِن أن ينزل شابٌ عربيٌّ هناك ويختبئ خلف صخرة".

فقلتُ له: "أنا كنتُ أخاف على قوبي، وأنا الآن أخاف عليك. وسأبذل قصارى جهدي كي لا يصيبك مكروه. إنّ قوبي لم يمت بسببي، ولا بسببك، يا غاڤي. فقد مات لأن الإرهابيّين هاجموه، وهذا ليس ذنبنا."

وكم وددتُ أن أقول له إنني لن أسمح بأن يحدث له أيّ مكروه ،لكنّه — وهو لم يتجاوز السادسة من عمره — كان قد أدرك أنّني لا أملك القدرة على حمايته من كلّ الشرّ الذي يسكن هذا العالم.

أما ابني الآخر، دانيئيل، وكان يبلغ من العمر اثني عشر عامًا آنذاك، فقد تلقّى دعوةً للمشاركة في مخيّمٍ صيفي للأولاد في أمريكا. لكن ما إن وصل إلى هناك، حتّى رفض أن يفتح حقيبته ويُفرغ منها أغراضه.

فاتّصل بي المشرف العام على المخيّم وسألني عمّا يجب فعله، فقلتُ له: "اتركوه على راحته، لا حاجة لأن يُفرغ حقائبه".

وفي اليوم التالي، اتّصل بي دانيئيل وقال لي إنّه شاهد أولادًا في عمر قوبي يلعبون كرة السلة، فبدأ يبكي، فقد تذكّر كم كان قوبي يُحبّ كرة السلة، وكم كان سيحبّ أن يكون في هذا المخيّم.

وفي البيت، كان دانيئيل ينام على الأرض في غرفتِنا، إلى جانب سريرنا، إذ كان بحاجة إلى أن يشعر بالأمان وإلى وجودنا بقربه.

أتذكّر أنّ سياسيًا معروفًا زار منزلنا خلال أيام الشِّيفعاه، أي أيّام العَزاء في التقليد اليهودي، والتي تستمرّ سبعة أيّام. فقدّمتُ له أطفالي واحدًا تلو الآخر، وعندما وصل إلى دانيئيل، سأله عن عمره، ثم قال له: "إذًا الآن، يا دانيئيل، أنتَ ال'بيخور' (أي البِكر)". لكن دانيئيل هزّ رأسه وقال: "لا، لستُ أنا. قوبي سيبقى دائمًا هو البيخور." وكان محقًّا... فقوبي سيبقى دائمًا ابننا البكر.

إنّي أشعر بالحزن على ما اضطرّ أولادي أن يمرّوا به في سنٍّ مبكّرة كهذه. وقد قالت لي صحفيةٌ من إسكتلندا إنّها تشعر بالأسى من أجل أطفالي، فأجبتُها: "أجل، هناك الكثير ممّا يُحزن، لكن ربّما ستجعلهم هذه الفاجعة أشخاصًا أفضل بقلوبٍ أكبر وعيونٍ مفتوحة على الدنيا. وربّما، إن استطعتُ أن أُثبِتَ لهم أنّه بوسعنا عَيْشَ حياتنا بعمقٍ ومعنى بعد هذه المأساة، فلن يكون موت قوبي مجرّد جرحٍ داخلهم، بل سيكون نورًا يضيء عليهم أيضًا".

لقد عرف أطفالي أسوأ ما في هذه الحياة، وذاقوا مرارة الشرّ فيها؛ وهم يعرفون كيف يكمُن الموت خلف كلّ شيء، وربّما ،لأنّهم يعرفون هذا، يواصلون السير في هذا العالم كرُسُلٍ للبركة، ينشرون النورَ في زمنٍ شديد الظلمة.

الفصلُ الحادي والثلاثونَ

الصَّحافِيُّونَ

في الثالث عشرَ من أيلول/سبتمبر، عامَ 2001، أجريتُ أوَّلَ مقابلةٍ لي في برنامجٍ تلفزيوني، بعد أن امتنعتُ عن الحديثِ إلى الصحافيين طيلةَ ستةِ أشهرٍ تلت مَقتَلِ قوبي، إذ شعرتُ أنّ حُزني أمرٌ خاصّ، وأنّ ألمي لي وحدي، ولم أرغب في أن أُشاركه مع أحد، ولم أشأ أن يتلذّذَ به الآخرون. ولكن بعد مرور ستةِ أشهر، شعرتُ بأنني أصبحتُ قادرةً على الكلام، إذ كنتُ قد تعلّمتُ كيف أحمي مشاعري، وأصون ألمي، وأردتُ أن أُشارك الناسَ ما تعلّمتُه من رحلةِ الحزنِ هذه.

كانت المناسبة التي دُعيتُ إليها مبادرةً جميلةً من أطفالِ أمريكا، إذ قدّموا أضخمَ بطاقةِ تهنئةٍ بمناسبةِ روش هشاناه، أي رأس السنة العبرية، وأهدَوها إلى أطفالِ إسرائيل. وقد جُمعت آلافُ الرسومات والرسائل التي أبدعها الأطفال، وعُلّقت على ألواحٍ عُرضت في ساحة صفرا، قبالة مبنى بلدية أورشليم القدس.

وقد كانت هذه الفكرة من وحيِ الشابةِ توبي هيرتزوغ، البالغة من العمر ثلاثًا وعشرين سنة، من مدينة بالتيمور، والتي أرادت أن تبني جسرًا بين أطفالِ أمريكا وإسرائيل، فكانت صاحبةَ هذه المبادرة الخلّاقة، وقائدةَ هذا الجهد المتميّز. لكنّ الحفل الذي خُطِّط له مُسبقًا، جاء بعد يومين فقط من الهجمات على مركز التجارة العالمي، فاكتسبت بطاقةُ روش هشاناه معنىً جديدًا.

وفي أثناء الحفل، خاطبَ إيهود أولمرت، رئيسُ بلدية أورشليم القدس آنذاك، سكانَ نيويورك، وقال لهم إنّنا نقف معهم في ألمِهم، وإنّنا نفهم ما يمرّون به. وأضاف: "اليوم كلّنا نيويوركيون"، وأعلن أنّ شارعًا في أورشليم القدس سيُطلَق عليه اسم "شارع نيويورك" طيلة شهرٍ كامل.

ألقى ابني دانيئيل كلمةً في الحفل، أبدى فيها امتنانه وقبوله للبطاقة نيابةً عن قوبي، وعن كلّ من قُتلوا في الهجمات الإرهابية خلال تلك السنة. وقد وجّه شكره إلى أطفال أمريكا لأنهم أظهروا اهتمامهم بنا، وقال إنّ الإنسان حين يتألّم، يكون له عونًا أن يعرف بأنّ هناك من يهتمّ لأمره.

وبينما كان المشاركون يلقون كلماتهم، اقترب منّي أحدُ ممثلي Israel Emergency Solidarity Fund – صندوق التضامن الطارئ مع إسرائيل، وهي مؤسّسة أمريكية كانت قد ساندت توبي في جهودها، وسألني إن كنتُ مستعدّة للتحدث إلى مراسلٍ من قناة CNN. فوافقتُ، إذ كنتُ قد أصبحتُ جاهزةً، وكنتُ أشعر حقًّا بأنني قادرةٌ على الكلام دون أن أبكي، ودون أن أنهار. ولم يُرعبني الحديث أمام الكاميرا

لأوّل مرّة بعد مقتل قوبي، فسِرتُ بثقةٍ نحو المصوّرين، وفورًا دفع أحدُهم ميكروفونًا ضخمًا في وجهي وطلب مني أن أروي قصتي.

فحدّثتُه عن قوبي، وعن الطريقة الوحشية التي قُتل بها، ثمّ سألني إن كانت لديّ كلماتٌ أوجّهها إلى الشعب الأمريكي، فشرحتُ له أنّ ألم الفقد شديدٌ لدرجةٍ يتمنّى فيها الإنسان أن يموت. وتابعتُ قائلة إنّه ألمٌ لا تظنّ أنّك قادرٌ على احتماله، لكنّك في النهاية تستطيع.

ثمّ واصلتُ حديثي قائلةً إنّ الإنسان بحاجةٍ إلى أن يُحيط نفسه بأشخاصٍ يعرفون كيف يعيشون مع الألم، وكيف يحتملونه، لا بأولئك الذين يريدونه أن يتخلّص منه ببساطة، مغلقًا الصفحة ليكمل حياته كأن شيئًا لم يكن. وقد ركّزتُ على معنى الألم، وقلتُ له إنه يُشبه حَمْلَ ثِقلٍ هائلٍ على الظهر، كأنّ في حقيبتك قضيبَ حديدٍ ثقيل، فلا تستطيع المشي كالسابق، لكنّك مع الوقت، كلّما حملته، ازددتَ قوّة.

بعدها، طرح عليّ الصحافي بضعة أسئلةٍ إضافيّة، ثمّ أنزل الميكروفون. وحينها فقط نظرتُ إليه بتمعّنٍ للمرّة الأولى. فرأيتُ أنّه كان يرتدي سروالَ جينز، وأنّه أصلعَ الرأس، وله عينان بلونِ الفيروز، كالبحرِ الميت في يومٍ صافٍ ومنعِشٍ.

وقلتُ له بدهشةٍ مشوبةٍ بيقين: "أنا أعرفك!"، فأجابني: "أنتِ على حق." فقلتُ له: "ذكّرني، ما اسمك؟" مع أنّني كنتُ أعرفه. فاستدار ناحيتي، وعيناه تغرقان في الدموع. فسألتُه: "آلون؟"، فأجاب بشيء من الحنين: "نعم، مرّ وقتٌ طويل."

كان آلون بِرنشتاين حبيبي قبل ثمانية عشر عامًا، لكنّ علاقتَنا لم تدم طويلًا، لتصبح مجرّدَ ذكرى عابرةٍ من زمنٍ بعيد.

وفي تلك الأيام، كنّا نجلسُ معًا في القدسِ الشرقيّة، نرتشفُ قهوةً سادة، داكنةً وكثيفة، وقد تسلّقنا معًا ذات مرةٍ قلعةَ متسادا. وقد كنتُ أحبّه، بل فكّرتُ جِدّيًّا في الزواج منه، خاصّةً بعد أن طلب يدي ذات مرّة، لكنّني، في نهاية المطاف، لم أشعر أنّني مستعدّةٌ للارتباط به. وفي يوم إجراء المقابلة، أخبرني أنّ لديه ثلاثةَ أولاد، ثمّ مسح دمعةً انهمرت من عينه بكُمّ قميصِه الجينز. فقلتُ له: "لا بأس... أنا أبكي ليلَ نهار." وقد أدركتُ أنّه حزينٌ من أجلي، لكنّني فكّرتُ أيضًا أنّه ربما كان يبكي لأنّه تخيّل أن ذلك الطفل الذي مات كان يُمكن أن يكون ابنه، لو أنه تزوجني. فكأنّه اقترب من الموت إلى هذا الحدّ.

فيما بعد، ذهب رئيس بلديّة أورشليم القدس، برفقة عددٍ من الشخصيّات البارزة والجهات الراعية لهذا اليوم، إلى مطعم بيتزا "سبارو" في قلب المدينة، الذي شهدَ قبل خمسة أسابيع تفجيرًا انتحاريًّا أودى بحياة خمسةَ عشرَ شخصًا من الكبار والأطفال، وقد عاد المطعم ليفتح أبوابه من جديد. وفي ذلك الهجوم، قُتِلَت مالكي، ابنةُ صديقتي فريمِت، التي كانت في الخامسة عشرة من عمرها. وقد كانت شاعرةً وعازفةَ ناي ذات روحٍ نقيةٍ ورقيقةٍ إلى أبعد حدّ. ولذلك، لم أمتلك القوّة لمرافقتهم... فذاك المكان يحمل من الألم ما يفوق احتمالي.

لقد أصبحت إسرائيل اليوم نموذجًا تحتذي به أمريكا في كيفيّة التعامل مع الإرهاب، بحيث لا ندعه يوقفنا، ولا نسمح له بالتدخّل، ولا نمكّنه من أن يُملي علينا خطواتنا، بل نمضي وكأنّ الحياة عاديّة، وفي استمرارنا، نكون قد وقفنا في وجه الشرّ.

"نحن اليوم جميعًا نيويوركيّون"، قال رئيس البلديّة. وكان محقًّا، لكنّ الحقيقة الأخرى هي: نحن اليوم جميعًا إسرائيليّون.

نظرتُ إلى آلون وهو يوضّب أغراضه، مستعدًّا لقصّةٍ جديدة، وخبرٍ جديد سينقله. أمّا أنا، فلا أستطيع أن أترك قصّتي خلفي. إذ إنّي أحمل هذا الموت معي أينما ذهبت، في كلّ لحظةٍ من حياتي، وفي موضعٍ عميقٍ بداخلي، حيث لا تصل إليه عدسةُ أيّ كاميرا.

الفصلُ الثَّاني والثَّلاثونَ

الألَمُ وَالمَغفِرَةُ

في الآونةِ الأخيرة، أقمْنا خلوةً علاجيةً امتدّت ليومين، خُصِّصَت للأمهاتِ المَثكولاتِ والأرامل، وخلال جلسة العلاج بالفنّ، رسمت إحدى الأمهات زجاجة كاتشب، لأنّ ابنها كان يحبّه. وقد كان في السادسة عشرة من عمره، حين قُتل ليلة أحد أيام الشبات في شارع بن يهودا التجاري المخصص للمشاة، حيث حضَرَ حفلةَ عيد ميلاد أحد أصدقائه. ولم يقتصر الأمر عليه، فكثيرٌ من الفتية الذين حضروا الحفلة قُتلوا أو جُرحوا. وقد قالت الأم إنها لم تعُد تَحتمل شراء الكاتشب بعد ذلك.

إنّ فُقدان الطفل يتسرّب إلى كلّ شيء، أو بمعنى آخر: تُحيط بك الخسارة من كلّ جانب، في السوبرماركت، وفي الشارع، وعند فَتْحِ الخزانة أو الثلاجة... فحياتك كلّها تتلطّخ بالخسارة التي لا نهاية لها.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ماذا نصنع بهذا الألم؟

قُتل إيش قوديش (ومعنى اسمه: "النار المقدّسة"*)، ابن زهاڤاه غيلمور، البالغ من العمر خمسةً وعشرين عامًا، على يد الإرهابيين في الثلاثين من تشرين الأول/أكتوبر عام 2000. وفي تاريخ مقتله، نُظِّمَتْ مسيرة مشيٍ لإحياء ذكراه، وكان ذلك بعد مرور ستة أشهر على مقتل قوبي. وبينما كنّا نسير معًا، قالت لي زهاڤاه: "الألم نفسه تغيّر كثيرًا، ومرّ بنوعٍ من التحوّل. أُريد أن آخذ الآن روح ابني، وقوّته، ومحبّته، وفرحه، وأدع كلّ ذلك يملؤني. وهذا هو تكريمي له... أن أعيش كما عاش، مفعمةً بالفرح، بدلًا من الألم".

وقد سألني صحفيّ إيطالي إن كنتُ سأستطيع يومًا أن أسامح قتلةَ قوبي، فأجبتُه بحزم: "لن أسامح أبدًا. ما فعلوه لا يُغتفر." لكن في الوقت نفسه، أنا أرفض أن أعيش حياةً يسيطر عليها الغضب. وأرفض أن أردّ الكراهية بالكراهية، أو الغضب بالغضب. لقد اتّخذتُ قرارًا واعيًا بألّا أفعل ذلك. ثم إنّ المغفرة ليست واجبي أنا... بل من واجب القاتل أن يطلبها.

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجِم: إيش قوديش" تعني حرفيًا "النار المقدّسة"، وهي تعبيرٌ عميق في الروحانية اليهودية يُشير إلى الشوق الداخلي المتّقد للتقرّب من الله عزّ وجلّ، وإلى نارٍ تُطهّر وتُنير وتربط الأرض بالسماء. وليست "إيش قوديش" نارًا مدمّرة، بل نارٌ مُضيئة، تُشعل القلب بالحياة، وتُقدّس الألم والمعاناة. وقد اشتهر هذا الاسم أيضًا كعنوان لكتابٍ روحي ألّفه الحاخام كالونيموس كالمان شابيرا خلال فترة الهولوكوست، حيث تحوّلت "إيش قوديش" إلى رمزٍ للأمل المقدّس في وجه الألم والدمار.

وليست اليهودية ديانةً تُؤمن بالمغفرة الفورية، بل هي ديانةٌ تُولي أهميةً للتذكّر. وإذا أراد شخصٌ ما أن يُغفَر له، عليه أن يبذل جهدًا صادقًا ويطلب السماح. لكن لم يطلب أيّ إرهابيٍّ مغفرتي. وفي الواقع، لم يتواصل معي أيّ عربيٍّ ليُعزّيني. وإنّي لستُ متأكدةً حتى كيف سأستقبل شخصًا منهم يُريد أن يُعزّيني. وتُخبرنا الشريعةُ اليهوديةُ أنّه يجبُ على الشخصِ أن يطلبَ السماحَ ثلاثَ مرّاتٍ على الأقل، وفي ثلاثِ مناسباتٍ منفصلة، حتى يقبل مَن أساء إليه اعتذاره. وإذا رفض الشخص المُساء إليه مسامحته، يجب على المُسيء الاستمرار في طلب السماح؛ لكنه بطلبه السماح بصدقٍ وإخلاص ثلاث مراتٍ وفي ثلاث مناسبات منفصلة، يكون قد أدى واجبه الديني بالتوبة، حتى لو لم يسامحه الطرف الآخر.

إنّ دوري ليس أن أسامح، بل أن أُضفي معنىً للحياة. وواجبي هو التذكّر. وسأتذكّر أنّ "تسور يعقوف" أي "صخر يسرائيل"، أو "صخر يعقوب"، (واسمُ ابني، قوبي، هو اختصارٌ شائعٌ لاسم "يعقوب")، هو اسمٌ آخر لله تعالى، وأنّ يعقوب، أحد أجدادنا الأوائل، وضع الحجارة معًا تحت رأسه كوسادةٍ لينام ويحلم بسلمٍ يصل بين السماء والأرض. إذ يمكن للحجارة والصخور أن تكون أداةً للغضب أو رمزًا لقداسة الله. حتى أنّ اسم "صخر" يمكن أن يكون اسمًا لله، وهذا يُعلّمنا أنّ أيّ شيءٍ يمكن استغلاله للشر أو لتقديس الله.

إنّ قلبي بئرٌ سُدّت بحجر، مثل الآبار التي حفرها أبونا إبراهيم، أي جدنا الأول، والتي سُدّت لاحقًا بالحجارة. ويقول النبي حزقيال: "وَأُعْطِيكُمْ قَلْبًا جَدِيدًا، وَأَجْعَلُ رُوحًا جَدِيدَةً فِي دَاخِلِكُمْ، وَأَنْزِعُ قَلْبَ الْحَجَرِ مِنْ جَسَدِكُمْ، وَأُعْطِيكُمْ قَلْبًا مِنْ لَحْمٍ" (الآية السادسة والعشرون من المقطع السادس والثلاثين من سِفر حزقيال). وإنّ موت قوبي كسر قلبي الحجري، بحيث أصبحت دموعي نبعًا لا ينضب يروي الأرض، لتخترق البذور المزروعة الظلام نحو النور.

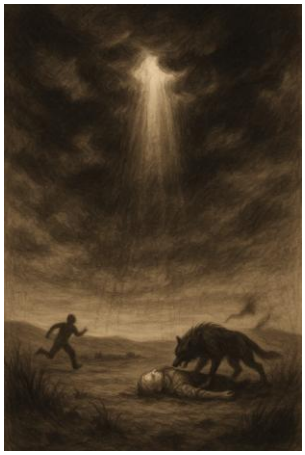

الفصلُ الثّالثُ والثّلاثونَ

صَمْتُ اللهِ

أحيانًا، يَلْتَزِمُ اللهُ عزَّ وجلّ الصَّمْت. فيَصمُتُ صمتًا مُطبِقًا، صمتًا نقيًّا في وجه الشرّ، ذا نقاوةٍ جارحة. وأنا أمام هذا الصمت، أُريدُ أن أُمسِكَ بالله وأهُزَّه بعُنفٍ! أُريدُ أن أضرِبَه! أن أُؤذِيَه. وأن أصرُخُ فيه من أعماق ألمي، لأقول له والوجع يَعتَصِرُني: "كيف سمحتَ أن يُذبَحَ ابني بِهذِهِ الوحشيَّة؟ لِمَ لَمْ تَفعَل شيئًا؟ ولماذا لَمْ تَمنَعْهُم؟" وإنّي أتخيَّل موتَ قوبي وكأنّ زمرةً من الذئاب المفترسة قطّعتْهُ إرْبًا إرْبًا، فصبغ دمُه القاني بياضَ الثلجِ الناصع الذي يفترش أرض التُّندرا*. لكن، ليست الذئاب هي من قَتَلَ ابني، بل إنّ البشر هم الذين قَتَلوه في الصَّحراء.

وما زلتُ أتساءل: "كيفَ سمحتَ، يا الله، أن يُقتَل ابني بتِلكَ الوحشيَّة؟!" ورغم ذلك، فإنّي أُؤمِنُ إيمانًا عميقًا بما يخبرنا به التَّلمود بأنّ اللهَ يُعاني عندما نُعاني، فاللهُ يتألَّمُ حين يتألَّمُ البشر. وحتّى لو أشاح بنظره بعيدًا في بعض الأحيان، فإنّه يعلمُ ما يحدُثُ تمامًا، إذ يُطلُّ علينا من فتحات النوافذ وكوّات الجدران، وعيناهُ غارقتانِ بالدُّموع، كما جاءَ في سِفْرِ نَشِيدِ الأَنْشَاد: "يَزْنُو مِنَ الْكُوَى، وَيَسْتَرِقُ النَّظَرَ من خِلَالِ الشَّبَابِيكِ" (المقطعُ الثّاني، الآيةُ التّاسعة).

ورغم أن كثيرًا من الناس يفقدونَ إيمانهم بالله بسبب المعاناة التي يواجهونها، إلّا أنني أرفض الإيمان بقسوة الإله. فأنا أُؤمِنُ أنَّ ما نعتبره اليوم أمرًا قاسيًا قد يتجلّى لنا غدًا كجزءٍ من خُطَّة الله العُليا.

وخير دليلٍ على ذلك العلاقةُ بين يعقوبَ وابنه يوسف، كما وردَت في سِفْر التكوين، التي تُبيِّن لنا كيف تُحجَبُ الحقائقُ عنّا أحيانًا في هذا العالم. فيوسف أُلقِيَ في البئر على يدِ إخوته وتُرِكَ هناك ليموت بدافع غيرتهم منه. ثمّ بِيعَ عبدًا لعائلة وزيرٍ مصريٍّ يُدعى بوطيفار، ثمّ دخل السجن مظلومًا، فأُتيحَت له الفرصة هناك بأن يبَرِعَ في تأويل الأحلام، فارتقى إلى أعلى مراتب السُّلطة في مصر. وبفضل ذلك، تمكَّن من إنقاذِ عائلته عندما اضطرَّ إخوته بسبب المجاعة إلى النزولِ إلى مصر طلبًا للطعام. وهكذا، كانت معاناة يوسف جزءًا من خُطَّة الله لإنقاذ بني إسرائيل، الذين أصبحوا فيما بعد الشَّعب اليهودي، لكنَّ والدَه، يعقوب، ظلّ يُعاني مرارة الحُزن طوالَ اثنين وعشرينَ عامًا، إلى أن تَجلَّت الحقيقةُ واتَّضَحت الحكمةُ الإلهيَّة.

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجِم: التُّندرا هي أراضٍ جرداءُ مُتجمِّدة تمتدّ بلا أشجار، ترمز هنا إلى القسوة والعُزلة والبرد الرُّوحي.

وبعد موتِ يعقوب، خافَ الإخوةُ أن ينتقِمَ يوسفُ منهم على ما اقترفوه في حقِّه قبل سنواتٍ طويلة، حينَ ألقَوه في البئرِ ثمّ باعوه عبدًا. لكنَّ يوسفَ كان يُدرِكُ في قرارة نفسه خطّة لله، وبأنّ هذه القصَّةَ كانت أعظمَ بكثيرٍ من أوجاعِه الشَّخصيَّة. ولذلك قال لإخوته: "أَنْتُمْ قَدَّرْتُمْ عَلَيَّ شَرًّا، وَاللَّهُ قَدَّرَ لِي خَيْرًا." (سِفْرُ التَّكْوِين، المَقطَعُ الخَمْسُون، الآيَةُ العِشْرُون).

وأنا كذلك أحاولُ أن أُؤمِنَ بأنَّ نسختي الخاصّة من قصَّة يعقوب، أي قصَّة ابني قوبي، هي أيضًا أعظمُ منَّا، وأكبرُ من معاناتِنا. لكنْ، يظلُّ صعبًا للغاية عليَّ أن أتقبَّلَ إلهًا سَمَحَ بذَبْحِ ابني قوبي بتلك الوحشيَّة.

يُخبرُنا أحدُ المدراشات (التفاسير اليهوديّة)* أنَّ اللهَ في صراعٍ دائمٍ مع نفسِه، حيث يُقاوِمُ ميلَهُ الطبيعيّ لمعاقبةِ الأشرار، رغم أنَّه يرغبُ في فعلِ ذلك، لأنَّه لو عاقبَهم على شرورهم فورًا، فلن يعودَ للإنسانِ حريَّةُ الاختيار. فلو كنَّا نعلمُ أنَّ العقوبةَ ستقعُ علينا في كلِّ مرَّةٍ نُهمِلُ فيها نجدةَ صديق لنا، لكُنَّا قد تعلّمنا بسرعةٍ أن نُقدِّم يد العون للآخرين، مهما كان حجم انشغالاتنا. لكن يبدو أنَّ اللهَ يُريدُنا أن نتحمّل نحن مسؤولية الاختيار، فهو يُريدُنا أن نختارَ الخيرَ عن وعي وبكامل الحرّيّة. لأنّ أفعالِ الإنسان في هذا العالم هي وحدها من تقود العالم نحو الكمال.

وإنّ اللهَ لم يَعِدْنا أبدًا أنَّنا لن نتألَّم، والحقيقةُ المُؤلِمة هي أنَّ الألمَ جزءٌ من نسيجِ هذا العالم. وقد سألتُ صديقةً لي ذات مرّة: "ألا يُمكنُ أن يختارَ اللهُ موضوعًا آخرَ لحياتنا يُصِرُّ عليه سوى الألم؟ لأنّي قد سَئِمتُ هذا حقًّا!"

إنَّ الألمَ الناجم عن العيشِ في عالَمٍ تَتَفَشَّى فيه القسوةُ يُثقِلُ الرُّوح. واليوم، وبينما أكتُبُ هذه الكلمات، وقعت عمليَّةٌ انتحاريَّة أخرى في أورشليمَ القُدس، راح ضحيَّتَها عشرةُ أشخاص، معظمهم من الفتيانَ المراهقين، وقد تمّ أيضًا تفجيرُ حافلةٍ في حيفا، فقُتِلَ خمسةَ عَشرَ شخصًا، وقُتِلَ شخصٌ آخر في إطلاقِ نارٍ من سيّارةٍ عابِرة. وقد وقعت كلُّ هذه المآسي المُروِّعة في يومٍ واحد. ولذلك، فإنّ الطريقةَ الوحيدةَ المتبقيّة لي كي أتمكَّنَ من الاستمرار، هي أن أصرُخ: "أعِنَّا، يا الله! أعِنَّا!"

ورغم أنّنا نشعُرُ بأنّنا لا نستطيعُ الاحتمال، إلّا أنّنا، بطريقةٍ ما، نحتمل كلّ هذا الألم.

وإنّ اللهَ يَعِدُنا بأنَّنا سنرتقي من خلال أَلمِنا. وفي ذلك تقولُ الآيةُ السادسةُ والعشرون من المَقطعِ الخامسِ عشر من سِفرِ الخُرُوج: "وَقالَ إِنْ قَبِلْتَ أَمْرَ ٱللَّهِ رَبِّكَ، وَصَنَعْتَ ٱلحَقَّ عِندَهُ، وَأَنْصَتَّ إِلَى وَصَايَاهُ، وَحَفِظْتَ جَمِيعَ فَرَائِضِهِ، فَجَمِيعُ ٱلْأَمْرَاضِ ٱلَّتِي أَحْلَلْتُهَا بِٱلْمِصْرِيِّينَ لَا أَحُلُّ فِيكَ شَيْئًا مِنْهَا، لِأَنِّي أَنَا ٱللَّهُ مُعَافِيكَ." والمقصودُ بالأمراضِ هُنا هو الضَّرَبَاتُ التي أنزلَها اللهُ بالمِصريين قُبَيلَ خروجِ بني إسرائيل من أرضِ مِصر. ويُفسِّرُ الحاخام سمحاه زيصل زيف هذه الآيةَ قائلًا إنَّ اللهَ لا يَعني أنَّه سيمنَعُ الألمَ عنَّا، بل

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجِم: المدراش هو تفسيرٌ يهوديٌّ قديم، يُقدَّم على شكل قصص أو تعليقات على نصوص التوراة، ويهدف إلى التعمُّق في المعاني أو تقديم تأويلات روحيّة وأخلاقيّة.

ما يعنيه هو أنّه سيمنحُنا الفرصة للتعلّم من ألمنا، وللتوجّه إليه في دعائنا ولإصلاح أنفسِنا وعالَمِنا من خلال معاناتِنا.

إنَّهُ لأمرٌ مُؤلِم حقًّا أن نتأمَّلَ الحقيقة المتمثّلة في وقوف اللهِ عزَّ وجلَّ متفرِّجًا بينما تحدثُ أبشعُ الشُّرور في العالم، لكنَّ البروفيسور يشَعياهو لايبوفيتش، العالِم الإسرائيليّ في التوراة، يقول بأنّ عدمَ استجابةِ اللهِ لما نُريد لا يعني أنَّهُ غير موجود، وإنّ صمتَ الله لا يعني أنَّه لا يُبالي. بل إنَّ صمتَه صوتٌ خافتٌ كالصوتِ الرقيق الذي بالكاد نستطيع سماعه في الوادي، كصوتٍ ساكنٍ، هامسٍ، يمنَحُنا ما هو أثمن: أن نختارَ بحرّيّة. ومن خلالِ تلك الحرِّيَّة، يعثرُ كلٌّ منّا على صوته الخاص، على طريقتِه الفريدة للاستجابة لهذا العالم، وللتعايش مع غموضِ الحياةِ وألمِها.

عندما دخلَ يعقوبُ على أبيه إسحاقَ مُتَنَكِّرًا في هيئةِ عيسَو، مرتديًا ثيابَ الصَّياد، ليطلبَ البركةَ المخصّصةَ للابنِ البكرِ، قال إسحاق: "ٱلصَّوْتُ صَوْتُ يَعْقُوبَ، وَلَكِنَّ ٱلْيَدَيْنِ يَدَا عِيسَو." وذلك كما وردَ في الآيةِ الثانيةِ والعشرين من المَقطَعِ السابعِ والعشرين من سِفرِ التكوين. فما هي رمزيّة اليدَين هنا؟ وما هو معنى الصوت؟ على هذين السؤالين، يُجيبنا الحاخام يهودا آريه لايب، وهو حاخام مدينة غور في بولندا في القرن التّاسع عشر، والمعروف بلقب "سِفَات إيمِيت"، بأنَّ يدي عيسو ترمزان إلى القوَّةِ الجسديَّة، أمَّا صوت يعقوب فهو صوتُ الصَّلاة. والصَّلاةُ هي أعمقُ تعبيرٍ عن أَلَمِنا حين لا نَفهَمُ سبب معاناتنا، وهي أعمقُ لغاتِنا، وأكثرُها صدقًا وأصالةً، إذ إنَّها صوتُنا الّذي يصدح حين نتوق إلى الصِّلة بالله، حين نبحث عن معنىً لحياتنا، وعمّا يسنُدنا في ركام عالمنا.

في الماضي، كنتُ أظُنُّ أنَّ الصَّلاةَ مجرّد طقسٍ قديم، أمَّا الآن، فهي مَصدرُ عزاءٍ لي، وهي اللغةُ التي تلامس أعماق روحي، والخيطُ الذي ينسجُني إلى الله، والإبرةُ التي تخترقُ صمتَه.

الفَصْلُ الرَّابِعُ وَالثَّلَاثُونَ

مَرَاتِبُ المُعَانَاةِ

بحسب التلمود، توجد تسعمئة وثلاث طرقٍ للموت، وقد تكون الطريقة التي مات بها ابني الحبيب قوبي هي الأقسى بينها. وما أقصده، أنّ من المُرجَّح وجود تسعمئة واثنتي طريقة للموت "أهون" من طريقة موته .وقد وردَ في التلمود نقاشٌ بين حُكمائنا، طيّبَ اللهُ ذِكرَهُم، حول أيّ هاتين الميتتين أشد: الرجم أم الحرق؟ ويتّفق أكثرهم على أنّ الرجم هو الأصعب.

في مراتب الألم، أنا "الفائزة."

لقد أخذَ أبونا إبراهيم، أي جدّنا الأول، ابنَه ليُقدّمه قُربانًا، لكنّ إسحاق نجا في النهاية. وتخبرنا إحدى المدراشات أنّ أُمّنا ساره، زوجة إبراهيم، ماتت حين سمعت أن إسحاق كان على وشك أن يُذبح. ويُعتقد أن نحيبها هو أصل صوت النواح الصادر من قرن الكبش، "الشوفار"، الذي ينفخه اليهود في "روش هشاناه" (رأس السنة العبرية) و"يوم كيبور" (يوم الغفران)، ذلك الصوت الذي يُفترض به أن يُوقظنا للتوبة.

وقد أدركتُ أنّ لي "وظيفةً" تُشبه ذلك، إذ أشعرُ أحيانًا أنّ الناس حين ينظرون إليّ يتذكّرون مأساتي، فيجعلهم ذلك يحبّون أبناءهم أكثر. وعندما أكون في السوبرماركت في بلدة إفرات، أُلاحظ كيف ينظر الناس إليّ، وأعلم أنّ كثيرين منهم حين يرونني يقولون في أنفسهم: "الحمد لله أنني لستُ مكانها، الحمد لله أنّ أطفالي ما زالوا أحياء، وأنّ عائلتي كاملة العدد، الحمد لله أنّ حياتي ما زالت متماسكة ولم تتهشّم بعد". وهم مُحقّون. إذ إنّ مقتل قوبي كان سطوًا على أغلى ما في حياتي، وبترًا لأعضائي، واغتصابًا لروحي. وها أنا الآن أقف عاريةً ومُحطَّمة، ومع ذلك، فإنّي أقف أيضًا برفقة ملائكتي، وبإيمانٍ في القلب يسندني ،وبإقبالٍ على الحياة لا يتزعزع.

ورغم كلّ الألم الذي تشعر به غيري من الأمهات الثكالى، فإنّي واثقةٌ أنّهنّ يُعزّين أنفسهنّ بمقارنة طريقة موت أولادهنّ بطريقة مقتل قوبي، التي تبدو لهنّ أكثر وحشية بكثير. وفي هذا الصدد، قالت لي أمٌّ قُتلت ابنتها في عملية إطلاق نار قرب أورشليم القدس: "أنا أتألّم، لكن ليس مثلكِ. إذ أعلم أنّ ابنتي ماتت على الفور"، وقالت أمٌّ أُخرى ماتت ابنتها بسبب السرطان: "أنا أتألّم، لكن ليس مثلكِ. فأنا أعلم أنّ ابنتي ماتت بهدوء، وكنتُ بجانبها حين ماتت. أمّا أنتِ...؟"

في الحقيقة، تقول لي صديقاتي إنّني أصبحتُ "مشهورة" بسبب ألمي، مشهورة بسبب مقتل قوبي، لأن قلةً فقط من الأمهات فقدن أبناءهنّ بتلك الطريقة الوحشية التي فقدتُ بها ابني.

ومع ذلك، فأنا أؤمن أنّه في اللحظة التي أَبصَرَ فيها قوبي الكراهية في وجوه قاتليه، قد دخل في حالة من الصدمة، غادرت على إثرها روحُه جسدَه. وإنّي أؤمن أنّه لجأ إلى مكان آمن في أعماقه .لقد شاهد جريمة قتله، لكنّه في تلك اللحظات كان قد أصبح مع الله ،الذي منحه العزاء والحماية.

لقد قال لي الحاخام يتسحاق برايتويتس، وهو حاخام جماعة يهودية في منطقة سيلفر سبرينغ، في ولاية ماريلاند، في الولايات المتحدة، إنّ موت شخصٍ بسبب كونه يهوديًا يعني أنّ موته يكون في سبيل تقديس اسم الله، ولهذا فإن روحه تصعد مباشرةً إلى الله. فبحسب المصادر اليهودية، تمرّ الروح عادةً بمرحلة انتظار وتطهير قبل أن تصعد إلى الله، لكنّ ابني الحبيب قوبي كان طاهرًا. حتّى أنّ الحاخام برايتويتس أخبرني بأنّ طقوس تطهير جسد الميّت لم تكن ضرورية لقوبي وصديقه يوسف، لأنّهما ماتا بروحيَن طاهرتَين.

وتتعدّد الآراء حول ما يحدث للروح بعد الموت، لكن التقليد اليهوديّ الذي نتّبعه يُخبرنا أنّ الروح تظلّ تحوم حول الجسد طوال عامٍ كامل، بسبب اشتياقها إليه. لكنّ الحال لم يكن كذلك مع ابني قوبي، لأنه تحرّر من جسده في اللحظة التي مات فيها. وسرعان ما أصبح واحدًا من أحبّاء الله، فأجلسه الله في حضنه. ولهذا السبب، لم أشعر بوجوده حول قبره في يوم جنازته.

والآن، بعد موته، أصبحتُ تلك المرأة التي لا يعرف الناس كيف يخاطبونها، إذ أُثير فيهم رهبة الموت، مذكّرةً إيّاهم بمدى قربه منّا. لكن، ما هو جميلٌ في كوني الشخص الذي لا يُريد أحد أن يكونه، هو أنني أستطيع أن أُعزّي الآخرين، لأنني لستُ منفصلةً عن ألم أيّ أحدٍ منهم .وإنّي أفهم معنى الألم جيّدًا لأنني لا أمتلك رفاهية الهرب منه، ولهذا أستطيع أن أقف مع الآخرين في حزنهم، إذ إنّ لمعاناتي وجوه عديدة من الألم وتجلّياته.

الفَصْلُ الخامِسُ وَالثَّلَاثُونَ

عِيدُ البُورِيم - عيدُ المَساخِر

عندما ينظر الآخرون إليّ، لا يخطر على بالهم أنَّ فَقْدَ ابني وما يرافقه من ألمٍ قد أصبحا المحور الذي يدور حوله وجودي. فمَنْ يكتفي بالنظر إليّ من الخارج لا يُدرِكُ أنَّ طفلي البِكر قد قُتِلَ بوحشيَّةٍ على يدِ إرهابيين. وفي هذا العيد بالذات، عِيد البوريم، المعروفِ أيضًا باسم عيدِ المساخِر باللغة العربية، بدأتُ أُفهمُ اللهَ عزّ وجلّ. وأنا لا أقول هذا من باب الغرور، بل لأنني أشعر أنَّ أعمقَ ما فيَّ، أو بتعبيرٍ آخر جوهر روحي، محجوبٌ، وسأشرح لاحقًا كيف يرتبط هذا بعيدِ البوريم، فتحمّلوني قليلًا.

كيف لي أن أبوحَ للناسِ بحقيقةِ تجربتي؟ الأمرُ أشبهُ بإطلاقِ بُركانٍ من جوف الأرض. حيث تَتَطَلَّبُ مُشاركةُ المشاعر العميقة التي أَشْعُرُ بِها تركيزًا وألمًا، وإنّي بِصِدْقٍ، لا أستطيع الإفصاح دائمًا عمّا يختلج نفسي، لأنّ ذلك يُوجِعُني بشِدَّة، كما أنني لا أُريد أن أُغرِقَ الآخرينَ في الحُزنِ الّذي يُشكِّلُ جوهر كياني. ولهذا، صِرتُ أُخفي هُويّتي أحيانًا، لِئَلَّا أُجبَرَ على إظهارِ ما يَكْمُنُ داخلي.

يَرى البعضُ أنَّ إخفاءَ الحقيقةِ نوعٌ من الكذب، وقد كنتُ أظنّ ذلك أيضًا قبل جريمة مقتل ابني، وكنتُ أرى أنّ الصدقَ واجبٌ علينا، فقد كان قولُ الحقيقةِ مُقدَّسًا عندي مهما كلفني ذلك من ثمن. وقد كنتُ ثابتةً على هذا المبدأ بحماسٍ يُشبِهُ كُرْهَ المُراهقِ للرياءِ والنِّفاق.

لكنني الآن أُدركُ أنَّ ذلك التَفكيرَ كان ساذجًا، فهناك حالاتٌ لا يكون فيها الإفصاحُ عن جَوْهَرِ ذواتِنا ممكنًا، وهذا لا يُعَدُّ خداعًا بالضرورة.

فحتّى اللهُ سُبحانه وتعالى ذاته لم يُفصِح عن الحقيقةِ كاملةً كي لا يُؤذي قلبَ أبينا (أي جدنا الأول) إبراهيم. ففي التوراة نقرأ أنَّ ساره حين بشّرها الملاكُ بأنّها سَتَلِدُ ابنًا، ضَحِكَت في نَفْسِها، وقالت إنَّها قد انقطعت عنها عادةُ النساء، وإنَّ زوجَها شَيخٌ كبير. لكن عندما نَقَلَ اللهُ القصةَ لإبراهيم، لم يقل له سوى أنّ ساره ضَحكَت لأنها شعرت بأنها عجوز. وقد اعتُبِرَ هذا المثالُ دَليلًا على حرص اللهِ على الحفاظ على السَّلامِ بين الزوجين، وتجنّب جرح مشاعر إبراهيم أو جعله يُسيء الظنّ بساره، مع أنّ الله لم يُفصح عن كامل الحقيقة. وكذلكَ هي الحال معي، فإنّي حين أُخفي أحيانًا هويتي عن الآخرين، فإنما أفعل ذلك لأصونَ سَلامي الداخلي.

وإنّي أيضًا لا أُريد من الآخرين أن يُشفِقوا عليَّ طول الوقت، ولا أُريد أن يُعامِلوني على أنني الأمُّ الثكلى المسكينة في كُلّ لحظةٍ من حياتي.

وبفَضلِ هذه التجربة القاسية التي مررتُ بها، اكتَسَبْتُ بَصيرةً أعمقَ ساعدتني في فهم مسألةِ الإخفاءِ، فأصبحتُ أُدرِكُ بأنّ اللهَ عزّ وجلّ يضطَرُّ إلى إخفاء نفسه ليُقدِّم لنا حقيقةً أعمق، وبأنّ سبب إخفاء نورِه عنّا، لا يكمن في كونه بعيدًا، بل لأنَّه لو كشف كمال نوره لنا طوال الوقت، لَما استطعنا احتماله، ولكان وَقْعُهُ هائلًا علينا بصورةٍ تفوق الوصف.

والآن، سأبدأ الحديث الحديث عن عيد البوريم، لأنّ الموضوع المتعلق بالإخفاء هو جوهر قصة البوريم. ففي هذا العيد، نقرأ سِفر أستير، الذي يُعرَف بـ"المغيلة"، وهو السفر الوحيد من الأسفار المقدسة الذي لا يُذكر فيه اسم الله أبدًا، ويروي هذا السفر قصة الملكة اليهودية أستير. وإنّ اسم "أستير" نفسه يلعب على هذا الوتر، إذ تعني الكلمة العبرية "هِستر" الإخفاء والاختفاء. ومن التقاليد المرتبطة بالعيد ارتداء الأقنعة لإخفاء هوياتنا الحقيقية، والتفاعل النشط مع قصة الملكة أستير.

وفي عيد البوريم نتعلم أنَّ الشر هو إخفاء مؤقت للخير، ففي القصة يحدث تبادلٌ للأمكان*، بين رمز الشر فيها الوزير هامان، وبين رمز الخير فيها، وهو موردخاي ابن عم الملكة أستير، ونتعلم أيضًا من هذه القصة أن الشر يمكن أن يتحول في النهاية إلى شيءٍ جيد في المخطط الأكبر للأمور. وإنّ التقييمات التي نعطيها للأحداث في القصة تصبح بلا معنى، لأن الله يُعلّمنا أن الخير والشر هما في جوهرهما شيء واحد، إذا نظرنا إليهما بطريقة عميقة، لأنَّ ما نراه شرًّا قد يتحول في النهاية إلى خير. وبمعنى آخر، إنَّ الطبيعة الحقيقية للعالم غالبًا ما تكون مخفية عنا.

لكن، لا بد لي من الاعتراف أنني أواجه صعوبة كبيرة في فهم هذا المفهوم. فمقتل ابني الوحشي رجمًا على يد الإرهابيين الفلسطينيين لا يبدو وكأنه شيء يمكننا القول عنه "غَم زو لِتُوڤاه" ("هذا أيضًا من أجل الخير").

وبالأمس، وبعد مرور ثمانية أشهر على مقتل شقيقه الأكبر قوبي، قال لي ابني الصغير غاڤي، الذي يبلغ من العمر ستّ سنوات: "ماما، إذا كان كل شيء يفعله الله من أجل الخير، فكيف يمكن أن يكون موت قوبي خيرًا؟" لقد فهم الأمر، وأصاب كبد الحقيقة مباشرة.

قلتُ له إنَّ هذا ليس خيرًا بالنسبة لنا، لكن ربما هو خيرٌ للعالم، الذي ربما كان يحتاج أن يموتَ طفلٌ عظيمٌ مثل قوبي حتى يساهم موته في نشر الأفعال الحميدة بين الناس. فعلى سبيل المثال، أخبرني بعض الآباء أنهم أصبحوا آباءً أفضل بعد سماع قصتي. ومع ذلك، إنّي لا أستطيع أبدًا أن أقول إنّ وفاة ابني هي خير، لأنني أفتقده وأحزن عليه كثيرًا. لكنني لا أريد أن أحمل الموت كما حملتُ العصفورَ الميت الذي علق في غطاء سيارتي الأسبوع الماضي، والذي أخذ جسده يتخبط صعودًا وهبوطًا وأنا أقود السيارة، وكان يظهر أحيانًا أمام ناظري ثمّ يختفي، فصار بذلك يرمز للألم الرهيب والأسر. بل أريد أن أحمل الموت

---

*ملاحظة توضيحية من المترجم: خطط هامان من أجل قتل موردخاي وإبادة الشعب اليهودي في بلاد فارس. والمقصود بـ"تبادل الأماكن" هنا أن موردخاي أخذ مكان هامان، بصفته وزيرًا عظيمًا لدى الملك أحشويرش، بعد شَنْقِ هامان بالمشنقة ذاتها التي أعدها لشنق موردخاي، فكأنهما بذلك تبادلا أماكنهما. وقد جاء هذا الانقلاب في الأحداث بعد أن كشفت الملكة أستير، التي كانت قد أخفت هويتها اليهودية، مؤامرة هامان أمام الملك.

كما لو أنه طائرٌ حر، يُحلّق خلف الأفق البعيد، خارج حدود رؤيتي وفهمي.

وإنّ الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها فعل ذلك هي أن أؤمن بعجزي عن معرفة كل شيء، وبأنّ لدى الله خطّة مدبَّرة بإحكام، حتى وإن كانت هذه الخطة تؤذينا بشدة.

بالأمس، لمحتُ جانبًا من خطة الله عندما استقليتُ الحافلة بصحبة ريڤقة النيكافيه، وهي امرأة من بلدتي تعمل سكرتيرة في المدرسة التي يرتادها أطفالي الصغار. وقد ترك والدها أفغانستان منذ خمسين عامًا وركب حصانه ليأتي إلى إسرائيل. إنّ ريڤقة امرأةٌ جميلة بشكل مذهل، ويبدو وجهها كأنّه يشعّ نورًا نابعًا من أعماقها، وقد كانت الشخص البالغ المسؤول عن الرحلة المدرسية التي حضرها ابني دانيئيل في اليوم الذي قُتل فيه قوبي. ففي ذلك اليوم، لم يتمكن المعلم من الحضور وتُركت ريڤقة لكي تُشرِف على الرحلة، فاضطرت هي لإخبار دانيئيل وبقية الأطفال بالخبر المفجع وتهدئتهم.

علمتُ منها أنها تفهم معنى الخسارة بشكل عميق لأن والدتها توفيت أثناء ولادتها قبل خمسة وثلاثين عامًا، فنشأت كطفلة وحيدة بلا أم، وما زاد الطين بِلَّة أنّ والدها تزوج مرة أخرى، ولم تكن على وفاق مع زوجته الجديدة. وفي نهاية المطاف، كانت هي المرأة التي استطاعت أن تخبر دانيئيل بمقتل أخيه بأقصى درجات التعاطف والفهم. فقد كانت قادرةً على احتواء الألم وتقديم العزاء للأطفال، وربما حتى مساعدة نفسها على الشفاء من خلال ذلك.

أحيانًا، ما ينقصنا في الحياة يُشكّلنا بطريقة أقوى مما نملكه بالفعل، وغالبًا ما تنبع شجاعتنا وتعاطفنا من ألمنا. وإن كان ذلك صحيحًا بالفعل، فإنَّ قول "هذا أيضًا من أجل الخير"، حتى عن الشر والألم في حياتنا، هو طريقة أصدق للعيش. ولا شكّ بأنّ الألم الذي نشعر به قوي جدًا ومهيمن على حياتنا، لكن يتوقف الأمر في نهاية المطاف على طريقة تعاملنا معه، فإما أن يجرّنا إلى دوامة من الاكتئاب، أو أن يكون دافعًا لنا ومحفزًا للنمو.

في عيد البوريم، يمكننا أن نُدرِكَ أعمق الحقائق في العالم، وهي أنَّ حتى هامان، المستشار القاتل للملك أحشويرش، الذي خطط لقتل جميع اليهود في المملكة، يمكن أن يكون جزءًا من خطّة "التوڤ"، أي الخير. ونحن بلا شكٍّ نُقرُّ بأنَّ بعض الحقائق تتجاوز حدود عقولنا، التي تقيدها محدودية التفكير الثنائي، وأنَّ بعض الحقائق تتجاوز حدود اللغة، حيث تمارس الكلمات تقييدًا وتحريفًا بدلاً من الكشف، وأنّ بعض الحقائق يُفضَّل أن تُغلَّف بالصمت، وهو اللغة الحقيقية للإخفاء.

وربما تكون أجسادنا نفسها هي أقنعة للروح التي بداخلها، ويقع على عاتقنا نحن الاختيار فيما إذا كنا سنفتح الأبواب الموصدة أمام أرواحنا كي تُعبّر عن حقيقتها الداخلية للعالم، أو إن كنّا سنُبقي الروح محبوسة مثل عصفور ميت يتخبّط جسده مصطدمًا بزجاج السيارة الأمامي.

"لا يوجد درجة من درجات الوجود المتعددة لا يمكننا أن نجد فيها قداسة الله، إذ إنّها حاضرة في كل مكان وفي كل وقت"، كما يقول الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر مقتبسًا من الأساتذة الحسيديين في كتابه "عشر مراتب: أقوال حسيدية مختارة" .ورغم أنّ قداسة الله قد تكون مخفية عنّا، إلّا أنّها موجودة بالفعل، وعلينا الاستمرار في البحث عنها.

قوبي وهو طفل رضيع مع جدّتَيه

الفَصْلُ السَّادِسُ وَالثَّلَاثُونَ

مَانْترَا جَدَّتِي

(تَعْوِيذَةُ جَدَّتِي الْمُهَدِّئَةُ)

جعلني موتُ ابني قوبي أُعيد النظر في كلِّ شيءٍ في حياتي، حتى في "مَانْترَا" جدّتي، وهي كلمةٌ كانت تردّدها ليطمئن بها قلبُها .وعلمتُ بشأن هذه المانترا لأوّل مرّة في عام 1966، حين كنتُ في الصفّ الخامس، وقد تمّ اختياري حينها ضمن حصة الدراسات الاجتماعية لأكون المتحدّثة باسم مجموعتي في مناظرةٍ عن حرب ڤيتنام، أُقيمت في قاعة المدرسة أمام جميع تلاميذ المرحلة الابتدائية. وعلى الرغم من أنّني كنتُ طالبةً متفوّقة، فإنّ الأخبار العالمية لم تكن من اهتماماتي، كما أنّ عائلتي لم تكن من تلك العائلات التي تناقش شؤون العالم حول مائدة العشاء. ولم يُسمح لي أثناء المناظرة باستخدام أيِّ نصٍّ مكتوبٍ مسبقًا، وحين جاء دوري لأُقدّم خلاصة موقف الرئيس ليندون جونسون والحزب الديمقراطي من الحرب، اختلطت عليّ ڤيتنام الشمالية وڤيتنام الجنوبية، ولم أعد أتذكر مع أيٍّ من الجانبين نقف، نحن الأمريكيون .فتمتمتُ ببضع كلماتٍ ولم أكن أعلم حقًا عمّا أتكلم.

حين عُدتُ إلى البيت من المدرسة، كنتُ أشعر بخجلٍ كبيرٍ يمنعني من أن أُخبر أمّي بما جرى، لكنّ دموعي التي لم تتوقّف فضحتني. فقالت لي: "تنفّسي بعمق"، ثم تابعت: "عليكِ أن تهدئي. افعلي ما كانت أمّي، جدّتكِ، تقول لي أن أفعله: ردّدي هذه الكلمة عدّة مرّات حتى يطمئنّ قلبك. ركّزي على ترديدها فقط، وانسي كلّ شيءٍ آخر". ثمّ أخذتْ تُدلّك صدغَيَّ برفق، فتمدّدتُ على السرير وبدأتُ أُردّد الكلمة، حتى لم يعد هناك ما يشغل ذهني غيرها فسَكَنت بذلك نفسي.

وقد أخبرتني أمّي أنّ والدتها أخبرتها بهذه الكلمة السّرية عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها، حيث كانت تعمل في عيادة طبية خلال الحرب العالمية الثانية. وحين وضعت الحرب أوزارها وعاد الجنود إلى بيوتهم، فُصِلَت من عملها، وفي يومها الأخير، ضغطت بالخطأ على أزرار ملفات المرضى، فأَقفلتْها تمامًا، ولم يكن هناك مفتاح! عندها، صرخ المدير في وجهها ناعتًا إياها بالحمقاء، فعادت إلى البيت وقد غلبها البكاء. وهناك، وهي غارقةٌ في دموعها، علّمتها أمّها ترديد المانترا كي تغمر نفسها السكينة.

ولم أتذكّر تلك المانترا من جديد إلا في عام 1973، في الليلة التي سبقت يومَ الأول في الجامعة. وكان ذلك بعد أن أوصلني والداي إلى غرفتي في سكن "ماري دونلون" الطلابي في جامعة كورنيل، حيث

شعرتُ بالخوف والوحدة وأصابتني نوبة من الهلع، وعندما خلدتُ إلى النوم تلك الليلة، أخذتُ أُردّد في نفسي المانترا مرّاتٍ عديدة.

بعد ذلك بسنواتٍ طويلة، وتحديدًا في عام 1995، عدتُ أنا وأمّي إلى الحديث عن المانترا. وقد كنتُ حينها في الأربعين من عمري، وأُمًّا لأربعة أطفال، وكان أبي يُصارع السرطان في بيته. وكنتُ قد قمتُ بالـ"عالية"، أي الهجرة إلى أرض إسرائيل ،قبل ستة أشهر فقط، لكنّني عدتُ إلى الولايات المتحدة لأكون مع والديّ في فلوريدا. ولم نكن أنا ووالدتي حينها ننام جيدًا، من شدّة القلق على والدي الذي توقّف عن الأكل وكان يستخدم أنبوب تغذية.

وفي منتصف الليل، استيقظتُ وأنا أشعر بالبرد، فذهبتُ إلى المطبخ، وكانت أمّي هناك، جالسة وحدها إلى الطاولة، وهي ترتدي روبًا حريريًا زهريّ اللون. وكنّا نسمع صوت سعال أبي في نومه ،متردِّدًا في أرجاء البيت الصامت، وبينما كنا نرتشف الشاي بالحليب، قلتُ لها بصوتٍ خافت: "نحن بحاجة إلى المانترا الآن." فقالت: "معكِ حق"، وبدأت تهمس: "بيلادونا، بيلادونا" (لا أستطيع أن أُخبركم بالاسم الحقيقي، فالمانترا يجب أن تبقى سرًّا) .

فسألتُها: "ما الذي ترددينه؟"

فأجابتْ: "المانترا ...مانترا جدّتكِ."

قلتُ لها: "يا ماما، هذا اسم نباتٍ سامّ! لا يمكن أن تكون هذه هي المانترا الخاصّة بنا".

فسألتني: "هل أنتِ متأكّدة؟"

قلتُ: "نعم، المانترا الخاصة بنا هي فعلًا اسم نبات، لكنّه ليس سامًّا. لقد نَسيتِهِ يا ماما".

فقالت: "حسنًا، وما هي إذًا؟"

فأخبرتُها بأنّ المانترا هي... لافندر (ولن أُخبركم بالاسم الحقيقي أيضًا!). فشعرتْ بالحزن الشديد لأنها نسيت المانترا، لكن، ولحسن الحظ، كانت قد ردّدتْها على مسامعي مرّات عديدة، فلم أنسها، وها أنا الآن أعيد تذكيرها بها لأهدّئ من روعها. وهكذا، أغمضنا أعيننا، وردّدنا الكلمة بتركيزٍ كامل، ومع الوقت بدأنا نرتاح قليلًا، ثم عدنا إلى فراشينا.

وبعد بضعة أسابيع، تحدّثتُ إلى أختي الكبرى، وسألتُها إن كانت أمّي قد أخبرتْها عن المانترا من قبل ،فردّت بالإيجاب. فسألتُها: "وما هي الكلمة؟" فقالت: "بيلادونا". واتّضح أنني أنا التي كنتُ أُردّد المانترا الخاطئة طوال هذا الوقت!

ظلّ هذا الأمر يُشغل بالي، لكنّني كلّما فكّرتُ فيه أكثر، ازددتُ يقينًا بأنّ المانترا التي اخترتُها أنا، كانت المانترا الصحيحة، أقصد المُلائمة لي أنا. إذ لم أستطع أن ألفظ اسمَ نبتةٍ سامّة، فلم يكن ذلك يوافق طبيعتي .فكأنّي من دون وعي، أخذتُ ما أُعطي لي، وحوّلته إلى شيءٍ يمكنني أن أحبّه، شيءٍ يلامس روحي، وهي نبتة "لافندر" المهدّئة. لقد شكّلتُ المانترا بصوتي الداخلي.

لكن بعد مقتل ابني قوبي، أدركتُ أنّني لم أعد قادرة أن أقول "لافندر" بعد الآن. وفجأة، انكشفت لي الحقيقة: أصبحت المانترا التي ورثتُها عن جدّتي — تلك النبتة السامّة — هي المانترا المناسبة لي الآن. فبعد موت قوبي، لم أعد أستطيع أن أُردّد كلمةً لا تحمل في طيّاتها شيئًا من العنف والرعب، ولم أعد أقوى على نطق كلمةٍ لا تربط الجَمال بالألم. إذ إنّي بحاجة إلى كلمةٍ تحمل في ذاتها تناقضًا: كلمةٍ تُسكِّنني بسُمّها.

ثمّ أدركتُ شيئًا مدهشًا لم يخطر ببالي من قبل: فبينما كنتُ أُكرّر ترديد تلك المانترا، وهي كلمةٌ إنجليزية ،أخذتُ أسمع في داخلها كلمةً أخرى، التي كانت تُشبه في صوتها العبارة العبريّة: "هو إلهي"، وتبيّن لي أن جدّتي كانت حكيمة حين اختارتها لي. ولا أعرف من أين أتَت جدّتي بتلك المانترا ،وأستبعد أن يكون مصدرها أمّ جدّتي المجرية، لكن، من يعلم، ربّما تكون هي مصدر تلك المانترا. إذ إنّها ،أي أمّ جدّتي، فقدت طفلًا لم يُتمّ أسبوعه الأوّل، ولم يُطلَق عليه اسم. وكنّا نُطلق عليه "العمّ بيبي" (Uncle Baby)، وكنا نزور قبره من حينٍ إلى آخر في مقبرة نيوجيرسي.

ربّما كانت هذه المانترا هي اسمه، واسم كلّ من مات صغيرًا، كأنّها اعترافٌ بأنّ الله مزيجٌ من الألم والجمال والغموض، وأنّ كلّ ذلك يتجلّى في اسمه ،مثلما تتجلّى تلك المعاني في رائحة "الحِلبينة"، تلك النبتة الكريهة التي كانت جزءًا من البخور المقدّس الذي أَمر اللهُ الكاهنَ الأعظم أن يقدّمه في الهيكل. فبدون تلك النبتة ذات الرائحة السيئة ،ستكون رائحة البخور ناقصةً، ولن تكون عَطِرة بما يكفي.

الفصلُ السّابعُ والثّلاثونَ

التَّواضُعُ

تُخبرُنا التوراةُ أنّ النَّبيّ والرسول موسى كانَ إنسانًا مُتواضِعًا. فعندما اختارهُ اللهُ ليُخرج بني إسرائيل من مصر، اعترضَ قائلًا إنّ هناكَ مَن هُم أحقُّ منهُ وأقدرُ على تبليغِ كلامِ الله. فقد كانَ موسى يُعاني من صعوبةٍ في النُطق، إذ كان يتلعثمُ في كلامه، ولم يكُن يظنُّ أنّهُ قادرٌ على الحديث أو على إيصالِ الرسالة التي أرادَ اللهُ منه أن يُبلّغها، فضلًا عن قيادةِ بني إسرائيل. ولكنّ اللهَ أصرّ وكانَ من أسبابِ اختيارِ اللهِ لموسى تواضُعُه، فقد كانَ يُصغي بانتباهٍ خالصٍ، ويَنقلُ كلامَ الله بأمانةٍ كما هو وكما سمعه بالضبط، من دونِ تحريفٍ أو تعديل، ومن دون أن يُضفي عليهِ تأويله الخاصّ. لقد منحَهُ تواضُعُه صفاءً روحيًا خاصًّا، مكّنهُ من أن يتلقّى كمالَ تجلّي كلامِ الله.

وحينَ طلبَ موسى أن يرى مجدَ الله، أي نوره، قالَ لهُ اللهُ إنّهُ سيضعُهُ في شقٍّ من الجبل، ويحميه بـ"يَده"، إلى أن يمرّ. ثمّ رفع اللهُ "يَده"، فرأى موسى اللهَ أثناء عبوره، لكن من الخلف، أي إنّ الرؤيةَ كانت من وراءِ الله، ولم تكن لـ"وجهَه".

وفي كتابه "النار المقدّسة"، يخبرنا الحاخام كالونيموس كالمان شابيرا، حاخام غيتو وارسو، بأنّهُ حتى في أوقاتِ احتجابِ الله، لا ينبغي لنا أن نظنَّ أننا غائبونَ عن "يَديهِ"، أو عن لمسته، لأنّنا منقوشونَ هناكَ على كفَّي الله، كما ورد في الآيةِ السادسةِ عشرة من المقطعِ التّاسعِ والأربعينَ من سِفر إشعياء: "هَأَنَذَا قَدْ نَقَشْتُكِ عَلَى كَفَّيَّ." ويقولُ الحاخام كالونيموس إنّ هذهِ الحالة تُجسِّد" أقصى درجات الاقتراب"، ويؤكّدُ أنّ الإنسانَ يُمكنُه أن يكون قويًّا وثابتًا على أخلاقه وكرامته، حتّى في أوقاتِ احتجابِ الله.

وكأنّ اللهَ يلعَبُ معنا لعبةَ "الغميضة"؛ إذ يَطلبُ منّا أن نُغمِضَ أعينَنا حينَ يقتربُ منّا، لأنّ مجدَه يفوقُ قدرتنا على الاحتمال، وحينَ نفتحُ أعينَنا، يكونُ قد اختفى، فلا نراهُ، لكنّنا نَعلمُ أنّهُ كانَ هُنا.

أنا أعلمُ أنّكَ كنتَ هنا، يا اللهُ، يا قُدُّوس.

فاللهُ نفسُهُ مُتواضِع، ويسكنُ في التواضع. والمشيح نفسُهُ مُتسوِّلٌ مُتواضِع، فوحده مَن ذاقَ العَوَزَ الشديد يستطيعُ أن يطرد من نفسِه التكبّر والغرور، ويَفتحَ قلبَهُ كي يستشعر الرحمةَ التي يحتاجُها هذا العالم، فيَبسطَ محبّتَهُ لتشملَ البشريّةَ جمعاء.

وقد علَّمنا الحاخام دوف بَاير من ميزريتش، وهو من أتباعِ وطلاب البَعَل شِم توڤ (الحاخام يسرائيل بن أليعازَر، مؤسّس الحركة الحَسيديّة في القرن الثامن عشر)، أنّ الإنسانَ ينبغي أن يرى نفسَهُ

كأنّهُ لا شيء، وأن ينسى كلّ ما يجعله أنانيًا ومتمحورًا حول ذاته... وعندئذٍ فقط يُمكنُهُ أن يَبلغَ "الاستعداد الأقصى"، أي ذلك الوعي الأسمى، حيثُ تتساوى عنده الأشياءُ جميعُها: كالحياةِ والموت، والبحرِ واليابسة.

ومعَ ذلك، فقد خُلِقنا لندخلَ في علاقةٍ مع الله، ولِنكونَ شركاءَ كامِلين معه. فينبغي على كُلِّ إنسانٍ أن يقول: "من أجلي خُلِقَ العالم." (باب سَنهَدرين، 37أ). لذلك ،فحتّى أثناء تحلّينا بالتواضع، يجبُ علينا أيضًا أن نُقدِّرَ قيمة أنفسَنا، ونُدرِكَ الألوهيّةَ الكامنةَ فينا. وإنّ علينا أن نكونَ مُمتلئينَ وفارغينَ في آنٍ واحد. والموتُ، إن سمحنا له، يُعلّمنا كيفَ نَبلغُ هذا المقام من الغنى والتخلّي معًا.

في إحدى المرّات، قالت لي صديقةٌ مسؤولةٌ عن رعاية طفلٍ من ذوي الاحتياجاتِ الخاصّةِ يُعاني من إعاقةٍ عقلية: "محبّتُك لابنِكَ قوبي أصبحت أعمقَ بعدَ مقتله، لأنّكَ لا تنالين شيئًا منه في المقابل. وما زالت هناكَ علاقة بينكما، لكنّها الآنَ معَ رُوحِه. ومحبّتُكَ أقلُّ أنانية، لأنّكِ أنتِ فقط التي تُعطي".

ورغم أنّ كلماتها تحمل كثيرًا من الصحة ،إلّا أنّها مُخطئة حينَ قالت إنّي لا أتلقّى شيئًا من قوبي. فأنا أتلقّى منه الكثير ،وإنّي ممتلئة وفارغة في الوقتِ ذاته، إذ إنني أفتقدُ الحبَّ والفرحَ وأمانَ حياةٍ أجزاؤها متماسكة بلا كسور، لكنّني، في الوقتِ نفسِه، أتعلّمُ جمالَ الاستسلام للمجرى الطبيعي للأحداث، وأن أستقبل كلّ لحظة بذراعين مفتوحتين، وأتدرّبُ على الحضور في اللحظةِ والوجودِ الكاملِ فيها، لأنني أُريدُ أن أُقدّرَ كلَّ لحظةٍ مُنِحَت لي، وذلك من أجلي ومن أجل قوبي.

إن التواضع يعني أنني أُدرك أنَّه حتّى الحزن، في يومٍ من الأيام، سيأخذُ حجمه الطبيعي، وأنّهُ مع مرورِ الزمن، سأتعلمُ أن أمنحَ الموتَ المقدار المناسب من حياتي، لا أكثرَ ممّا يستحقّ. وإنّ قوبي الآن أكثرُ حضورًا في حياتي من أيِّ وقتٍ مضى، فلا تمرّ ساعةٌ دونَ أن أُفكّر فيه وأستشعر وجوده في قلبي. وفي كلِّ صباحٍ، أستيقظُ وقد غمرتني المشاعر والأفكار المتعلقة بموته، وأنام عليها كلَّ مساءٍ. وتكمن الحيلة في أن أمنعَ الموتَ من أن يكونَ أكثرَ حضورًا من الحياة، وألا أتخلّى عن حياتي وعن أولادي الآخرينَ من أجلِ ذكرى كلِّ ما فقدتُه. إذ إنّ عليَّ أن أجعل محور حبّي واهتمامي أطفالي وزوجي الذينَ لا يزالونَ معي، في هذا العالم.

ويمكنُ للتواضعِ أن يُعينني على ذلك، فحين أُسَلِّمُ أنني لستُ مسيطرةً على كلّ شيءٍ حولي وأنّ المعاناة جزءٌ من الحياة، فإنّ ذلك يساعدني على التخفيف من ألمي.

ويمكنُ للتقويمِ العبريّ أن يُعينني أيضًا في ذلك، وإليكم ما أقصده: إنّ ابني الحبيبُ قوبي قد قُتلَ خلالَ الفترةِ التي تمتدُّ لسبعةِ أسابيعَ بينَ عيد الفصحِ اليهوديّ وعيد الـ"شّفوعوت" الذي يُعرَف أيضًا بعيد الأسابيع. وتُسمّى هذه الفترة بفترةِ العومِر، وهي كلمةٌ عبريّةٌ تعني "مِكيالًا صغيرًا" أو "كميةً محسوبة". وإنّ هذه الفترةَ، الواقعةَ بينَ وقت الحصادِ وظهور أوائلِ الثمار الناضجة، هي فترةٌ يغلب عليها عدم اليقين والترقّب والقلق، فخلالها تُحدَّد كميّة الطعام الذي سنأكلُهُ طوالَ العام.

وقد ارتبطَت هذه الفترةُ أيضًا بالكوارثِ في تاريخِ الشعبِ اليهودي؛ إذ إنّ أربعةً وعشرينَ ألفًا من تلامذةِ الحاخام عَقيفا ماتوا بالطاعون خلالَ أسابيعِ العومِر السبع. ولهذا، لا يزالُ الشعبُ اليهوديّ حتّى اليوم يَعتبرُ هذه الأسابيعَ فترة حِداد، ويَلتزمُ خلالَها بطقوسِ الحداد، فلا يُقامُ فيها زفافٌ ولا يقصّ أحدهم

خلالها شعره ،وذلك حتّى انتهاء عيد الأسابيع. ويُستثنَى من ذلكَ اليومُ الثالثُ والثلاثونَ من العومِر، المعروفُ باسم "لَغ باعومر"، لأنّهُ يومٌ تغمره أجواء الفرح، إذ توقّفَ فيهِ الوباء، ولم يعد طلابُ الحاخام عَقيفا يموتون منه.

وفي هذا الإطارِ من الحزنِ الجمعيّ، تندرج مأساتُنا الشخصيّة: فقد قُتِلَ قوبي في اليومِ الثلاثينَ من عدّ/فترة العومِر"*.

ويرتبطُ كلُّ أسبوعٍ من أسابيعِ فترة العومِر في التقليدِ اليهوديّ بصفةٍ وجدانيّةٍ وروحيّة. والأسبوعُ الذي قُتلَ فيهِ قوبي كانَ أسبوعَ هود ،وتعني هذه الكلمة العبرية" العظمة" أو "البهاء". ويربطُ الحاخاماتُ الكَابَاليّون كلمة هود بكلماتٍ تعني: "الشكر"، و"الاعتراف"، و"الإقرار". وهود، في جوهرها، تُشيرُ إلى القدرةِ على الاستسلامِ لله، والتواضعِ أمامَ عظمته وخطّتِه.

لكنّ التواضعَ ليسَ صفةً سلبيّة، بل يتطلّبُ قوّة تتمثّل في القدرة على الخشوع أمامَ عظمةِ الله، والاستسلامِ لها عن وعيٍ، لا من بابِ الضعف، بل نتيجة مشاعر الإجلالِ والتقدير والرهبةِ التي نشعر بها تجاه كلّ ما يُمثّله الله.

أحيانًا، يبدو التواضعُ كمثلِ الضوء المارّ عبرَ جهاز العرض (Projector)؛ إذ لا يُمكنُ للصورةِ أن تظهرَ على الجدارِ إلّا بعدَ أن يتركّز الضوءُ أوّلًا داخلَ عتمةِ الآلة. وبطريقةٍ مشابهةٍ، لا يظهر المعنى الكامن وراء قصّة حياتنا إلّا بعدَ أن يَمرَّ النورُ عبرَ الظلمةِ ويخرجَ منها.

وحينَ تحدّثَ الحاخام حاييم بروفندر إلى الآباءِ الثواكل خلالَ خلوةِ شفاءٍ روحيّةٍ نظّمتها مؤسّسةُ قوبي ماندل، قال إنّ ما مررنا بهِ من تجاربَ لا يُمكنُ نقلُهُ إلى الآخرين أو التعبير عنه بسهولة. فقد اختبرنا الموت المأساويّ لأولادنا، لكنّ هذا الموتَ لم يكُنْ خارجَ سياقِ التاريخِ اليهوديّ، بل كانَ جزءًا منهُ، وامتدادًا له. ولذلك، فإنّ لموتِ أولادِنا ولِتجاربِنا القاسية الناجمة عن فقدهم ،شكلًا من أشكال العظمة.

وربّما تتلخّص قوّةُ التواضعِ في قدرتنا على الانحناءِ أمامَ عظمةِ ما عشناه؛ أن نكونَ مُتواضعين بما يكفي لنلاحظ حضور اللهِ في حياتِنا؛ وأن نكونَ مُتواضعين بما يكفي لنبصر ما هو أبعد وأعمق من غزارة دُموعِنا.

ومع أنّ القرابين والذبائح التي كانت تُقدَّم في الهيكل قد توقّفَت منذ دماره، فإنّ تقليدَ العدّ الذي يستمرّ حتى عيد الشَّفُوعوت لا يزال قائمًا حتى اليوم، ويُمارَسُ كتعبيرٍ عن الوفاء لتلك الوصيّة القديمة.

---

*ملاحظة توضيحية من المترجم: عَدُّ العُومِر (سْفِيرَة هَعُومِر) هو طقس ديني في اليهودية، يقوم على العدِّ اللفظي لكل يوم من الأيام التسعة والأربعين الواقعة بين عيد الفصح اليهودي (الپيسَح) وعيد الأسابيع (الشَّفُوعوت) . إنَّ تقليدَ العدّ في هذه الفريضة اليهودية يعودُ في أصلهِ إلى وصيّةٍ توراتية تتعلّقُ بقُربانِ العُومِر، أي حُزمةِ الحصاد، الذي كان يُقدَّم في عيد الپيسَح، ومن بعدهِ يبدأ اليهودُ في عدّ تسعةٍ وأربعين يومًا، إلى أن يحلّ عيد الشَّفُوعوت. وكان هذا القُربان يُقدَّم من قِبل الكهنة في هيكل أورشليم القدس، ويتكوّن من محصولِ الحبوبِ الطازج الذي جُني حديثًا من الأرض.

الفَصْلُ الثَّامِنُ وَالثَّلَاثُونَ

الجَنَّةُ

أخبرتني صديقتي ماعَيان، البالغة من العُمر خَمسَ عَشرَة سنة، أنّها التقت شابًا في السّادسةَ عَشرَة من عُمره في مركز التّسوّق في أورشليم القدس، وكان ذلك بعد مَقتَل قوبي. ورغم أنه لم يكن يعرف قوبي، إلّا أنّه، عندما أخبرتْه ماعَيان أنّها كانت صَديقتَه، قال لها: "لا تقلقي عليه. هو راح على الجَنّة مُباشَرَةً، وهُناك، في الجَنّة، بتلاقي كلّ الحشيش اللي بدِّك يّاه. نوع فاخر عالآخر! ولا حتّى بتحتاجي تولعيه!"

فقالت له: "طيب، إذا هاي هي الجَنّة، فكيف بيكون الجَحيم إذن؟"

فرَدَّ قائلًا: "الجَحيم هو إنّك تشوفي الحشيش حواليكي بكلّ مكان، بس ما في ولا طَريقة تولعيه حتّى تدخنيه!"

عندما فكّرتُ في تصوّر هذا الشاب الصغير للجَنّة والجَحيم، أدركتُ أنّ ذلك لا يمكن أن يخطر على بال أحد إلّا إذا كان فتى في السّادسة عشرة من عمره. وفجأةً لمعت فكرةٌ في رأسي: ربّما لا يكون الموت في سنٍّ صغيرةٍ مصيبة، بل نِعمة.

فهُناك الكثير من الناس في الجَنّة، ممّن ماتوا شيوخًا مُتعَبين، بعد أن تطلّب منهم الأمر ثمانين سنة حتّى يُكمِلوا رسالتَهم على الأرض. وإن كان لا مفرّ من الموت في سنٍّ صغيرةٍ، فلعلّ روح الشباب المتقدة وطاقاتهم التي لا تنضب تزدهر هناك في الجنّة. وحين أفكّر في قوبي هناك، أراه ممتلئًا بالحياة والنشاط ويشتعل حماسًا للمُضيّ قُدمًا وللتَّعلُّم ولابتكار أشياء جديدة. وربّما هو يَبني الآن بيتًا هناك لِتسكُن فيه الأرواح المُسِنَّة المُتعَبة. وربّما يُحضِّر لي غرفة لكي أجد مكانًا أشعُر فيه بالراحة عندما أموت، مكانًا أليفًا يُشعرني بأنّه ينتمي إليّ. وإنّي أعلم أنّ قوبي مَشغولٌ جدًّا في الجَنّة، لكنّه في الوقت ذاته يَعمل بِجِدّ ليَخلُق فُرصًا لنا تُمكننا من التواصل معه، وليُرسِل إلينا رَسائل من العالَم الآخَر.

فعلى سبيل المثال، قرأ لاعب البيسبول المفضّل لدى قوبي، كال رِبكن، قِصَّتنا في " Jewish Times" (جويش تايمز) في بالتيمور، وتواصَل معنا عبر وِكيل أعماله، لأنّه يَطمح في المشاركة في بناء ملعبٍ للبيسبول في إسرائيل تخليدًا لاسم قوبي. ومنذ حينها، لم يعاود كال التواصل معنا، لكن لا أستبعِد أن يقوم بذلك في المُستقبل، لأنّ قوبي كان سيُحبّ فكرة إنشاء ملعب بيسبول في إسرائيل.

وهُناك أيضًا تلك "المُصادفة" الطّريفة، عندما تبيَّن أن فاي كيلّرمان، وهي إحدى الكاتبات المُفضَّلات لدى قوبي، كانت المُضيفة في بيتٍ دُعِي إليه زوجي لتناول طعام الغداء أثناء زيارته للوس أنجلِس لقضاء يوم الشّبات هناك. وفي ذلك الوقت، طُرِحَ مشروع قانون في الكونغرس، يُدعى "قانون قوبي ماندل"، هدفه تسهيل توفير العدالة لِلأميركيين الذين قُتِلوا على يد إرهابيّين فلسطينيّين.

أمّا جهدنا الأهمّ الذي نقوم به الآن، فيتمثّل في إدارة مؤسَّسة قوبي ماندل، التي أسَّسناها بأنفسِنا، والتي نُقدِّم فيها برامج مُتنوِّعةً للتشافي من الألم النفسي، منها خَلوات خاصّة للأمّهات، وأخرى مُخصّصة للعائلات بأكملها، إضافة إلى مُخيَّمٍ يَجمع ما يُقارب خَمسَمِئة طفل، فَقَدَ جميعهم أحبابًا لهم جرّاء الهجمات الإرهابية (للقراءة أكثر عن المؤسَّسة، راجِع الفصل الخاص بها في نهاية الكتاب).

في الصّيف الماضي، شاركتْ في مخيمنا طفلةٌ في الحادية عشرة من عمرها قُتِلَ والدها، وقد قصّتْ على المُشرفةَ المسؤولةَ عن برنامج الأطفال، حُلمًا كانت تراه كثيرًا، ولم تُخبر به أحدًا من قبل. في الحُلم، كان والدها يَظهر لها في حديقة، مرتديًا ثيابًا بيضاء فضفاضة، لكن في كلّ مرّة كانت تركض نحوه لتعانقه، كان يُدير لها ظَهره ويَبتعِد. لكن في أحد الأيّام، رأت حُلمًا آخر أثناء وجودها في مخيمنا. إذ ظهر لها والدُها في الحديقة من جديد، وعندما ركضت نحوه، التفت إليها هذه المرّة واحتضنها، وقال لها إنّها ستكون بخير هي ووالدتها وإخوتها، وأنّه يُراقبهم من الأعلى ويحميهم.

إنّ حكاية هذه الطفلة عن التشافي، هي قِطعَةٌ صغيرة من الجَنّة بالنّسبة لي.

كنتُ قد ذكرتُ في الفصل الثاني والثلاثين الشاب إيش قوديش، ابن زهاڤاه غيلمور، الذي قُتِل على يد إرهابيّين وهو في الخامسة والعشرين من عمره، أثناء عمله كحارِس أمنيّ في مكتب التّأمين الوطنيّ ("بيتوح لئومي" باللغة العبرية) في القدس الشرقيّة. وقد أخبر شقيقُه الأصغر، ذو السبعة أعوام، أُمَّه بأنّه ما يزالُ يرى شقيقه الراحل في قلبه. وبالنّسبة لي، فإنّ هذا هو أجملُ تَعريفٍ للجَنّة: ذلك المكان الذي ترى فيه بِقَلبِك.

الفَصلُ التّاسِعُ وَالثَّلاثُون

الغَزالَةُ

في اليوم الذي قُتِل فيه قوبي، خرجت غزالة من الوادي، وكانت حوافرها مضرّجة بالدّم. لكنّها لم تكن الغزالة الوحيدة التي رأيتُها تلك الأيّام... فقد كنتُ أقود سيارتي برفقة صديقتي شُولاميت، وهي معالجة نفسيّة، وفجأةً قفزت غزالة أمامنا وعبرت الطريق في لمح البصر. فسألتني شُولاميت: "ماذا تعني الغزالة بالنّسبة لكِ؟" فأجبتها فورًا: "إنّها تعني أنّ كلّ شيء يمكن أن يتغيّر في لحظة." إذ كنتُ حينها أظنّها إشارة إلى أنّ حياتي ستتحسّن، وخصوصًا من النّاحية الماليّة.

لكنّي الآن أعلم أنّ الغزالة كانت تعني ما هو أعمق من ذلك بكثير. فالغزالة، في الرؤية الصوفيّة اليهوديّة، هي رمزٌ لـ"شخيناه"، وتعني هذه الكلمة الحضور الأنثويّ للإله في هذا العالم. وبحسب ما ورد في كتاب الزوهار المُقَدس، وهو أعمق كتب التصوف اليهودي، في تفسير نص "پنحاس" 249أ، فإنّه لا يوجد حيوان على وجه الأرض لديه عطفٌ وشفقة مثل الغزالة، إذ إنّها تجمع الطعام وتُطعِم غيرها. كما أنّها عندما يحتاج العالم إلى المطر، تجمع جميع الحيوانات حولها، وتقودها إلى قمّة جبل شاهق، ثمّ تطوي رأسها بين ركبتيها، وتتضرّع لله باكيةً كي يُنزل المطر فهي بذلك إذن الرمز الأسمى للرّحمة الإلهيّة.

ويروي كتاب الزوهار المُقَدس أمثولةً (حكاية رمزية) عن غزالة تُعاني أثناء الولادة، حيث تضع رأسها بين ركبتيها وتتلوّى من شدّة آلام المخاض، لكنّها تعجز عن إخراج صغيرها، لأنّ رحمها ضيّق جدًا. وفي اللحظة التي تصل فيها إلى أقصى درجات العذاب، يقترب ثعبان ويلدغها، فيتسبّب الألم الناجم عن اللدغة في توسّع فتحة الرحم، وعندها فقط تتمكّن من الولادة. فالثعبان، وهو رمز الشرّ، هو الذي يتسبّب بالألم الذي يُمهّد الطريق أمام خروج الجنين إلى الحياة. وهكذا، لا تتمّ الولادة إلّا من خلال شراكةٍ عجيبة بين غزالةٍ رؤوفة وثعبانٍ خبيث. وبهذه الطريقة تحديدًا سيولد من سيجلب الفِداء إلى العالم... وهو المشيح.

تحتوي هذه الحكاية على سرٍّ دفين، وهو جوهر لغز الشرّ في هذا الكون. فكلّ تجربةٍ ومواجهةٍ مع الشرّ تُقرّبنا من ولادة المشيح، ومن الفداء الذي سيجلبه معه. وبحسب التصوّف اليهودي، فإنّ مقدار الشرّ في العالم محدود، وهو ثابتٌ في كميّته منذ لحظة الخلق الأولى ولا يزداد. وبحسب النصوص الصوفية اليهوديّة، فقد قَيَّدَ اللهُ نورَهُ اللامتناهي في بداية الخلق ليُفسِح مجالًا للوجود. ثمّ سكبَ نوره في أوعيةٍ خاصّة، لكنّها لم تحتمل الإشراق الإلهي فانكسرت، فعاد معظم النور إلى مصدره، وهو الله. غير أنّ

بعضًا من هذا النور تسرّب إلى جدران الأوعية المكسورة، وعلق فيها. وهذا النور هو الآن في المنفى ومهمّتنا نحن البشر أن نُخلّص هذا النور، أن نجلب الخير إلى هذا العالم، وأن نرفع النور نحو السماء.

وقد يبدو لنا أنّ الشرّ في ازدياد، وأنّه يتّسع ويُصبِح أشدّ شراسةً يومًا بعد يوم. لكن الحقيقة هي أنّنا في كلّ مرّة نواجه الشرّ ونتحدّاه، فلدينا فرصةٌ لاستعادة شرارةٍ من ذاك النور المبعثر والمختبئ في زوايا هذا العالم. وسوف يأتي يوم يُمحى فيه الشرّ، إذا سمحنا نحن بذلك، فإذا أدّينا دورنا في تخليص الشرارات ورفع النور، فسيُمحى الشرّ من الوجود.

يحمل كلّ يومٍ في طيّاته إمكانيّة أن يقترب هذا العالم من الشفاء. وإنّ النبيَّيْنِ إلياهو وموسى، والحاخام شمعون بار يوحاي، وجميعهم تجلّياتٌ لحضور الله في العالم، قد اختبؤوا في الكهوف ولجأوا إليها طلبًا للحماية، وهناك، في أعماق الظلمة، عثروا على النور الإلهيّ. فلم يَظهر لهم النور إلّا حين دخلوا عتمة الكهف، وعاشوا فيه، وحينها فقط استطاعوا أن يكشفوا للعالم نور الله وقداسته.

وفي دعاء البركة الذي نسبّح به الله قبل تلاوة مقطع "شمع يسرائيل"، والمعروف باسم بركة خالق النور (Birkat Yotzer)، نُقدّس الله الذي "يُصوّر النور ويخلق الظلمة" في الوقت ذاته. فالنور والظلمة كلاهما من عند الله، وكلٌّ منهما يحمل معنى، ورسالة. وإنّ الظلمة المتمثلة في ظلمة الكهف، وظلمة الألم، وظلمة العالم، هي التي تُعطينا القدرة على رؤية النور، وتقديره، ومباركته كما ينبغي.

وقد قال الشخص الحكيم في سفر الجامعة، وذلك في الآية الثالثة عشرة من المقطع الثاني من السفر: "رَأَيْتُ أَنَّ النُّورَ يَزْدَادُ بَرِيقًا حِينَ يَنْبَثِقُ مِنْ قَلْبِ الظُّلْمَةِ" وهذا يعني أنّ في داخل كلٍّ منّا تكمن شرارةٌ مصدرها النبيّ إلياهو، وتحاول الخروج من العتمة، لتحمل إلى هذا العالم شفاءً ونورًا.

مؤخرًا، خُيّل إليّ أنّ السماء تشتعل، حين استيقظتُ في وقتٍ مبكرٍ جدًّا من الصباح. وعندها أدركتُ أنّ بهاء النور لا يتجلّى إلّا بعد أن يكون العالم قد غَرِقَ في ظلمة الليل الطويل، إذ تمزّق الشمسُ سكون السماء وتُفجّر الأفق بأنوار الفجر. وفي تلك اللحظة فحسب، تتجلّى إشراقة النور في أبهى صُورها وأنقاها.

لعلّ رؤية شرارة النور وسط العتمة الدامسة هي جوهر الإيمان بعينه. وإنّ الظلمة التي تغمرني أنا هي جزء من آلام شعبٍ بأكمله، الذي فَقَدَ حتى الآن، وبينما أكتب هذه الكلمات، أكثر من سبعمئة نفسٍ غاليةٍ في هجماتٍ إرهابيّة، عدا عن آلاف الجرحى... وإنّ كلّ هذه الآلام هي علاماتٌ على ولادة المشيح وجزءٌ من مخاض ولادته. فالفداء ليس إلّا ولادةً إلهيّةً تتمّ في أحشاء الألم.

إنّ مقتل ابني الحبيب قوبي، وصديقه العزيز يوسف، كان بمثابة لدغة الثعبان في جسد الغزالة. وإنّا مدعوّون لأن نلد الإيمان والقوّة من رحم هذه اللدغة. وقد سمّت أمّنا راحيل، التي ماتت وهي تلد، ابنَها "بن أوني"*، أي ابن حزني، لكنّ أباه يعقوب دعاه "بنيامين"، أي ابن يميني، وابن قوّتي. وفي العبريّة،

---

*ملاحظة توضيحيّة من المُترجِم: في العبريّة، الكلمتان "أوني" بمعنى الحزن، و"أوني" بمعنى القوّة، تُكتبان بشكلٍ مختلف، لكنّ التفسير هنا يعتمد على التشابه في اللفظ، وهو أسلوب دارج في الشروحات الحاخاميّة والتصوّف اليهودي. كما أنّ اسم "بنيامين" يعني حرفيًّا: "ابن اليمين"، أي ابن الجهة اليمنى، وهي في الثقافة العبريّة رمزٌ للقوّة، والبركة، والمكانة الرفيعة.

تحمل كلمة "أوني" مفارقةً، فهي تعني الألم كما تعني القوّة. وفي كتابها "سفر التكوين: بداية الرغبة" تقول عالمة التوراة أڤيڤاه زورنبيرغ: "إنّ جوهرَ القداسة هو أن نُحوِّل الألمَ إلى قوّة، وأن نُدرك وأن نستشعر القوّة الكامنة في الألم، والانسجام المختبئ في فوضى الحياة."

إنّ جوهر القداسة يكمن في أن نتمسّك بالقوّة، ونلتصق بالكمال، ونمضي نحو الشفاء.

الفَصْلُ الأَرْبَعُونَ

ذِكْرَى زَوَاجِنَا

لا نحتفل عادةً، أنا وزوجي سيث، بذكرى زواجنا التي تصادف الثامن والعشرين من شهر أيّار/مايو، والسبب الرئيسيّ في ذلك هو أنّ هذا اليوم هو تاريخُ ميلاد ابننا دانيئيل أيضًا، وقد كان دانيئيل أعظم هديةٍ أُهديت لي في ذكرى زواجي، فلم أكن بحاجة إلى هديةٍ غيره. وحين كان دانيئيل صغيرًا، كانت حفلات عيد ميلاده تُرهقني كثيرًا، فلا تبقى عندي طاقة للاحتفال بعيد زواجي. لكن، كان يومُ الثامنِ والعشرينَ من شهر أيّار/مايو عام 2002 مختلفًا. فقد كنا قد احتفلنا مسبقًا ببلوغه سنّ البلوغ، البار ميتسڤاه، بعد أن أتمّ عامه الثالث عشر. وخلال الاحتفال، غمره الجميع بمحبّةٍ واهتمامٍ كبيرين، وحصل على العديد من الهدايا. وهكذا، وجدنا أنا وزوجي وقتًا لأنفسنا، فخرجنا وحدنا لتناول الغداء.

حين وصلنا إلى المطعم، استقبلتنا نادلةٌ بابتسامةٍ عريضة، وقالت لي بأنّ تنورتي جميلة. وكانت تلك الشابّة ذات الشعر اللامع شديد السواد، شعلةً من النشاط والحيوية، فلا يستطيع من يشاهدها إلّا أن يُعجَب بها. وقلتُ في نفسي: لا شكّ أنّها لا تعلم شيئًا عن الألم الذي أعيش معه، وعن ثِقل ما أحمِلهُ في قلبي. والحمد لله أنّها تجهل كلّ هذا، وأنّها لم تتذوّق طَعم المعاناة التي قد تُقدِّمها لنا الحياة، ولم تختبر شعوري الحالي بأنّ كلّ لحظة فرحٍ أعيشها اليوم مُشبَعةٌ بعذاب الفقد. والحمد لله أنّها لا تزال في منأى عن كلِّ هذا الألم.

وبينما كنّا نتناول طعامنا، خطر على بالنا أنّ هذا المطعم قد يكون المكان الأنسب لإحياء ذكرى عيد ميلاد قوبي الخامس عشر، الذي كان سيحتفل به لو ظلّ حيًّا. فقد كنا قد قررنا أن ندعوا خمسة عشر شخصًا فقيرًا أو ممّن يعانون ظروفًا صعبةً إلى عشاءٍ خاصّ، احتفاءً بعيد ميلاد قوبي، لنضيف بهجةً إلى حياة الآخرين.

وهكذا، تحدّثنا إلى مدير المطعم عن فكرتنا، فأخبرنا بأنه يعمل متطوّعًا في مركزٍ قريب يهتم بالمراهقين من أبناء العائلات الفقيرة وغير المستقرة، وقال إنّه يعتقد أنّ أولئك اليافعين سيفرحون بالخروج لتناول الطعام معنا. وقد بدا لي وكأن فكرتنا هذه تُنسَج من تلقاء نفسها، فنحن لم نفكّر أصلًا في اصطحاب مراهقين لتناول الطعام معنا، لكنّ الفكرة كانت منطقية تمامًا! ففي نهاية المطاف، كان قوبي في سنّ المراهقة حين قُتِلَ، وشعرنا بأنّه، بينما يُراقبنا من الأعلى، كان يحيك الخيوط معًا ليساعدنا في تنظيم عيد ميلاده. وعندما أخبرْنا المديرَ أنّ عيد ميلاد قوبي يصادف يوم الجمعة، قال إنّهم لا يُقدّمون الغداء عادةً في هذا اليوم، لكنّه سيفتح المطعم خصّيصًا من أجل المجموعة التي سندعوها.

شكرناه على لطفه، وقبل أن يغادر، سألَه زوجي: "هل تعرف عائلة غودمان؟ إنهم يسكنون قريبًا من هنا، وقد فقدوا ابنهم هذا العام في حادثٍ أليم. وقد عزّيناهم خلال أيّام الشِّيفْعاه، وأردتُ أن أطمئنّ على أحوالهم." فقال له المدير: "يمكنك أن تسألهم بنفسك، فالنادلة التي كانت تخدمكما هي ابنتهم."

نظرتُ إليها متأملةً جمالها وروحها، وفكّرت في نفسي: يا إلهي! نحن لا نعرف حقًّا ما يختلج في صدور الناس من آلام! لقد حكمتُ عليها بالنظر إلى مظهرها فقط. وحين جاءت إلى طاولتنا، تحدّثنا معها عن مصابنا الجلل بفقد ابننا، وشاركتنا ألمها هي الأخرى بفقد شقيقها. فشعرتُ أننا أختان يجمعهما رابطٌ روحيٌّ عميق، ثمّ صارحتُها بما فكّرتُ فيه لحظة رؤيتي إيّاها حين دخلنا إلى المطعم، وكيف ظننتُ أنّ يدَ الألم لم تمسسها من قبل، وأنّها بدت لي في منأى عن كلّ عذاب.

تحدّثنا عن ألم العيش مع الموت، عن هذا الثقل الذي قد يسحق صاحبه أو يقوّيه، بحسب طريقة تعامله معه. وأخبرناها كم كان من دواعي سرورنا أن تكون هي نادلتَنا في هذا اليوم بالذات، إذ كنّا نشعر بشيءٍ من القلق أو الحذر في الاحتفال بذكرى زواجنا. وأثناء حديثنا، أدركتُ كيف أنّ أشياءَ عديدةً في الحياة تبقى خفيةً، وبأننا لا نستطيع أن نطّلع على ما في قلوب الآخرين، وبأنّ في جعبةِ كلّ إنسان مقدارٌ من الألم — قد يكون صغيرًا لدى البعض، وكبيرًا لدى البعض الآخر — لكنّ الألم موجودٌ عند الجميع على الدوام. ولا نستطيع أن نطّلع على ما يقاسيه الآخرون إلا حين يشاركونا إيّاه. وقد أدركتُ أيضًا أنّني حين لا أُفصح عن ألمي، فإنّه يتحوّل إلى ضيفٍ ثقيلٍ على الطاولة، ضيفٍ يُطالب بأطباقٍ مزيّنة ومنديلٍ مكويّ، ضيفٍ لا أشعر بالراحة في وجوده، لكن عندما أشارك ألمي مع الآخرين، يتحوّل إلى "شخصٍ" أستطيع التعايش معه، شخصٍ يجلس إلى جانبي على المائدة بملابس النوم، فلا أحتاج إلى التكلّف أو التظاهر في حضوره، وهذا بالضبط ما كانت النادلة ياعيل قادرةً على تقديمه إلينا..

وفجأة، انتبهنا إليها وهي تقترب من طاولتنا حاملةً كعكةً صغيرة تتوسّطها شمعةٌ شرارية (فتّاش) متلألئة وقالت لنا بابتسامةٍ مشرقة: "عيد زواجٍ سعيد."

هناك إحساسٌ داخلي يُلحّ عليّ بأنّ قوبي هو من رتّب هذا اللقاء، وأنّه هو من قدّم لنا هذه الهدية. ولا أستطيع أن أمنع نفسي من الشعور، بأنّه لو انكشفت لي الرؤية أكثر، لرأيتُ الله، وقوبي، وتاني شقيق ياعيل، هناك في الأعلى... يُوقدون الشموع.

الفَصْلُ الحَادِي وَالأَرْبَعُونَ

ما لم أكن أعرِفُه

لن أختار اليأس، بل عليّ التمسّك بالمعجزات، وأن أستمرّ في التنفّس. فكما يقول الحاخام سولوفيتشيك: "الإيمان يبدأ حيثُ تنتهي حدود العقل البشري."

وأنا، من جهتي، أؤمن. إلى أن... تضربني موجةٌ عنيفة، فتقذفني نحو قاع المحيط، فيتحطّم إيماني، وأتفتَّتُ كما تفتّت جسد ابني. ثم أبدأ درب الإيمان من جديد، من مكانٍ آخر، وبذاتٍ جديدة.

إنّ القلب المنقسم بين الإيمان والشكّ يحيا مع التناقضات. وقد قالت لي صديقة ذات يوم: "أطفالُنا هم معلّمونا"، وإنّها محقّةٌ بالفعل، ويا لهذه المفارقة، فابني الحبيب قوبي يُعلّمني، في موته، أكثر مما تعلّمتُ من أيّ شخصٍ على قيد الحياة، ولقد علّمني موته أننا نجهل الكثير من الأمور، حتى عن أبنائنا، فالأبناء خارج البيت يتصرفون بطريقة مختلفةٍ عن تصرّفهم داخله، ففي الخارج يُظهرون للعالم وجهًا آخر. وفي اليوم الذي أعقب مقتل قوبي، جاء بعض أصدقائه إلى بيتنا، واستأذنوا أن يدخلوا إلى غرفته. لكنّ زوجي سيث طلب منهم أن يعودوا في الغد، لأنّه ظنّ أنهم كانوا يعرفون أنّ قوبي يحتفظ بشيءٍ سرّيٍّ في غرفته، ويريدون إخراجه منها، وكان يريد أن يعرف ما هو هذا الشيء.

لكن عندما أخذ سيث يفتّش في أدراج قوبي، وجد كتابَ صلاته هو (أي الكتاب الخاص بسيث). ثم واصل البحث، وفتح محفظة قوبي، فلم يجد فيها سوى بطاقةٍ كُتب عليها الدعاء الذي يُتلى بعد تناول الطعام. وفي الأدراج، وجد أسفار المزامير والتوراة، وتحت سريره، وجد بطاقات بيسبول... وشمعة. وما فاجأ سيث لم يكن فقط ما وجده، بل ما لم يجده. فقد توقّع أن يجد مجلّاتٍ فاضحة أو علب سجائر. لكن بدلًا من ذلك كان قوبي يُخبّئ ...كتبًا مقدّسةً وأدعيةً.

عَلِمتُ الكثير عن قوبي بعد موته، واكتشفتُ أنّ الإنسان الذي كنتُ أظنّ أنّني أعرفه أكثر من أيّ أحدٍ في هذا العالم، كان مختلفًا في العالم الخارجي. فقد كان أكثر كرمًا ورحمةً خارج البيت.

فخلال أيام العزاء السبعة – الشِّيفعاه – قَدِمَ إلى بيتنا أحد أولاد صفّ قوبي، ولم نكن نعرفه من قبل. دفعه رفاقه نحونا قائلين إنّه يرغب في أن يُخبرنا شيئًا هامًّا. وقد كان الفتى قصيرًا، ومنحني الظهر، ويرتدي نظّارة طبيّة. وقف بجانبنا لحظةً، ثمّ تكلّم بصوتٍ خافتٍ بالكاد استطعنا سماعه، وقال إنّ قوبي كان أفضلَ رياضيٍّ في الصف، بينما هو كان الأسوأ. وذات يوم، في حصّة الرياضة، كانوا يلعبون الكرة الطائرة، وطلب منهم المدرّس أن ينقسموا إلى أزواج. "وكان قوبي أوّل من قام باختيار شريكٍ له من بين

الطلّاب"، قال، "ورغم أنّه كان يستطيع اختيار لاعبٍ جيّدٍ معه، إلّا أنّه اختارني أنا... لأنّه أراد أن يعلّمني كيف ألعب الكرة الطائرة بطريقة أفضل."

لقد ذهلتُ حين سمعتُ هذه القصّة. فقد كان قوبي يتمتّع بقوّةٍ وطاقةٍ هائلتين، وكان الولد الأكثر تنافسيّة الذي يُمكِنُ تخيّله، فلم يكن يشجّع إلا الفريق الرابح حين نشاهد المباريات على التلفاز، وما إن يبدأ فريقه المُفضّل بالخسارة، حتّى يُبدّله فورًا بفريقٍ آخر ويبدأ في تشجيعه. وكان يُحبّ فريق شيكاغو بولز لكرة السلّة، ويعشق لاعبه الأشهر مايكل جوردان، لكنّه تخلّى عن تشجيعهم في اللحظة التي ترك فيها جوردان الفريق. فقد كان يريد دائمًا أن يكون مع الفائزين. ومع ذلك، حين كان أحدهم في حاجته، كان قوبي فتى يحمل في قلبه قدرًا عظيمًا من الرحمة.

ولذلك سنستمدّ بذور الرحمة من قوبي، ونزرعها في هذا العالم، حتى تستمرّ في النمو... والإثمار.

الفَصْلُ الثَّانِي وَالأَرْبَعُونَ

عِيدُ الْفِصْحِ الْيَهُودِيُّ عَامَ 2002

كان ابني الحبيب قوبي يُحبّ عيد الفصح اليهوديّ حبًّا جمًّا. كان يتعلّم ويدرس النصوص الدينية استعدادًا لليلة الـ"سِيدِر"، وهي ليلة الاجتماع الأُسَريّ في بداية العيد. وكان يُقبِل بحماسةٍ على الحوار حول الـ"هَغَداه"، وهو الكتاب الذي نقرؤه في تلك الليلة، والذي يروي قصة خروج بني إسرائيل، اليهود، من مصر، بالإضافة إلى قصصٍ أخرى مرتبطة بها. وتتميّز الليلة الأولى من العيد، أي الـ"سِّيدر"، بوجبتها المميّزة وتقاليدها الخاصة ووطقوسها الفريدة. وإن سألت أي شخصٍ مفجوع، سيقول لك إنّ الأعياد كالسّكّين في وتين القلب: فحين تجتمع العائلة، يشتدّ ألم الاشتياق، وتتفجّر الذكريات.

ومع ذلك، لا زلتُ إلى الآن أجد متعةً في عيد الفصح اليهوديّ. ففي إسرائيل، لا تشعر بأنكّ وحدك أثناء التحضيرات لعيد الفصح، إذ إنّ البلاد بأسرها تُشارِكك هذه الاستعدادات، والتي تشمل التخلّص الكامل من جميع "الخامِيتْس" — وهي الأطعمة المُخمَّرة التي تحتوي على الخميرة — إذ علينا أن ننظف بيوتنا منها، وأرواحنا أيضًا. وخلال هذه الاستعدادات أيضًا، يتغيّر ما تعرضه متاجر المواد الغذائية، وتُبدَّل السلع على الرفوف، ونرى الناس يُخرجون القمامة في كل ساعة من ساعات الليل والنهار. وثمّة أيضًا شعور بالاضطراب — ولن أكون مبالِغة إن قلت شعور بالتحوُّل — كأنّ النّاس يطرحون عنهم جلودهم القديمة ويبدؤون بدايةً جديدة.

إنّنا جميعًا نحاول أن نبدأ من جديد، وأن نصبح متواضعين كبساطة الـ"ماتساه"، تلك الأرغفةُ المسطّحةُ التي تُشبه البسكويت، من دون انتفاخٍ ولا تكبّر. وإنّنا نحاول جميعًا أن نتّحد بذاتنا الحقيقية، وأن يُصبِحَ ظاهرُنا كباطنِنا، من دون نفخةِ الأنانية وتضخّمِ الأنا.

تخبرنا التوراة أن الشهر الذي نحتفل فيه بعيد الفصح، وهو شهر نيسان، الذي خرج فيه بنو إسرائيل من أسر العبودية، يجب أن يُحتسب أول الشهور. وكلمة "حوديش"، أي "شهر" بالعبرية ،لها الجذر نفسه الذي تحمله كلمة "حاداش"، أي "جديد". وفي هذا التلاقي اللغويّ معنى عميق: فكلّ شهر يحمل فرصة للتجديد والنموّ والتغيير، تمامًا كما يتجدّد القمر الذي يعتمد عليه التقويم العبري. ويمكننا في هذا الشهر أن نصبح أكرم، وأكثر شفقةً، وأكثر عطاءً ومحبة، وأن نخرج من ضيق أفقنا المحدود. إنّ شهر نيسان هو شهر الفداء والخلاص، وقد يكون أيضًا شهر التفتّح، وشهر البدايات الجديدة. لكن قبل أن يتسنّى لهذا النمو أن يأخذ مكانه، لا بدّ من التنظيف العميق أولًا.

قد يبدو غريبًا أن تكون الاستعدادات لعيد يتمحور حول الحريّة متمركزة إلى هذا الحدّ حول التنظيف، لكنني، وأنا أنظّف، أُدرك أن التنظيف ليس أمرًا سطحيًا، بل هو ولوجٌ إلى ما هو خفيّ، إلى ما هو مظلم ومُهمل، لاكتشاف جانبٍ آخر لكلّ ما يحيط بنا. إنّ التنظيف هو نوع من التقدير للأشياء العادية، والارتقاء بما هو مألوف ،وأن نرى ما لا نراه عادةً، وهو الخطوة الأولى نحو التغيير، لأنّه يتيح لنا الإدراك العميق لماهية الوضع الذي نعيشه.

ومثلما يكشف التنظيف الذي نقوم به استعدادًا لعيد الفصح اليهودي ما هو خفيّ، كذلك يفعل الحزن أيضًا حين يُجبرنا على الالتفات إلى ما لا نراه في العادة. فعندما نكون في حالة حزن، نُبصر ما يكون عادةً متواريًا في الظلّ، نبصر الظلام تحت السرير، وخيوط العنكبوت على السقف، والظلال التي تُخيفنا وتذكّرنا بأننا نحن أيضًا سنموت. وإنّ الكثير من علماء النفس يتفقون على أن الإنسان المفجوع لا يبدأ رحلة الشفاء البطيئة إلا إذا واجه ألمه وجهًا لوجه.

إنّنا هنا في إسرائيل، نعيش في زمنٍ يبدو وكأنه أحد المآسي التوارتية.* فسواء كنّا جالسين في بيوتنا، أو نقود سيارتنا على الطريق، أو نجلس في مقهى، فإننا مستهدفون من قبل الإرهاب. وعندما أشتاق إلى ابني، أجد نفسي مضطرة لأن أكون في علاقةٍ وثيقةٍ مع الشرّ والرعب، أن أرفع الصخرة التي تتلوّى تحتها الديدان.

في الليلة الأولى من عيد الفصح، ليلة السِّيدر، نُبارك عشبةً ذات طعمٍ مُرّ. وفي هذه البركة، نُقِرّ بأن حتى المُرّ يمكن أن يُفتدى، ليتحوّل إلى شيءٍ جديدٍ عذبٍ. وفي هذا الصدد، يقول الحاخام الحَسيدي يهودا آريه لايب ألتِر، المعروف باسم كتابه الديني الأساسي "سفات إيمِيت"، بأنّ أكل "المارور"، أي المُرّ، يُجسّد إيماننا بأن المرارة ليست إلا مقدّمة للحرية. فالله معنا في مرارة معاناتنا تمامًا كما هو معنا في تحررنا.

في دولة إسرائيل، ما زلنا نُواجِه المرارة على الدوام ،لكن إن لم نستسلِم لألمنا، ولم نتحوّل إلى عبيدٍ له، فإن هذه المرارة قد تكون طريقنا نحو الفداء.

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجِم: ما تقصده الكاتبة بِـ"مأساة توراتية" هو معناها الملحميّ، أي معاناة جماعية عميقة تُذكّر بالمحن الكبرى التي وردت في التوراة، كالعبودية في مصر أو النفي والتيه، وهي معاناة تشمل الشعب بأكمله وتكون ذات طابع روحيّ وقدريّ.

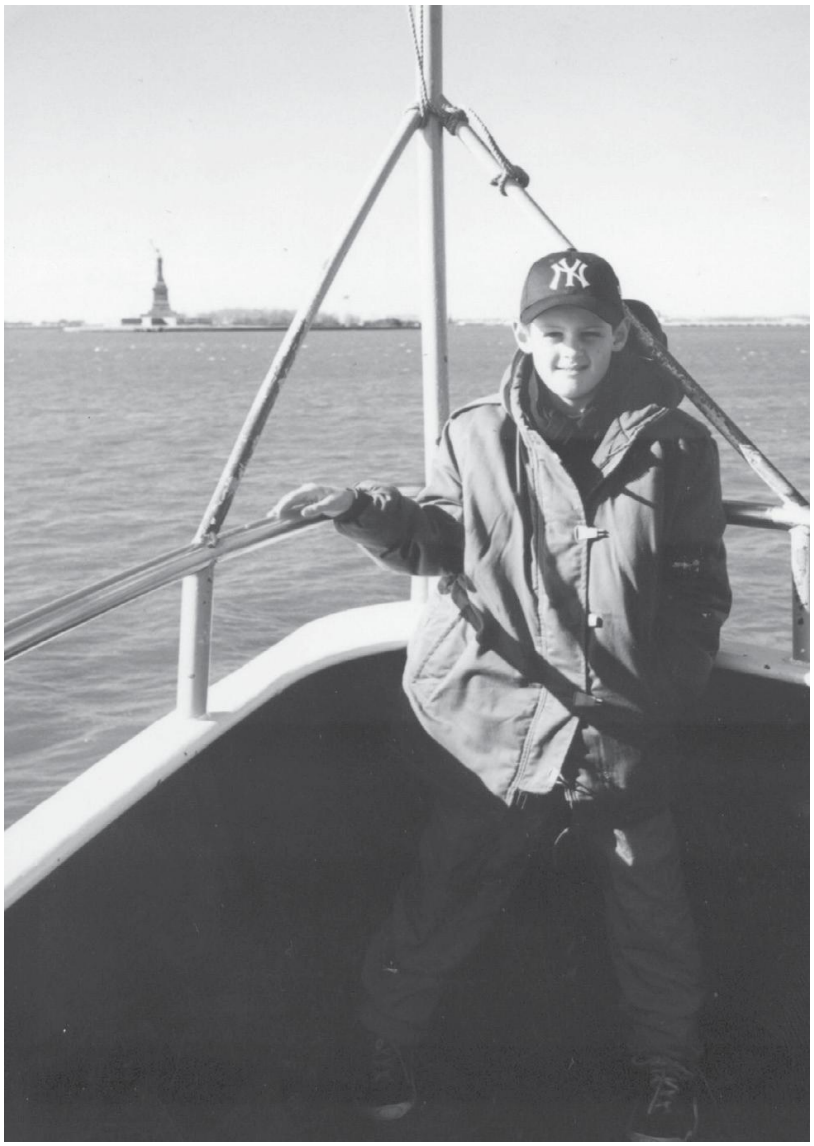

الْفَصْلُ الثَّالِثُ وَالأَرْبَعُونَ

سُلَّمُ يَعْقُوبَ

صمّم ابني دانيئيل شاهدة قبر أخيه قوبي، وقد أراد أن يُنقش عليها سُلَّمُ يَعْقُوبَ. ففي الآية الثانية عشرة من المقطع الثامن والعشرين من سِفْر التكوين، نقرأ عن السُّلَّم الذي رآه أحد أجدادنا الأوائل يعقوب، الذي سُمِّي لاحقًا "إسرائيل"، في حُلُمه، حيث يُذكَر أنّ الملائكة كانوا يَصعدون ويَنزلون عليه، بين السماء والأرض، في مشهدٍ يربط بين العالمين. وقد نُقِش على قبر قوبي هذا النص من التوراة: "فَرَأَى حُلْمًا، كَانَ سُلَّمًا مُنْتَصِبًا عَلَى ٱلْأَرْضِ، وَرَأْسُهُ يُدَانِي ٱلسَّمَاءَ، وَمَلَائِكَةُ ٱللَّهِ، تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهِ".

من الغريب والمُحيِّر أن يُقال إنّ الملائكة يصعدون أوّلًا، إذ يُفتَرَضُ أن ينزلوا من السماء أوّلًا، قبل أن يصعدوا إليها. وقد دارَت حول هذه المسألة تأمّلاتٌ كثيرة وتفاسير متنوّعة. فبعض مفسري التوراة يرون أن درجات هذا السُّلَّم تُشير، في تلميحٍ رمزيّ لمصير شعب إسرائيل وأرضه، إلى المنفى اليهودي بعد فُقدان الأرض، في أعقاب الغزوات البابلية والفارسية واليونانية والرومانية، وأنّ الملائكة هنا يُمثّلون هذه الأمم الغازية، وصعود الملائكة وهبوطهم يُعبّر عن صعود تلك الأمم إلى الحكم ثم أفولهم.

لكنني أميل إلى رأي "الرّمبام"، الحاخام موسى بن ميمون، الذي يرى أنّ صعود الملائكة هو رمزٌ لصعود الإنسان نفسِه، فالبشر يصعدون سُلّمًا روحيًّا نحو السماء، وإنّي أعتقد أنّ علينا نحن البشر أن نتسلّق هذا السُّلَّم بأنفسنا، أن نسمو بأرواحنا إلى الأعلى، ونصبح كالملائكة، لكي ينزلوا إلينا ويُلاقونا.

أنا واثقةٌ أنّ الملائكة يهبطون أحيانًا ليحملوا إلينا رسائل من السماء، لكن أحيانًا، لا يكون السُّلَّم موجودًا بين السماء والأرض فحسب، بل يكون بيننا نحن البشر أيضًا. فدرجات هذا السُّلَّم هي بمثابة حلقات في سلسلة تربط بين أرواحنا. وقد شعرت بذلك الارتباط العميق في الربيع الماضي في أورشليم القدس.

يومها، قُتلت شابّة تُدعى ميخال فرانكلين عند موقف الحافلات في حيّ التلة الفرنسيّة. ورغم أنّها لم تكن تنزل هناك عادة، إلّا أنّها أرادت في ذلك اليوم أن تنتظر مع صديقتها. وصادف أنّها في ذلك اليوم كانت قد أنهت دراستها في معهد المعلمات، وكانت عائلتها تستعد للاحتفال، لكن بدلًا من ذلك، ترجّل فلسطيني من سيارته، واقترب من الموقف المكتظّ، وفجّر نفسه أمامها، فقُتلت في الحال، واضطرت العائلة للجوء إلى السجلات الطبية للأسنان لتتمكن من التعرّف على جثمانها. وبدلًا من أن تتخرّج، وُوريت الثرى.

حين سمعتُ بالخبر، شعرتُ في الحال بألم الأمهات، الألم الذي يُدخلهنّ إلى عالمٍ كثيفٍ من الظلمة، لا يُبصِرن فيه شيئًا. فلا يستطعن الأكل، ولا التفكير، وكلّ ما يستطعن فعله هو التشبّث بالبقاء، وسط موجات متلاحقة من الألم والصدمات.

في يوم الجمعة خلال ذلك الأسبوع، قرأتُ في الجريدة تقريرًا عن ميخال فرانكلين. وفي وقت لاحق خلال يوم الجمعة ذاك، قبيل غروب الشمس ودخول يوم الـ"شبات"، كنتُ في حوض الاستحمام، وكان يساورني شعور مُلحّ بأنّه يتوجّب عليّ القيام بشيءٍ ما قبل دخول يوم الـ"شبات". فأخذت أقول لنفسي: "ما الذي لم أنجزه هذا الأسبوع وما يزال بانتظار أن أنجزه؟"

وفجأة، أدركتُ أنّه ينبغي عليّ التواصل مع عائلة فرانكلين، لأخبرهم عن كيفية الصمود خلال يوم الـ"شبات". فتواصلتُ مع ساره فرانكلين، والدة ميخال، لأُشاركها ما قالته لي روتي غيليس، التي قُتل زوجها على يد الإرهابيين، عن أنّها عاشت خلال يوم الـ"شبات" الذي أعقب مقتله واحدةً من أعمق التجارب الروحية في حياتها، بفضل القوة التي استمدّتها من الناس الذين احتفلوا معها بيوم الـ"شبات" المقدّس بالغناء وبطاقةٍ روحيّةٍ هائلةٍ في وجه الموت.

وحدّثتُ ساره عن أول يوم "شبات" مرَّ عليّ بعد موت قوبي، وكيف كان سماويًا وجميلًا في آن واحد، وكيف أمدّتني كلمات روتي بعزيمةٍ مكّنتني من السماح لقوة الـ"شبات" أن تتسلل إلى داخلي. وأخبرتُ ساره بأنني شعرتُ وقتها كأنني عبرتُ إلى العالَم الآخر، وكأن الغناء والاحتفال ينبعان من مكانٍ انصهر فيه الألم مع الجمال، حيث سمعتُ الأبديةَ تهمسُ إليّ بوعدٍ يقول إنّ ابني الحبيب قوبي لن يُفارقني أبدًا، تمامًا كما لم يُفارق يوم الـ"شبات" الشعب اليهودي قطّ، إذ يعود كل أسبوع ليمنحنا زادًا لأرواحنا.

ثم أخبرتُ ساره فرانكلين أنّ كلمات روتي غيليس بدت لي في البداية غير واقعيّة، فلم أُصدّقها أوّل الأمر، لكن عندما عِشتُ التجربة بنفسي، وتسلّل مجد الـ"شبات" إلى روحي، أدركتُ أنها كانت على حق، وشعرتُ تمامًا بما كانت تتحدّث عنه.

بالكاد استطاعت ساره أن تنطق الكلمات، لكنها شكرتني على اتصالي. ولم أكن أعلم حينها كيف تلقّت كلماتي، ومدى تأثيرها فيها، لكن في الأسبوع التالي، اتّصلت بي صديقتي مالكه، وقالت لي إنّها تعرف عائلة فرانكلين وإنّهم يُريدون رؤيتي.

عندما وصلتُ إلى البيت في وقت العزاء، قدّمتني مالكه إلى العائلة المفجوعة. وقال لي والد ميخال، أفنير فرانكلين، إنّ زوجته أخبرتْه فور انتهاء مكالمتي معها بما قلتُه لها، وإنّه بدوره اتّصل بعائلة يونغريس — العائلة التي قُتلت ابنتها المراهقة مع ميخال — ونقل إليهم كلماتي. ثم شكرني، وقال إنّهم استقبلوا الـ"شبات" بروحٍ مختلفةٍ بفضل مكالمتي.

كانت الجدة حاضرة هناك، وهي امرأة جميلة الملامح، ذات أنفٍ مرفوع وشَعرٍ أبيض مربوطٍ في عُقدة. وقد قالت لي إنّ الغناء خلال الـ"شبات" كان جميلًا، وبأنّ مكالمتي أضفت طابعًا مختلفًا على ليلة الـ"شبات" تلك. وحين رفعت ذراعها، رأيت الرقم المحفور على جلدها من زمن المحرقة.

لاحقًا، قالت لي مالكه إنّ الجدة كانت في معسكر أوشفيتز النازيّ، وإنّ عائلتها بأكملها قُتلت هناك. وعندما أنجبتْ طفلها الأول، لم يكن لديها قريب واحد لتتّصل به وتُشاركه فرحتها، فقد أُبيد جميع أحبّتها. وها هي الآن، بعد أكثر من خمسين عامًا، تفقد حفيدتها.

كيف لنا أن نستوعب هذا؟ أين هو السُّلَّم الذي رفع ألمها إلى السماء وأعاده على شكل بَرَكَةٍ... بَرَكَةٍ فقط؟ وأين هم ملائكة الله الذين ينزلون إلى الأرض ليُجيبوا دعاءنا؟

لا جواب لديّ، لكنّ حكايةً حسيدية عن البَعَل شِم توڤ قد تُضيء لنا جانبًا من الإجابة.* حيث تروي القصّة بأنّ البَعَل شِم توڤ، طيّبَ اللهُ ذِكرَه، كان يقضي ساعاتٍ طويلة في الصلاة. وكان كثير من طلابه وأتباعه يغادرون أثناء صلاته بسبب شعورهم بالجوع أو التعب، بينما يبقى القليل منهم ينتظرونه حتى يُتمّ صلاته. وفي أحد الأيام، خرج جميع أتباعه وهو ما يزال يصلّي، فأنهى صلاته بسرعة. وعندما عادوا، سألوه بدهشة: "لماذا أنهيت صلاتك بهذه السرعة اليوم؟" فأجابهم بهذه الأُمثولة:

"ذات يومٍ، كان هناك عددٌ كبيرٌ الناس يَقفون قُرب شجرة، لكن شخصًا واحدًا منهم فقط استطاع أن يرى الطائر الجميل بين أغصانها. ولكي يتمكّن من الوصول إلى عشّ الطائر، قام بإصعاد كلّ شخصٍ فوق كتف الآخر، ثمّ تسلَّق هو أكتافهم جميعًا، كأنّهم سُلّمٌ بشريٌّ، حتّى وصل إلى العُشّ. وهكذا هي الصلاة: فعندما أقف لأُصلّي، تنفتح أمامي العوالم كلّها، حتى عالم عشّ الطائر السماوي، حيث ينتظر المشيح. لكن عندما تغادرون، أسقط عن السُّلَّم، ولا يعود بمقدوري أن أصل إلى هناك. فأنا لا أستطيع أن أبلغ العُشّ بمفردي، ولهذا أنهيتُ صلاتي."

لا يمكننا أن نبلغ مصيرنا وحدنا، بل يجب أن نتّحد معًا، كأنّ كلًّا منّا يحمل الآخر على كتفه، من أجل أن نمنح بعضنا القوة. فلكي نتسلّق السُّلَّم، لا بدّ أن نتمدّد، أن نُوسّع قُدراتنا. وفقط عندما نصبح قادرين على حمل بعضنا البعض، يمكننا أن نصل إلى مرتبة القداسة. وربما... ما يزال المشيح في انتظارنا، حتى يرانا نحمل بعضنا البعض على الأكتاف.

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجِم: في هذه الأمثولة الحسيدية، يُشار إلى "عُشّ الطائر" كرمزٍ لعالَمٍ روحانيٍّ سامٍ في الفكر الكابّالي والحسيدي، حيث يُعتقَد بأنّ المشيح ينتظر في بُعدٍ خفيّ، لا يُمكن بلوغه إلا من خلال السعي الجماعيّ والتسامي الروحيّ المشترك. العُشّ هنا يُمثّل الإمكانية الكامنة للفداء، والمشيح لا ينتظر في الزمن فحسب، بل في مستوى روحيّ مرتفع لا يمكننا الوصول إليه إلّا حين نتّحد معًا، ويساعد كلٌّ منا الآخر، مثلما فَعَلَ الأشخاص في الأمثولة حين حملوا بعضهم بعضًا على الأكتاف كي يصلوا إلى العشّ، إذ يُشكّل ارتباطنا الروحيّ العميق معًا سلمًا نرتقي عليه إلى عوالم سامية.

الفَصْلُ الرّابِعُ وَالأَرْبَعُونَ

قِصَّةٌ أُخْرَى عَنْ شِمْعُونَ بَار يُوحَاي

اتصلتْ بي إحدى صديقاتي لتقول لي إنها في غاية الانزعاج، لأنها أمسكتْ بابنها ومعه سيجارة حشيش، فقلتُ لها: "رائع! يا ليتَ كلّ المشاكل كانت من هذا النوع!" فضحكتْ وقالت: "معكِ حق، حبيبتي". لا تسيئوا فهمي، فأنا بالتأكيد لا أُؤيّد تعاطي المراهقين للمخدّرات، لكنّ مشكلةً من هذا النوع يمكن التعامل معها في أغلب الأحيان وحلّها بنجاح. وإنّ المعاناة تمنحنا وضوحًا ورؤية لفهم أنفسنا والعالم من حولنا، إن سمحنا لها بذلك. وإنّ موتَ أحدِ أطفالِنا يمنحنا مهمة في هذا العالم، فالألم يكشف لنا ما ينبغي علينا تعلّمه والقيام به.

إن المعاناة تضيء لنا بُعدًا جديدًا لم ننتبه إليه من قبل، ومن هنا أفهم من جديد الحاخام شِمْعُون بار يُوحاي من خلال قصة أخرى عنه، إذ يُروَى أنّ أحدُ تلاميذه غادر أرض إسرائيل إلى بلادٍ أُخرى، وهناك صار غنيًّا جدًّا، فقرر باقي التلاميذ أن يسيروا على خطاه ويغادروا هم أيضًا. عندها أخذهم الحاخام شمعون إلى وادٍ قريب من جبل ميرون، ونادى: "يا وادي، يا وادي، امتلئ ذهبًا!" فأخذ الذهب يتلألأ في الوادي. ثم قال لهم: "إن كان الذهب هو كل ما ترغبون به، فها هو أمامكم، وخذوا منه ما شئتم. لكن عليكم أن تعلموا شيئًا قبل ذلك: إنّ كلّ ما ستأخذونه الآن سيُخصَمُ من نصيبكم في العالَم الآخَر، وهناك، سيقلّ ما سيُعطى لكم. أمّا مكافأة دراسة التوراة، فلا يمكن أن تنالوها في هذا العالَم، بل يمكن أن تحصلوا عليها كاملةً في العالَم الآخَر". وعندما سمع التلاميذ ذلك، لم يأخذوا شيئًا من الذهب، وعادوا إلى دراسة التوراة.

ويصِفُ أحد المدراشات، وهي عبارة عن قصصٍ تُضيء معاني نصوص التوراة وتتَّسِع في شرحها، العالَم الآخَر على هذا النحو: يخدم ستّمئة ألف ملاكٍ المستحقّين، فينزعون عنهم أكفانَ القبر، ثم يُلبسونهم التيجان، وثمانية أثواب من "غمامة المجد"، وهي تجلٍّ لغمامة الحضور الإلهي التي رافقت بني إسرائيل في الصحراء، ويقودونهم إلى مكانٍ تجري فيه أربعةُ أنهار: واحدٌ من اللبن، وآخر من الخمر، وثالث من عصير ثمر الكاكي (أو البرسيمون)، والرابع من العسل (يَلكوت شمعوني بخصوص سفر التكوين، 20).

لكن بالنسبة لي، أنا لا أريد عالَمًا آخر. فكلّ ما أريده هو ابني الحبيب قوبي معي هنا، في هذا العالَم. أُريد أن أصطحبه إلى طبيب الأسنان ليُركّب له تقويم أسنان، وأن أراه يواجه صعوبات الدراسة، وأن أراقب حَبَّ الشباب وهو يظهر على وجهه. أريد أن أسمع صوته وهو يتحوّل من الصوت الطفوليّ إلى الصوت الرجوليّ، وأن أرى شاربَه إذ يبدأ بالنمو. إنّي لا أريد العالَم الآخَر، بل أُريد ابني معي، حتّى نقضي وقتنا معًا من جديد، فيهزمني في لعبة الـ"بوغل"، ويتحدّاني في لعبة "سكرابل" لتكوين الكلمات بحماسةٍ كأننا في بطولة العالم، حيث كان يحاول دائمًا استخدام كلمته المفضّلة: "زَاكس".

أنا وزوجي سيث نتعلّم، يومًا بعد يوم، كيف نعيش مع الغياب، وكلّ ذهب الدنيا لا يساوي شيئًا لنا. وعندما يجثم اليأسُ الناجم عن غيابِ ابني على صدري، أتذكّر ذلك الحُلم عنه: يدخل قوبي إلى البيت مسرعًا، كأنّه في سباق، ويقول لي بابتسامةٍ تُزيِّنُ وجهَه: "لديّ تدريب كرة قدمٍ، وعليَّ تغيير ملابسي بسرعة!" وفي الحلم، يغمرني الفرح حين أرى وجهه الجميل، وأُدرك أنّه عاد لأنه يرغب في أن يتعلّم مهارات كرة القدم. وأُدرك، في الحُلم، هذه الحقيقة أيضًا: كلّنا جئنا إلى هذا العالَم لنتعلّم شيئًا ما.

الفَصْلُ الخَامِسُ وَالأَرْبَعُونَ

مُؤَسَّسَةُ قُوبِي مَانْدِل

لكلّ شيءٍ غاية في هذه الحياة، حتى موت ابني قوبي. وقد مررتُ بتجربة مؤخرًا عزّزت إيماني بخطّة لله، وأنّ كلّ ما يحدث إنّما يحدث لسبب وهذه هي القصة: دُعيتُ إلى مؤتمرٍ للسلام في سويسرا، وقبل السفر، رأيتُ في المنام أنّني كنتُ مع أختي في سيارة أجرة تتجوّل بنا في إحدى المدن الأوروبية. وكان السائق حريصًا على أن يُرينا المعالِم المهمة في تلك المدينة: مثل البحيرة، والمرفأ، والمتحف. وفجأة أدركنا أن موعد قطارنا قد اقترب، فأسرع بنا السائق إلى محطة القطار، وأنزلنا هناك. ثمّ وقفنا لا ندري إلى أين نذهب، وأخذنا نركض ونلهث في قلق، دون أن نعرف كيف سنلحق بالقطار. وفي تلك اللحظة، ظهر رجلٌ لا نعرفه، وقال لنا إنه قد تمّ إرساله ليدلّنا على قطارنا. لكن أختي بدأت تشكو من شوكة تحت ظفرها، وكانت تقول إنّ إصبعها يؤلمها. فاستدرتُ نحوها بانزعاج وقلت لها: "أهذا وقت الشكوى؟ ألا ترين؟ يتمّ الآن إرشادنا، وهناك مَن يهتمّ لأمرنا ويأخذ بيدنا من مكان إلى آخر، وأنتِ منشغلة بظفر إصبعك؟!"

بعد أيام، سافرتُ إلى سويسرا وكان عليّ أن أُبدّل الطائرة في زيورخ. وقبل أن أُغادر الطائرة، التفتُّ إلى الرجل الجالس بجانبي — ولم أكن قد تحدّثتُ إليه طوال الرحلة — وسألته إن كان يعرف إلى أين يجب أن أذهب لكي ألحق بطائرتي المتوجّهة إلى جنيف. فنهض الرجل، وحمل حقيبتي، وأخذ يجرّها بصمت، وسار بي عبر المطار، يقودني بكلّ هدوء لعشر دقائق، حتى أوصلني تمامًا إلى بوابة الصعود إلى الطائرة.

صحيح أنني لا أعرف اسمه، لكنّي أعرف أنّه كان بالتأكيد جزءًا من خُطّة أعظم.

كنّا أنا وزوجي سيث نعرف أنّه لا بدّ لنا من فعل شيءٍ يُبقي روح قوبي حيّة، إذ لا يمكننا أن ندع روحه تموت. وبحكم عمل سيث السابق كمديرٍ في مؤسسة "هليل" — وهي مؤسسة جامعية تُعنى بالحياة اليهودية — كانت لديه خبرة في إدارة البرامج وجمع التبرّعات. وكان كثيرون قد سمعوا بجريمة قتل قوبي، وأردنا أن نحوّل مأساة موت الفتيين إلى مصدر قوّة، وأدركنا أننا نملك القدرة على ذلك. ولهذا قرّرنا أن نفعل شيئًا كان قوبي سيحبُّ القيام به لو كان حيًّا، وهو أن نقيم مخيّمًا صيفيًّا للأطفال في إسرائيل الذين قُتل آباؤهم أو أمهاتهم أو إخوتهم أو أخواتهم جرّاء الإرهاب.

كنا نُدرِكُ أن المجتمع لا يفهم ما يمرُّ به أبناؤنا بعد الفاجعة. فعندما يعودون إلى المدرسة كأن شيئًا لم يكن، ويراهم الناس يلعبون أو يضحكون يظنون أنهم بخير، لكننا كنا نعرف تمامًا مدى الألم

الذي يشعرون به في أعماقهم. وقد قال لي ابني دانيئيل إنه لا يستطيع التركيز، لأنّ تفكيره مشغول دومًا بقوبي. أما ابنتي إليعانه، فقد قالت لي إنها اعتذرت لفتاةٍ في صفّها لحديثها معها بلهجةٍ حادة بعض الشيء، قائلةً لها: "أنا متوتّرة ومضغوطة، لأني أشتاق لأخي". لكن الفتاة التي بالكاد كانت تعرف قوبي، ردّت قائلة: "هذا لا يبرّر أن تكوني لئيمة معي، فأنا أيضًا أشتاق إليه."

لم يكن الآخرون يدركون مقدار الألم الذي يشعر به أطفالنا، ولهذا أقمنا مخيّمًا يحتضنهم ويشعرون فيه أنّه يوجد هناك من يتفهمهم. وأصبح لدينا مخيمٌ رائعٌ يتمدّ لستّة أسابيع تحت إشراف مدير المخيّم، رؤوفين أنغشترايخ، يشارك فيه أكثر من خمسمئة طفل، بسعادةٍ غامرةٍ لأنهم معًا. حيث نُقدّم لهم أنشطة متنوّعة: تشمل الرياضة، والرحلات، والفنون، والموسيقى، والعلاج بالحركة، لكن المتعة الحقيقية ليست في هذه الفعاليات بحدّ ذاتها، بل في شعور الأطفال أنهم ليسوا وحدهم. وفي المخيّم، كوّنت إليعانه صداقة مع فتاة اسمها شير، كان لأخيها المراهق علاقة عاطفية على الإنترنت مع فتاة لم يكن يعرفها، وعندما رتّب لقاءً معها، تبيّن أنها امرأة عربيّة استدرجته إلى بلدة عربيّة، حيث تمّ إطلاق النار عليه وقتله.

تمكّنت شير من أن تروي قصتها لإليعانه، لأن إليعانه هي الأخرى عاشت تجربةً قاسيةً مشابهة. لقد استطاعتا أن تتشاركا الألم، وأن تفهم إحداهما الأخرى واستطاعتا أن تفرحا معًا، لأنّ كلًّا منهما تعرف تمامًا ما الذي تمرّ به الأخرى، فلا تشعر أيٌّ منهما بالذنب إذا فَرِحَتْ.

وذات يومٍ، أخبر فتى مراهق في المخيّم زوجي سيث بأنّه اضطرّ إلى حلق شعره، لأنه كان يُشبه شقيقه الذي قُتل، وكان يشعر بأنّ والدته ترتجف أحيانًا حين تنظر إليه. إذ كان يعلم أنه يُذكّرها بابنها الحبيب الذي فقدته، ولم يكن يستطيع أن يقول لها ذلك، لكن في المخيّم، يُعبّر الأولاد عمّا لا يستطيعون قوله في بيوتهم، كي لا يزيدوا مقدار الألم الذي يشعر به أهلهم.

خلال السنة التي أعقبت مقتل قوبي، ومع استمرار الهجمات الإرهابية، كنتُ، كلّما تضرّرت عائلة يهودية أمريكية، أتّصل بهم أو أزورهم في أيام الـ"شيڤعاه"، لأنني كنتُ لا أزال أشعر بارتياح أكبر في التعبير عن مشاعري العميقة باللغة الإنجليزية. وبعد كلّ زيارة، كنتُ أُخبر صديقتي شيراه عن العائلة، وأقترح عليها أن تتّصل بهم، وكانت تفعل ذلك فعلًا. وهكذا أنشأنا تدريجيًا، وبشكل غير رسمي، شبكةَ دعمٍ صغيرةً بعفويّةٍ بيننا، واكتشفتُ أن الدعم الذي أقدمه للآخرين، واستماعي لقصصهم وتفاعلي معها، كان يساعدني أنا أيضًا على الشفاء.

وفي أحد الأيام، قالت لي ريناه، والدة يوسف إشران، كم هي بحاجة لبعض الوقت لنفسها، كي تبتعد فيه قليلًا عن أولادها وزوجها، ويكون مخصصًا لها وحدها. فأخذتُ أُفكر: كم سيكون جميلًا لو استطعنا أن نأخذ الأمهات الثكالى إلى مكانٍ هادئ، نكون فيه معًا، حيث نتقاسم الحزن مع من يستطيعون أن يفهموه، وأن يحتملوه، دون أن يخافوا منه. ولم تقتصر فكرتنا على إنشاء مجموعة دعم نفسي فحسب، بل ورشة شفاءٍ من جميع الجوانب: الروحية، والنفسية، والجسدية. وقد بدأنا أنا وصديقتاي العزيزتان شيراه وشُولاميت بالتخطيط لنشاطٍ يمتدّ ليومين، نأخذ فيه خمس عشرة امرأة ثكلى إلى مكان هادئ، ونقدّم لهنّ جلسات تدليك، وعلاجًا بالفن، وعلاجًا سرديًّا، وتمارين يوغا، ووقتًا للابتعاد عن أُسرهنّ والانشغال بمشاعرهنّ الخاصة. وفي شهر حزيران/يونيو عام 2002، حصلتُ على تمويلٍ لتنظيم أول

ورشة، أُقيمَت في فندقٍ في مدينة هرتسليا. وعندما رحّبتُ بالنساء عند افتتاح اللقاء، امتلأت عيناي بالدموع، فقد كان شعورًا رائعًا أن أكون بين نساءٍ يعِشنَ التجربة ذاتها، حيث شعرتُ أخيرًا بأنني "طبيعية" وسط وضعٍ لا شيء طبيعيَّ فيه.

أما برامج المتابعة، فهي لقاءات شهرية تُعقَد مرة كلّ شهر، وكانت شيراه أيضًا تتّصل أسبوعيًّا بالنساء لتسأل عن حالهنّ، وتستمع إلى كلّ ما يُرِدْنَ التعبير عنه. وواصلنا تنظيم المزيد من ورشات الشفاء، وفي أحد هذه اللقاءات، كانت بيننا امرأة لم تتكلّم أبدًا. لكنها خلال اللقاء الثاني، قرّرت أن تتحدث، وقالت إنها فقدت ولدَين في هجوم إرهابي، وإنها لم تكن ترى في حياتها ما يستحقّ أن تعيش لأجله، وإنّها كانت تشعر بذنبٍ هائل كلما فكّرتْ في أحد ولديها، إذ كانت تشعر أن ابنها الآخر سيحزن إذا لم تفكّر فيه أيضًا. حتّى أنّها فكّرتْ بالانتحار، لكنها أدركت في النهاية أنّ عليها أن تتقبّل ما كتبه الله لها، وأن تصبر على الألم وتعيش معه.

والآن، بينما أكتب هذه الكلمات، بلغ عدد الورشات التي نظمناها ستّ ورشات مختلفة لستّ مجموعات من النساء، مع برامج متابعة شملت تسعين امرأة.

ومع مرور الوقت، بدأت ورشات شفاء النساء تكبر وتتوسّع، حتى باتت تشمل العائلات بأكملها. حيث نصحب هذه العائلات في رحلاتٍ ممتعةٍ تتجدّد خلالها طاقاتهم، وتتضمّن فعالياتٍ مثل التنزّه في أحضان الطبيعة، وركوب القوارب، وجولات بسيارات الجيب، وغيرها من الأنشطة الجماعية. ولا يقتصر الأمر على الترفيه فحسب، إذ ننظّم أيضًا مجموعات للشفاء، نعمل من خلالها على فتح قنوات الحوار بين أفراد العائلة. فكثيرٌ من العائلات لا تتحدث عن الطفل الذي مات، ولا تُفصح عن ألمها، حيث نساعدهم على أن يفتحوا قلوبهم لبعضهم البعض، ويتحدَّثوا معًا، ويتواصلوا من جديد.

لقد نجحت هذه المشاريع فور تنفيذها، وأخذ زوجي سيث يسافر إلى الولايات المتحدة كلّ شهر لجمع التبرّعات. وكنتُ أشعر أن هذه المشاريع لا بدّ أن تبصر النور. ففي إسرائيل مجتمعٌ عاش الحزن منذ ولادته، ولم يُتَح له الوقت، ولا الترف، للتعامل مع الألم كما ينبغي، لكنه بحاجةٍ ماسّة لذلك، وعليه أن يواجه أوجاعه. إنه مجتمعٌ صعب المراس، وكثيرًا ما يكون الناس فيه فظّين وغاضبين. ومن خلال عمل المؤسّسة، صار ابني الحبيب قوبي رمزًا للفرح والشفاء والمحبة.

وقد ساعدتني هذه المشاريع كثيرًا أنا أيضًا. فقد كنتُ بحاجةٍ إلى أن أُعيد توزيع المحبّة والدّعم اللذَين أحاطني بهما الملائكةُ الذين وضعهم الله في طريقي، أن أمنَح مثلما مُنِحتُ، وأُشارك كلّ ذلك مع غيري من الأمهات والعائلات الثكلى. لقد رزقني الله بدعم الآخرين ومساندتهم، وأشعر أنّ عليّ أن أنقل ذلك إلى الآخرين. وإنّي أشعر وكأنّي وعاءٌ للشّفاء، ووسيلةٌ لإيصاله، وأنّ مهمّتي تتمثّل في أن أُعطي الآخرين ما مُنِحت. وأجد عزاءً في أن أكون مع هؤلاء النساء والعائلات، حيث نشعر جميعًا بالتآزر معًا حين نرى الأطفال في المخيّم، وحين نجتمع في لقاءات المتابعة التي ننظّمها ثلاث مرّات في السنة. وكلّ ذلك يعني أن روح قوبي ما زالت تكبر، وأن الفرح الذي يشعّ منه، والمحبّة العميقة الكامنة في قلبه، ما زالت حيّة بطريقةٍ ما.

الفَصْلُ السّادِسُ وَالأَرْبَعُونَ

نَوَارِسُ عَلى الشَّاطِئِ

بينما أكتب هذه الكلمات، تكون قد مضت عشرة أشهر على مقتل قوبي، وقد أدركتُ أنّ الحِداد لا يُشبه المخاض؛ فالمخاض ينتهي، أمّا الحِداد فلا نهاية له. كأنّي أُوكِلتُ بمَهمّة حمل جثمان قوبي بين ذراعيّ، حيث لا يفارقني أينما ذهبت. وهنا أستذكر ما قالته لي بيلاه باخراخ، التي قُتل ابنُها البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا على يد إرهابيّين في وادي القلط عام 1995، بأنّها تشعر وكأنّ ابنها يموت من جديد في كلّ يوم، وأنا أشعر بذلك تمامًا، فكلّ يومٍ يتطلّب منّي جهدًا داخليًّا كبيرًا لأواصل المسير، وعليّ في كلّ صباحٍ أن أُجدّد قراري بأن أستمرّ في العيش. فأنا لم أعد المرأة التي كنتُها من قبل، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الحال؛ إذ إنّ خسارة ابني قوبي كانت أيضًا موتًا لجزءٍ من روحي، لكن، بدلًا من أن أذرف الدموع لأنني لم أعد المرأة ذاتها التي كنتُها، فإنّي أثابر بكلّ قوّتي كي أُبارك المرأة التي أصبحتها.

ثمّة ما يُخيفني فجأة في فكرة حياةٍ بلا موت. فالحكماء الحسيديون يقولون: "الفرح الأبدي ليس فرحًا على الإطلاق". والآن، وبعد موت قوبي، أتساءل: إن اختفى الموت من الوجود بمعجزةٍ ما، فكيف لي أن ألتقي بابني من جديد إذا لم أمُت؟!

إنّ صخرة الكوارتز التي عثر عليها أصدقاء قوبي في قبره لا تزال موضوعة فوق طاولة الطعام في بيتنا. ولا يمكن أن تكون تلك الصخرة، بتناظرها المثالي وبُنيتها ذات الأنماط المُتقنة والمتكرّرة، وليدة الصدفة. وفيها قرأتُ هذه الرسالة: هناك خالق، وهو يصوغني وينحت روحي كما نَحَتَ هذه الصخرة.

هذه الصخرة ذاتها، لها ستّة أضلاع مثل نجمة داوود، ويشير هيكلها إلى السماء من طرف، وإلى الأرض من الطرف الآخر، كأنها جسرٌ يصل بين عالمين. وإنّ موت ابني الحبيب قوبي يُشكّل على الدوّام لي هذا الجسر بين العالمَيْن. عندما نام يعقوب، الذي سُمّي "يسرائيل"، في بيت إيل، أي "بيت الله"، واضعًا حجرًا تحت رأسه كوسادة، رأى في حلمه ملائكة من نورٍ يصعدون وينزلون على سلم، فاستيقظ وقال: "مَا أَرْهَبَ هٰذَا الْمَكَانَ، وَمَا هٰذَا إِلَّا بَيْتُ اللهِ، وَهٰذَا بَابُ السَّمَاءِ!" (سِفر التكوين، المقطع الثامن والعشرون، الآية السابعة عشرة)

إنّ الحِداد أيضًا هو مكان الله، فهو مساحة مقدسة تصل بين السماء والأرض، ويقع على عاتقنا نحن المفجوعين أن نكتشف تلك المساحة المقدسة ونسكن فيها.

لن أعرف أبدًا ولن أفهم السبب الذي من أجله قُتل قوبي، ولماذا قُتل بهذه الوحشية، لكنني أعتقد أن موته مرتبط بتاريخ هذه الأرض، بالنور القديم المخفي هنا، مثل النور الكامن في زيتون تكواع،

الذي يُشاد به في التلمود لزيتِه. وقد كان النبي عاموس راعيًا عاش في تكواع بين أشجار الزيتون. وكما يُضرب الزيتون لاستخراج نوره، أي زيته، يقول لنا حكماء الحسيديين: "سوف نُضرب ونُجرح، ولكن لكي نتوهج."* وإن هذا الزيت هو ذاته الذي سيُستخدم لمسح الـ"مشيح"، عندما نُصبح كالمصابيح التي تشع بنور الله.

بعد تسعة أشهر من مقتل قوبي، عندما كنتُ في فلوريدا أزور والدتي، مشيتُ على الشاطئ وأنا أفكر أنني لم أتلقَ أي إشارات أو رسائل من قوبي منذ فترة طويلة. وفي الواقع، إنني بالكاد شعرتُ به في فلوريدا، فقد كان يتلاشى، ويصبح أقل وضوحًا، وأقل واقعية بالنسبة لي، وذلك آلمني بقدر ما آلمني اشتياقي له، لأنني كنتُ أسمع صوته بداخلي لفترة طويلة، لكني لم أستطع سماعه في فلوريدا.

سرتُ على الشاطئ بينما كانت الغيوم تركض مسرعةً أمام الشمس، وفكرتُ في نفسي: أحتاج إلى إشارة من قوبي، أحتاجه كثيرًا، أحتاج إلى رسالة منه! وعندما عدتُ إلى المكان الذي تركتُ فيه أغراضي على الشاطئ، أخرجتُ شطيرتي وبدأتُ في تناولها. وفجأة، انقضّ طائر نورس عليّ وضربني على رأسي، ثمّ تبعته بسرعة مجموعة من طيور النورس التي أرادت أن تأكل من طعامي.

صحيح أن طيور النورس غالبًا ما تكون جائعة وجشعة، لكن كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي يضربني فيها أحدها، وعلى رأسي! فلم أصدق ما جرى، لكن أختي، لورين، قالت لي ضاحكة: "أرأيتِ؟ قوبي يرسل لكِ رسالة من الأعلى، ويقول فيها: 'ماذا عليّ أن أفعل أيضًا، أضربكِ على رأسكِ؟'" وهكذا، اقتنعتُ أنّ الطيور قد طارت إليّ لتخبرني أنّها رأت قوبي.

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجِم: عبارة "سوف نُضرب ونُجرح، ولكن لكي نتوهّج" هي من أقوال الحكماء الحسيديّين، وهي تُجسّد رؤيةً روحيّةً في الفكر الحسيديّ، ترى أن المعاناة التي يواجهها الإنسان في حياته قد تكون فرصةً لاكتشاف نورٍ داخليٍّ خفيّ. وكما لا يُستخرج زيت الزيتون إلا بالعصر، فإنّ الشدائد قد تُخرج من الإنسان أعمق ما فيه من نور وقوّة وصدق. ولا ينبغي أن يُفهم من ذلك أنّ هذا التعليم الحسيديّ يُمجّد الألم، بل إنّه يُؤكّد على قدرة الإنسان على التحوّل والتجلّي الروحيّ من قلب المعاناة.

الفَصْلُ السَّابِعُ وَالأَرْبَعُونَ

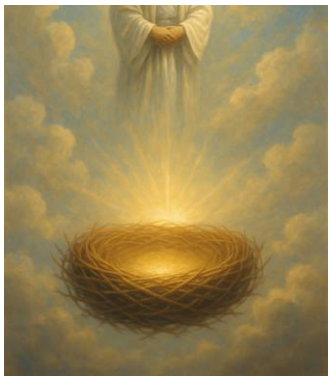

عُشُّ الطَّائِرِ

وحدها الطيور، من بين جميع المخلوقات، تُجسِّدُ الصلة بين السماءِ والأرضِ. وعندما نشاهدها تُحلّقُ في الفضاءِ الفاصلِ بين العالَمين، نَذوقُ من خلالها طَعمَ الحُرِّيَّةِ الخالصة والصافيةِ .وحين يُحدِّثُني الله، ويَفتحُ لي نوافذَ على العالَمِ العُلويّ، فإنّه يفعل ذلك من خلال الطيورِ. فالطُّيورُ هي مَلائكتي التي تُشيرُ إليَّ أن أرفعَ بصري إلى الأعلى، وألا أغوصَ في ثِقلِ حزني.

وقد كنتُ أبحثُ عن إشاراتٍ مِن الله، لكنّ هذه الإشارة التي سأتحدث عنها أصابتني بالدهشة حقًا ،إذ شعرتُ وكأنّ الله قد احتضَنني بذراعيه وعانقَني.

وإنّ حكايتي هذه المتعلّقة بالطيور تبدأُ بالحديث عن العشّ. فبعدَ ما يقاربُ السنة على مَقتَلِ قوبي، رأيتُ في منامي أنني أُحادثُ الله عزّ وجلّ نفسَه، لكنني لم أرهُ، بل كلّمتُه قائلةً له: "تقولُ إنّك إلهٌ رحيمٌ، فأين هي رَحمتُك؟ كيفَ يُمكنُ أن تقول إنك إلهٌ رؤوفٌ بعدَ ما فعلتَه بابني الحبيب قوبي؟"

فأجابني الله: "إنّي إلهٌ رحيم". فسألتُه: "كيف يمكن أن تقول ذلك؟"

فأجابني الله: "إنّي أُنَفِّذُ وصيّةً إلهيّةً (في العبريّة كلمة وصية تعني 'ميتسفاه')، وتُدعى هذه الوصية 'شيلواح هَاكِين'، أي ميتسفاه طردِ الأُمِّ من عُشّها، والتي هي عملٌ من أعمال الرحمة، لِئلّا تُعاينَ الأمُّ مشهدَ فِراقِ فِراخِها، ولا تُصابَ بوجعِ الفقدِ حين تُؤخَذُ من أمامِها."

وقد وردت هذه الوصية في الآيتَين السادسةِ والسابعةِ من المقطعِ الثاني والعشرين من سفر التثنية:

"وَإِنْ وَافَيْتَ عُشَّ طَائِرٍ قُدَّامَكَ، فِي ٱلطَّرِيقِ أَوْ فِي شَجَرَةٍ أَوْ عَلَى ٱلْأَرْضِ، فِرَاخًا أَوْ بَيْضًا، وَٱلْأُمُّ رَابِضَةٌ عَلَيْهَا، فَلَا تَأْخُذِ ٱلْأُمَّ مَعَ ٱلْبَنِينِ. بَلْ أَطْلِقِ ٱلْأُمَّ إِطْلَاقًا، وَخُذِ ٱلْبَنِينَ لِنَفْسِكَ، لِكَيْ يُخَارَ لَكَ، وَتَطُولَ أَيَّامُكَ".

قد يأخذُ الإنسان البيضَ أو الفِراخَ لحاجتِه إليهما في الغذاء مثلًا، لكنّ الله برحمته الواسعة يَحرصُ على مشاعرِ الأُمّ، فيُبعِدُها عن لحظةِ الألم هذه.

بعضُ المُفسّرين يرَون في هذه الوصيةِ درسًا في الرأفة بالحيوان، ترتقي بنا نحو الرحمة بالإنسان. وحين أُفكّر بعمقٍ في حلمي، أُدرِكُ أنّ الله قد كان رؤوفًا معي، لأنّه لم يَدَعْني أشهدُ تلك الحظةَ التي انتُزِعَ

فيها قوبي من حياتي، عندما انهالوا عليه بالضرب حتّى نزف رأسه وجسده وتهشّما. ولم أُجبَر على رؤيةِ الدمارِ الذي حلّ بجسدِ ابني الحبيب. لكنّ آخرين غيري قد شَهِدوا جريمة قتل أبنائهم، وكانت إحداهم امرأة التقيتُ بها، وهي أمّ الطفلة دانيئيل شيفي، ذاتِ السنواتِ الستّ، التي رأت ابنتَها تُذبحُ أمامَها في منزلها على يدِ إرهابيّين خلال ما يُعرف بـ"عملية أدورا"، فكيف يمكنُ أن يَسمَح إلهٌ رحيمٌ أن تُشاهِدَ أمٌّ مقتلَ صغيرتِها بكلّ هذه الوحشيّة؟

يُقدِّمُ التلمودُ جوابًا مدهشًا على هذا السؤال الذي يبدو بلا جواب. إذ يُذكَرُ هناك أنّ من يظنّ أنّ وصية "شيلواح هَاكِين"، أي وصيّة طرد الأُمّ من عشّها، هي مجرّد تعبيرٍ عن رحمةِ الله، عليه أن يَصمُت، لأنّه لم يُدرِك معناها العميق. فلا يمكننا ببساطة أن نقول إنّ هذه الميتسڤاه رمزٌ لرأفة الله، لأنّ رحمةَ الله أوسعُ وأعقدُ من أن تُختصر في فعلٍ واحد. فلو كانت هذه الميتسڤاه هي حقًّا مجرّد رمزٍ للرأفة، لما كان مِن المسموح أصلًا أن نأخذَ فِراخَ الطائر! (لاحقًا، أخبرني أحدهم أن لهذه الوصية دلالةً أُخرى في التقاليد اليهودية، إذ تُعتبَر بمثابةِ تعويذةٍ للرّزق والخصوبة).

وفي الصباح الذي أعقب الليلة التي رأيت فيها هذا الحلم، ذهبتُ إلى إحدى صديقاتي، وهي معلّمة توراة، لأدرس معها، وما إن جلستُ حتى سألتني: "ما الذي ترغبين في دراسته؟" لكن، قبل أن أُجيب، بادرتني قائلة: "هذا الأسبوع سأُدرّس وصية "شيلواح هَاكِين". هل ترغبين في دراستها؟"

هل كان ذلك مجرّد صدفة؟ أم إشارة أُخرى من الله عزّ وجلّ؟

جلسنا ندرس معًا، وتعلّمنا أنّه حين تعود الأُمّ إلى عُشّها فلا تجد صغارَها، تصرخُ وتنوح، لأنّها فقدَتهم، وفقدت معها مكانَها في هذا العالَم. وذاكَ النحيبُ الموجِع الناجمُ عن الفقدِ والتيه، هو ما يُثير رحمةَ الله في العالَم. فتلك الصرخةُ هي التي تُحرّك السماء، فتجعل الله يُواسي كلَّ من فَقدَ ملاذَه في هذا العالم، فأخذ يتألّمُ بلا سَند، ويعيشُ بلا مَستقرّ.

فحين تبكي أُنثى الطائر على خسارة صغارها، يُخفِّف الله من أحكامِه القاسية، ويُنزِل علينا رحمتَه. وإنّ صرخاتَنا، نحن البشر، تُحرّك قلبَ الله فتتعاظم رحمته علينا ويستجيب لآلامنا، ويقودنا بلطفِه نحو الفداء والخلاص.

وقد يبدو هذا المشهد، في ظاهره، قاسيًا...لكن، ربّما سنقبَلُه في العالَم الآخر؛ لأنّنا سندرك هناكَ أنّ آلامنا وصرخاتِنا كانت السبيلَ إلى شفاءِ العالَم، وأنّها هي التي مهّدَتْ طريقَ المحبّة والوحدة مع الله عزّ وجلّ.

إنّ وصية طردِ الأُمّ من عُشّها عظيمةُ الشأن، حتّى أنّ من يُؤدّيها يُمنَحُ أجرًا عظيمًا. فهي واحدةٌ من وصيّتَين اثنتَين فحسب في التوراة نُكافأ عند الالتزام بهما بالعمر المديد. وإنّ الوصيّة الأُخرى هي بِرُّ الوالدَين. ومع ذلك، يروي التلمود قصّةً تُحيِّر العقل والقلب، حيث يطلب أبٌ من ابنه أن يجلبَ له بيضَ طائرٍ ،فيصعدُ الفتى السلَّمَ ليأخذَ البيض، ويطرد الأُمَّ كما تأمرُ الوصيّة، لكنّه يسقط عن السُّلّم ويموت. لقد ماتَ وهو يقوم بالوصيّتَين اللّتين يُفترَضُ أن تجلبا له طولَ العمر! فكيف يُعقلُ هذا؟! وكيف تكون النتيجة موتًا بدل الحياة؟ إنّه أمرٌ يفوقُ قدرتنا على الإدراك، ويقَعُ خارجَ نطاقِ فَهمِنا المحدود. وقد يقول البعضُ إنّ المقصودَ بـ"بالعمر المديد" هو الحياةُ في العالَمِ الآخر، وقد يعتبر آخرونَ أنّ المغزى

ليس في عددِ الأيّام، بل في نوعيّتِها. لكنّني، أنا الأُمّ التي فَقدت ولدَها، ما زلتُ أصرخ متسائلةً: كيف تكون أيّامُنا سعيدةً في هذا العالَم، إن كان أبناؤنا يُقتَلون؟ إنّ أولادُنا هم بهجة حياتنا، وهم تحقيق الوعدِ بأيّامٍ مديدة، وهم صورتُنا التي تبقى بعدَنا وخُلودُنا في هذا العالَم.

وربّما لا تعني "الأيّام المديدة" في نصوص التوراة مجرّد امتداد العمر للفرد الواحد، بل قد تشير أيضًا إلى أيام أسلافك في الماضي وأيامك في الحاضر وأيام أبنائك في المستقبل .وبعبارة أخرى، تتّصل أيامك بمن سبقوك وبمن سيأتون من بعدك، ما يضمن استمراريّة الأجيال السابقة والحفاظ على فضائل حياتهم. وحين يُربّي الإنسان أبناءه على احترامِ الوالدَين، وتقديس الحياةِ من حولهم، وتقدير كلمةِ الله، فإنّه لا يُبارَك فقط في عمره، بل يُضيف أيّامًا إلى أسلافه أيضًا، إذ يتنعّمون، في عالَمهم الأعلى، برؤيةِ استمرارِ الخيرِ الذي زرعوه، وهو يُزهرُ في ذريّتِهم.

عندما أنهينا درسَنا، مشيتُ إلى البيت وأنا غارقة في أفكاري. وكان كلّ ما كنتُ أُريده في تلك اللحظة هو أن يعود إليّ ابني قوبي. وحين وصلتُ إلى عتبةِ البيت، رفعتُ رأسي، وإذا بعُشٍّ يتدلّى من خيطٍ متدلٍّ من عارضةٍ خشبيّةٍ أعلى الشُّرفة. ولا بدّ أنّه كان هناك لفترةٍ من الوقت، إذ بدا كاملًا ومُحكَم البِناء. وقد كان العشّ أمامي تمامًا، فوق باب البيت، ومع ذلك لم أره من قبل! ثمّ اقتربتُ منه ونظرتُ داخله، فرأيتُ بيوضًا صغيرةً ترقد بسلامٍ هناك.

هناك الكثير من الأشياء التي لا نراها رغم أنّها حولنا! حيث نعيشُ وسطها دون أن نُدرك وجودَها. وفكّرتُ في نفسي: لا بدّ أن ابني الحبيب قوبي قريبٌ منّي. قريبٌ جدًّا، لكنّي لا أستطيع رؤيتَه.

وبعد أيّام، بدأتُ أُلاحظ أنثى الطائر وهي تحومُ بسرعةٍ حول العُشّ، وقد كانت نوعًا من الطيّور الطنانة، وكان لونها رماديًّا يميل إلى البُنّي، وذات منقارٍ مُقوَّس. وكنتُ أرى أحيانًا الذَكَرَ، وكانت تحت جناحيه بقعٌ ساحرةٌ من اللونِ الأزرق المُخضَرّ، وكأنّه يُخبّئ الجمالَ تحت جناحيه.

ثمّ مرّ أسبوعٌ تقريبًا، فناداني أولادي فجأةً: "تعالي يا أُمّي! لقد فقست الفِراخ!" فخرجتُ معهم، ووقفنا تحت العُشّ نتأمّل تلك الكائنات الصغيرة. وفجأة، سقط أحدها من العُشّ على الأرض. وما كان من ابني دانيئيل إلا أن أسرعَ إلى الداخل، فارتدى قفّازَين بلاستيكيَّين، وحملَ الطائرَ الصغير برفقٍ، وأعادَه إلى عُشّه. وقد كان حريصًا ألّا يلمس الفرخَ بيدَيه مباشرةً، كي لا ترفضه أُمّه عند عودتها إلى العشّ إذا شمَّت رائحةِ الإنسان على جسده.

تذكّرتُ حينها ما يُروى عن الحاخام شمعون بار يوحاي وابنه، اللذَين كانا يدرسان في الكهف كلّ يومٍ مع النبي إلياهو، حيث رأيا، ذاتَ مرّة، صيّادًا يَنصبُ شِباكَه ويُفردُ فِخاخَه لاصطياد الطيور. وعندما كانا يسمعان النداء الإلهي يقول: "أَطلقوها!" كانت الطيورُ تفلتُ وتنجو من الأسر، وحين كان الصوتُ الإلهي يقول: "انتهى أجلُه!" كان يتمّ اصطياد الطائر والإمساك به.

فقال الحاخام شمعون بار يوحاي: "إذا كانت العنايةُ الإلهيّة تَحكُمُ مصيرَ طائرٍ صغير وتَكتُبُ له أجلَه، أفلا تكون رعاية الله للإنسان أعظم؟" ومنذ تلك اللحظة، قرّرا مغادرةَ كهفهم والعودةَ إلى العالَم.

أما في عالمي أنا، خارجَ شُرفتِنا، فقد نجت الفِراخ.

في الذكرى السنويّة الأولى لمَوت قوبي، والتي تُعرَف في التقاليد اليهودية بِال"يَرتسايت"، وبينما كان الأصدقاء والعائلة يُلقون كلمات التأبين في المقبرة، حلّق طائرٌ وحيدٌ في السماء فوقنا، وأخذ ينعقُ بصوتٍ عالٍ، كأنّه يُنادي علينا من أعلى. وقد لاحظ كثيرون هذا الطائر وتحدّثوا عنه في ذلك اليوم، لكنّهم لم يكونوا على درايةٍ بعلاقتي الجديدة بالطيور، تلك العلاقة التي نسجها الحزن، وأضاءتها إشاراتُ الله. ثمّ عدنا إلى البيت ولم يكن ذلك اليوم يومًا للعزاء فقط، بل يومًا للتعلّم والاجتماع معًا، حيث تناولنا طعام الغداء ومشينا كلَّنا في في الوادي الذي قُتِلَ فيه ابني وخُطفت منه حياته.

وفي ساحة البيت الأماميّة، جلست مجموعةٌ من النساء وتناقشن في معنى "العالَم الآخر"، بينما كانت الطيور الصغيرة التي فقست في العشّ في شرفتنا تتدرّب على الطيران. فقد ظلَّت طوال الأسبوع تُجرِّبُ أجنحتها، فترفرف قليلًا خارج العشّ، وما تلبثُ أن تعود إليه .ثمّ بعد أسبوع، طارت بعيدًا، حيث غادرت الأسرةُ جميعها عشَّها، ولم تَعُد تحتاج إليه.

لقد كانت تلك الطيور هديّةً لي، هديّةً من الجمال... ولمسةً من الحريّة.

وبعد أسبوعٍ من الـ"يَرتسايت"، وفي احتفال الـ"بار ميتسڤاه" الخاص بابني دانيئيل، زارَتنا الطيورُ من جديد. وقد كان من الصعب علينا أن نحتفل بالـ"بار ميتسڤاه"، أو أن نسمح لأنفسنا بالفرح، بعد عامٍ من الفقد. لكنّنا كنّا بحاجةٍ إلى أن نفتح أبوابنا للفرح ولو قليلًا، ولو بتردّد. وفي ذلك اليوم، زارتنا نانسي، وهي إحدى قريباتي التي لم أرها منذ أسبوعٍ الـ"شِّيڤعاه" بعد مقتل قوبي، وكانت تحملُ معها هديةً في علبةٍ صغيرة. وقد مات أخوها قبل ثلاثين عامًا، وهو في سنِّ المراهقة، إثرسقوطه أثناء ركوبه على فرسٍ. وكانت نانسي يومها في الحادية عشرة من عمرها.

قالت لي نانسي: "تَعالي، أُريدكِ أن تري ما أحضرتُه لكِ." وحين رفعتْ غطاء العلبة ،دُهِشتُ إذ رأيتُ طيورًا صغيرةً داخلها! فبعد أن سَقَطَتْ هذه الفراخ من عُشّها، أحضرها أصدقاء نانسي إليها، فاعتنت بها بحنانٍ وحرصٍ، وكانت تُطعمها بالقطّارة، وأبقتها معها حتّى تظلّ على قيد الحياة.

ولم أكن قد أخبرتُ نانسي عن علاقتي مع الطيور التي بدأت تظهر في حياتي، ولا عن الإشارات التي كانت تُرسَلُ إليّ منذ موت قوبي. لكنّي كنتُ على يقين أن تلك هي إشارةٌ أخرى من الله عزّ وجلّ.

وقد كان الملك داود نفسُه على علمٍ بالقوّة الكامنة في الطيور. فمن بين جميع مخلوقات الله، كان صوتها وحده الذي يُشبه صوتَ الإنسان، ويعزف على أوتار القلب مثله. وذات ليلة، استيقظ الملك داود من نومه، وبدأ ينظمُ أناشيدَه السماويّة، مزاميرَه المكرّسة للهيكلِ المقدّس، ذلك المسكن الذي كان يعلمُ أنّه سيُبنى يومًا ما ليكون مَقامَ اللهِ في الأرض. لكنّه، وبفضل نبوّته ،اطلع على المستقبل ،فتنبأ بأنّ الهيكلَ سيُهدَم. فسألَ نفسَه: ماذا سيَحدث لمزاميري؟ لتلك الموسيقى التي كرّستُها للهيكلِ الذي سيُبنى؟ من سيحملها حين يصبح الهيكل خاويًا على عروشه؟

تلقّتَ الملك داود حوله، باحثًا عمَّن يحفظُ لحنَه السماويّ، فأدرك أن الطيور وحدها قادرةٌ على حمله عبر الأجيال. فأودعها تراتيله، لتُحلّق بها من زمنٍ إلى زمن، وتنقلها من جيلٍ إلى جيل، ليبقى صداها حيًّا في هذا العالَم.

تقول حكايةٌ روحانيّة تراثيّة تناقلتها الأجيال، إنّه في اليوم الذي طُرد فيه اليهود من هيكلهم المقدّس في أورشليم القدس، غادرت الطيور أيضًا، لكنّها لم تترك وراءها الصمت، بل حملت معها لحن الهيكل المقدّس، وحافظت على صداه حيًّا. وربّما كان ذاك هو اللحن الذي سمعناه، أنا وزوجي، في ليلة جنازة قوبي، تلك الليلة التي تحوّل فيها الصوت إلى لمسة دافئة.

ويُقال إنّ الطيور ستعود ذات يوم إلى الهيكل حاملةً معها ذلك اللحن، لكنّ عودتها لن تبدأ من الأرض، بل من عُشٍّ آخر، عُشٍّ سماويٍّ روحانيٍّ في العالَم الآخر. فبحسب كتاب الزوهار، وهو منبعُ الحكمةِ اليهوديّة الصوفيّة، لا يقتصر وجود الأعشاش على هذا العالَم، بل لها وجودٌ أيضًا في العوالِمِ السماويّة.

وفي جنّة عدن في السماوات العلى، هناك عُشّ، يحمل السرّ الأعمق والأقدس والأكثر خفاءً بين العوالم. وعلى جدران ذلك العُشّ السماويّ، رُسِمَت صورٌ، هي صورُ أعدائنا، وصورةُ الهيكل، وصورُ الأطفال اليهود الذين ماتوا وهم يُقدّسون اسم الله. وفي ذلك العُشّ، ينتظرُ المشيح، يدخل العشّ ويخرج، يدخله ويخرج... منتظرًا اللحظة التي يتّصل فيها هذا العالَم بالعالَم الآخر، اللحظةَ التي يرتفعُ فيها عمودٌ من النور، معلنًا أنّ الوقت قد حان لإقامةِ العدل في الأرض.

ينتظرُ المشيح هناك، بصُحبة أرواح الأطفال الذين قُتلوا لأنهم يهود، مثل ابني قوبي وصديقه يوسف، أولئك الذين صارَت صورُهم محفورةً في ذاكرة الأبد. وإذا تساءلنا: ما معنى هذه الصور؟ فسنفهم أنها ليست مجرّد صورٍ عادية، بل إنّها ذكرياتٌ حيّة، محفورة في قلب كلّ أمٍّ تأبى أن يَغيبَ وَلَدُها عن خاطرها، أو أن يُمحى وجودُه. هؤلاء الأطفال لا يموتون، لأنهم ما زالوا يسكنون داخل قلوب أُمّهاتِهم.

وربّما يقول لنا العُشّ بأنّ لا شيء ينتهي وجوده بشكل كامل، لا عودٌ صغير، ولا ريشة، ولا خيطٌ تائه... ولا حتّى أطفالُنا المذبوحون. كلّنا أجزاءٌ من خطةٍ إلهيّةٍ عظيمة، من قصّةٍ أوسع منّا، وكلّنا تحت رعايةِ الله الذي لا ينسى، تمامًا كما لا ننسى نحن.

ما هي مهمّتنا؟ أن نستمرّ في البناء، في الحبّ، في تقديس الحياة، مهما كَثُر عددُ الأطفالِ الذين يُنتَزَعون من أعشاشهم. الله وعدنا بأنّه لن ينسى، ونحن أيضًا لن ننسى. لكن في الوقت نفسِه، سنُواصِل الخَلق والبناء. سنُواصِل بناء أماكنَ تُشبه الأعشاش، تفيضُ دفئًا، وراحة، ومحبّة. سنُواصِل تربيةَ أطفالِنا بحنانٍ ومحبّةٍ وقوّة، سنُواصِل تذكير أنفسنا بأنّ العالَمَ غامض، لكنّ الله معنا كعُشٍّ يَحتضِنُنا ويُشكّل ملاذًا لأرواحنا.

وذات يوم، سيُحلّق المشيح من ذلك العُشّ السماويّ، ويجلب الشفاءَ إلى عالمنا هذا .حينها سنفهم كيف شاركَ النبيّ إلياهو، والحاخام شمعون بار يوحاي، وابني الحبيب قوبي، وجميع الأطفال المذبوحين، في صناعة هذا الفداء. سنُغنّي كالعصافير حين نُعانق أبناءنا من جديد، وسنَفهَم بكلّ جوارحنا نِعْمَة القَلْب المُنْكَسِر.

وسأقفُ مرّةً أخرى مع ابني العزيز، قوبي، وسيهمسُ لي: "تلك الأحضان التي احتضنكِ الله بها... كانت منّي أنا أيضًا."

اللّوحةُ التّذكارية في موقعِ مَقْتَلِ قوبي ويوسف

النقشُ المكتوب:

"بِذِراعِكَ القَوِيَّةِ فَدَيْتَ شَعْبَكَ، بَنِي يَعْقُوبَ وَيُوسفَ"
(سفرُ المزامير، المزمورُ السابعَ والسبعون، الآيةُ السادسةُ عشرة)

هُنا، على تُرابِ هذه الأرضِ الطيّبة، قُتِلَ طفلانا الحبيبان والعزيزان على قلوبنا على يدِ قَتَلَةٍ مُتوحّشين.

في حياتهما وفي موتهما لم يفترقا.

يعقوف ناتان ماندل ويوسف إشران

نَسْألُ اللهَ أَنْ يَنْتَقِمَ لِدِمَائِهِمَا

في اليوم الخامس عشر من شهر أيّار، عام 5761 بحسب التقويم العبريّ
الموافق الثامن من مايو 2001

"ثِمارُ أرحامِنا، أبناؤُنا ذوو الخصال النبيلة، كيف سَقَطوا على وجهِ هذه الأرضِ الطيّبة؟"

تكواع

الفَصْلُ الثَّامِنُ وَالأَرْبَعُونَ

بَعْدَ عامٍ مِنَ الفَقْدِ وَالجُرْحِ

في يوم الـ"يَرتسايت"، أي ذكرى مَقتل قوبي ويوسف، وهو اليوم الذي نُحيي فيه كلّ عام أرواحَ من فقدناهم، ونستعيد فيه ألم الفقد كاملًا، سار معنا خمسمائة شخص تقريبًا في الوادي الذي قُتل فيه الفتيان، وكان البعض يحمل الأعلام، وقد بدونا كأنّنا شريطٌ طويل من الناس، يضمّ شبابًا وكهولًا، وأخذنا نتسلّق الممرّات الوعرة معًا. وكانت المنحدرات الشديدة تنبض بالحياة، وتنتثرُ فيها نباتات الخردل والثوم والسوسن وشقائق النُعمان، حيث تنمو على هواها، كما لو أنّها لا تعرف شيئًا عن المأساة التي وقعت هنا.

لم أكن قد زرتُ الوادي منذ ذلك اليوم الذي قُتِلَ فيه قوبي، ولم أكن أعرف إن كنتُ سأحتمل دخول الكهف، إذ إنّ مجرّد التفكير في ساعات حياته الأخيرة، وهو يصارع وحيدًا من أجل حياته كان يمزّقني من الداخل. لكنّنا فجأة بلغنا الشقّ الصخريّ حيث تفتح الصخرة فمها الضيّق، وتضطرّك لأن تنحني كي تدخل. وقد كان الكهف نظيفًا من دماء الفتيين، وبدلًا من صدى الصرخات، كان صوت الريح هو الذي يملأ المكان.

ثمّ دخلتُ الكهف.

وكان مملوءًا بالشموع، وبدا وكأن النور فيه يتمدّد ويتّسع، وغريبٌ أنني، هناك بالذات، شعرتُ بجمالٍ وسِحرٍ لم أكن أتوقّعه. وعلى جانب الكهف، كانت هناك كَومةٌ كبيرةٌ من الحجارة مرتبة بشكل مخروطيّ، وقال لي زوجي إنّ تحت هذه الكومة، وُضعت الحجارة المُلطّخة بالدّماء التي استُخدمت لقتل ابننا الحبيب قوبي وصديقه العزيز يوسف. وقد تمّ دفن هذه الحجارة الملطّخة بالدّماء وفقًا للشريعة اليهودية، على يد مؤسسة الدفن اليهودية، "حفراه قَدِيشه"، وأُعيد كلّ ما عليها من دمٍ إلى الأرض.

ثمّ التفت إليّ زوجي وقال: "هذا الكهف... أصبح الآن مكانًا مُقدّسًا."

وفي تلك السنة، تعلّمتُ شيئًا جديدًا: أن كلّ شيءٍ، حتّى أقسى المحن، يحتوي على شراراتٍ صغيرةٍ من القُدسِيّة، وأنّ مهمّتنا نحن هي أن نُطلق تلك الشرارات من النور إلى هذا العالم.

ففي الفكر اليهودي، حتى الشرّ يستحقّ البركة، كما نتعلّم من كتاب الـ"مِشناه"، وهو من أقدم كتب الشريعة اليهودية، ويجمع أقوال الحكماء وتفاسيرهم للوصايا الدينية، ويُعدّ تلخيصًا للأحكام الشفهيّة التي نُقِلت عبر الأجيال، إذ يقول هذا الكتاب: "كما يَنطِقُ الإنسان بالبركة والشكر على الشرّ، عليه أن يَنطِقَ بها أيضًا على الخير." (باب بْراَخوت، 54أ)

أنا لا أُبارك الشرّ، ولا أستطيع أن أنطِق بالبركة على المِحَن، لكنّني أفهمُ الآن أن النور يولد من قلب الظلمة، وأنّ وجود الشرّ في هذا العالم ليس عبثًا، بل هو ما يُتيح لنا أن نختار الخير. وإنّ الشرّ موجودٌ في هذا العالم لنقاومه ونتغلّب عليه، كما جاء في التلمود: لو لم يكن في العالم إلا الخير، لَما كان للنور قيمة، كأن تحمل مصباحًا في وضح النهار؛ فما الفائدة منه إن لم يكن حوله ظلام؟ وفي نهاية المطاف، وُجِدَ كلّ شيء من أجل خيرٍ ما، حتى وإن لم نرَ ذلك أو نفهمه في حينه.

إنّ الله عزّ وجلّ يُنجِز عمله من خلال المكسور، فهو يستخدم تصدّع القلب وآلامه كي يصل إلينا ويعيد تشكيلنا. أمّا نحن البشر، فلا نستعمل إلا الأوعية السليمة؛ إذ لا يمكننا أن نملأ دلْوًا مكسورًا بماء البئر ونشرب منه، لكنّ الله، هو الذي يَمسّ القلب حين ينكسر، وينحت الروح من الشظايا المتهشّمة، ويُوسّع ممرّاتها الضيّقة، ويحثّنا على فتح مغاورنا الداخليّة التي كنّا نظنّها موصَدة إلى الأبد. وفي كلّ مرَّةٍ يُنتَزَعُ فيها منّا شيءٌ، يُعطينا الله شيئًا آخر مقابله، وقد أعطاني أنا نِعْمَةَ القلبِ المُنْكَسِر.

أشعر وكأنني أخرج من ظلمة الكهف، وبأنّ الله يحملني أنا وعائلتي على جناحيه الممدودين، إلى عشّ نستطيع فيه أن نحتفل بجمال الطبيعة وروعة العالم، حتّى ونحن نشعر بالضعف والانكسار، وبأننا ما نزال عُرضةً لكلّ أخطار الحياة.

إنّ العشّ هو موطن النور الداخلي والحماية، وهو ما يسمح لنا بالطيران، لا ما يمنعه. وإن كانت الكهوفُ هي مأوى الأنبياء، فإنّ عشّ الطائر هو مأوى الـ"مشيح"، فهو مكانٌ يضمّنا دون أن يُقيّدنا، ويحيط بنا دون أن يحجب عنا السماء، وحين يمنحنا الأمان، لا يوصد علينا الأبواب. والعشّ ليس ساحة صراع، بل مأوى يقدّم إلينا المحبّة والغذاء والدفء.

إنّ الظلمة التي في الكهف ما زالت هناك تنتظرني، لكنّ حرّيّةَ عشّ الطائر أيضًا لا تغيب عن ناظري، إذ تُشعرني تلك الرؤية بالأمان، رغم أنني مكشوفة للهواء، والليل، والبرد. فالعشّ لا يبتلعك كما يفعل الكهف، بل يفتح أبوابك الموصدة على العالم، لِتُبصره بعينٍ أوسع وقلبٍ أعمق.

وليس من السهل أبدًا أن تصل إلى عشّ الطائر، وأن تؤمن بوجوده أصلًا، لكنّني وصلتُ إلى حالةٍ روحيّةٍ بتُّ فيها أستطيع أحيانًا أن أُقيم في عشّ الطائر وأسكنه. وفي تلك اللحظات، أشعر أن الله هو مَن يُرْفْرِفُ بجناحيه فوقي، ليُظلّلني ويَحرسني.

ومن هناك، من هذا العشّ، نشعر بحبّنا لبعضنا البعض، وبحبّنا لابني قوبي، وبحبّنا لله عزّ وجلّ، ومن هناك أيضًا، ننشد أعذبَ ترانيمِ الشكرِ والتسبيح، بصوتٍ مفعمٍ بالصدق والبهاء والحياة، كما تفعل العصافير في الفجر، لنحتفي بميلاد يومٍ جديد.

الفَصْلُ التّاسِعُ وَالأَرْبَعُونَ

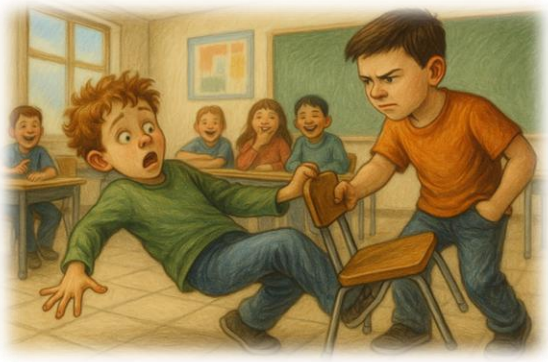

مَقالَتانِ لِقوبي

كان قد كتبَهما لموقع
(wholefamily.com)

أن تُمسِكَ الBully مِن قَرْنَيه* - مُواجهةُ المُتنمّر بِجُرأة وشجاعة
مراجعة كتاب Nasty People (الناس الأشرار) لكاثي نول

بقلم قوبي ماندل

كنتُ قد تعرّضتُ للتنمّر في إحدى المرّات على يدِ وغدٍ أراد أن يستعرضَ قوّتَه أمام أصدقائه. كنا في المدرسة، وكنتُ على وشك الجلوس ،فسحب ذلك الوغد الكرسيَّ من خلفي، فسقطتُ على الأرض. قلتُ لأصدقائي: "يا له من أحمق!"، لكنه سمعني، فانقضّ عليّ بالضرب والرّكل، ثمّ ابتعد. ولم أستطع أن أدافع عن نفسي وأردّ له الضربات لأنّه كان أكبرَ منّي سنًّا وحجمًا. ثمّ بعد أسبوع، عَلِمَ أبي بما حدث، وصادفنا ذلك الفتى في مطعمٍ للبيتزا، فتوجّه إليه أبي وهدّده بأنّه سيُحطّم أنفَه إن اقترب منّي مرّةً أخرى. ومنذ ذلك الحين، لم يجرؤ على إزعاجي. وقد شعرتُ بالراحة لأنّه نال عقابه وأُصيبَ بالإحراج أمام الناس.

يشرح كتاب Nasty People (الناس الأشرار) لماذا يمارس بعض الأشخاص التنمّر، والآن أفهم بعد قراءة هذا الكتاب أنّ ذلك الفتى كان يضايقني لأنه كان يشعر في داخله بالدونيّة، ولأنّي كنتُ طالبًا جديدًا في المدرسة، فاعتبرني هدفًا سهلًا. لقد كان الطلّاب يسخرون منه بسبب علاماته المتدنّية، ولعلّه كان يشعر بالسوء تجاه نفسه، فراح يُفرِّغ شعوره بالنقص عبر الاعتداء على الآخرين.

أعجبني هذا الكتاب لأنه يشرح لكَ كيف تتعامل مع المتنمّرين، ولماذا يتصرّفون بهذه الطريقة، وما هي الأسباب والظروف التي تجعل شخصًا ما يُصبِحُ متنمّرًا. ويشرح هذا الكتاب أيضًا ما يُعرَف بدوّامة التنمّر:

---

*ملاحظة توضيحية من المُترجِم: عنوان المقال بالإنجليزية "Taking the Bully by the Horns" هو تعبير مجازي مُستوحى من عبارة إنجليزية شهيرة تحتوي على الكلمات ذاتها لكن مع كلمة bull بدل Bully، وتعني هذه العبارة "مواجهة المشكلة بشجاعة وجرأة". وفي عنوان المقال، تمّ استبدال كلمة "bull" (الثور) بكلمة "bully" (المتنمّر)، للدلالة على فكرة المواجهة المباشرة للمتنمّرين دون خوف. ولأن الترجمة الحرفية ستبدو غريبة في العربية، فقد اخترنا تعبيرًا مجازيًّا يعكس المعنى ذاته، أي الشجاعة في مواجهة التنمّر والاعتداء.

فعندما يتعرّض أحد الأشخاص للتنمّر قد يُصبح هو الآخر متنمّرًا فيما بعد، نتيجةً لشعوره الداخليّ بالهوان وافتقاره لاحترام ذاته. إنّ هذا الكتاب مفيد حقًّا ويُعلّمك كيف تُواجه المتنمّر، وذلك عبر محادثته ومواجهته بالمشكلة التي يعاني منها، فربما يُدرك حينها خطأه ويحاول أن يُحسِّن سلوكه. وإن لم يتغيّر، فعليكَ أن تتجاهله ببساطة.

المتنمّر يختار شخصًا ليفرّغ عليه غضبه، وهو غضبٌ نابعٌ من كراهيته لنفسه. فيختار من هو أضعف منه، أو من ليس لديه أصدقاء كُثر، أو شخصًا يظنّ المتنمّر أنه لن يشتكي لأحد.

في صفي، لا يزال بعض التلاميذ يتنمّرون على غيرهم، لكنّهم لا يقتربون منّي، لأنهم يعلمون أنني إن غضبت، سأردّ عليهم بقوّة. وعندما أُشاهد تلميذًا يتنمّر على آخر، أحاول إيقافه. مثلًا، إذا رأيتُ فتىً ضخمًا يدفع طفلًا صغيرًا في طابور الانتظار أمام نافورة الشرب، أقول له: "توقّف!"

ويوضّح لك الكتاب أيضًا كيف يُمكنك أن تعرف إن كنتَ ضحيّة للتنمّر أم لا. فإن كنتَ تشعر بالحزن ولا تعرف السبب، أو إن كنتَ تحلم بأنّك مقاتل نينجا، أو تحلم بالانتقام، أو إن كنتَ تتجنّب المرور أمام بيوت بعض الأشخاص، فإنّك على الأغلب ضحيّة للتنمّر.

عليك أن تُواجه المتنمّر، وإن تجاهلك واستمرّ بتصرّفاته التافهة، فعليك أن تطلب المساعدة من شخصٍ بالغ.

***

ما الذي يجعل من الشخص والدًا جيّدًا؟

بقلم قوبي ماندل، في الثالثة عشرة من عمره

لو كنتُ مكان والديّ، لَكنتُ سأدعم ابني دائمًا وأقف في صفّه، لأني إن لم أفعل ذلك، سيشعر ابني بأنني لا أهتمّ لأمره، وسيتملّكه الحزن. فالطفل يحتاج دائمًا للدعم والمساندة.

وسأسمح له أيضًا بأن يرتدي الملابس التي تعجبه، ويتّخذ قراراته بنفسه، لأنّ الأطفال يحتاجون إلى الحريّة بقدر ما يحتاجها الكبار، إن لم يكن أكثر! وأنا لا أقصد بذلك أنّك ينبغي أن تدع ابنك يفعل ما يحلو له دائمًا، لكن عليكَ ألّا تُقيده، واترك له المجال ليقرّر بعض الأمور بنفسه.

وسأمنح له حرّيّة ترتيب غرفته على الوجه الذي يريده، لكن في الوقت نفسه سأُذكّره بأن ينظّفها ويرتّبها مرّةً في الأسبوع. وإن لم يُرِد فعل ذلك، فلا تجبره، فقط أغلِق الباب. وأهمّ شيء ألّا تنظّفها أنتَ بدلًا عنه.

دعه يختار أصدقاءه بنفسه. وإذا لم تكن راضيًا عن إحدى صداقاته، صارحه بذلك. وإذا أصرّ على رأيه، قل له إنّك لا تُريد لهذا الصديق أن يزوركم في البيت، لكن لا تمنعه من رؤية أصدقائه، إلّا إذا كان يفعل شيئًا سيئًا حقًّا، مثل المخدّرات.

ابذل جهدًا من أجله، لكن لا تُغيّر خططك. أعني، يمكنك أن تُضحّي من أجله، لكن لا تُلغِ أمرًا مهمًّا لك من أجل أمرٍ أقلّ أهمية يريده ،كالذهاب إلى المركز التجاري أو إلى بيت صديقه.

دعه يفعل ما يشاء، ومع من يشاء، وبالطريقة التي يراها مناسبة. دعه يأخذ وقته كما يريد، لكن هذا لا يعني أنه يستطيع تأجيل القيام بإحدى المهام أسبوعًا كاملًا إذا كنتَ تريدها الآن ،مثل لَمِّ الغسيل أو إخراج القمامة.

المدرسة:

ضع جدولًا معه يحدّد فيه متى سينجز فروضه ومشاريعه المدرسيّة، ومتى سيشارك في النشاطات بعد المدرسة، ومتى سيتناول العشاء كلّ يوم. اسأله إن كانت لديه واجبات مدرسيّة، وإن قال لا، اسأله ما هي المواد التي درسها اليوم في المدرسة؟ وماذا طُلب منه في كلّ مادّة؟ فبهذه الطريقة سيتذكّر الواجبات التي عليه إن نسي منها شيئًا. حاوِرْ معلّميه كلّ شهرَين للاطمئنان على مستواه. وإن لم يكن أداؤه جيّدًا، تحدثْ معه بلُطف، فأحيانًا يكون هذا المستوى الدراسيّ هو أقصى ما يستطيع الوصول إليه.

العشاء:

وجبة العشاء هي من أهمّ الوجبات التي يجب أن تجمع العائلة في وقتٍ واحد، ويجب أن تكون هذه الوجبة كاملة، فتتضمّن شرابًا، وسلطة، وطبقًا رئيسيًّا. وإذا كان الأولاد يتصرّفون جيّدًا، فأضف إليها الحلوى. وأثناء العشاء، اسأل أولادك عن يومهم: ماذا فعلوا؟ وماذا حدث معهم؟ وبعد العشاء، لا داعي لتقديم وجبات أخرى، لكن يُمكن تقديم بعض الوجبات الخفيفة... فبعد التاسعة والنصف مساءً، من الأفضل أن يتوقف الوالدان عن الطهو، لكن يمكن للأولاد الدخول إلى المطبخ وأخذ ما يريدون.

الأعمال المنزليّة:

يجب على الجميع أن يشاركوا في الأعمال المنزليّة، بما في ذلك الوالدان. وإذا أنجز الأولاد الأعمال المنزليّة المطلوبة منهم بشكل جيّد طيلة أسبوع، قدّم لهم مكافأة صغيرة، أو اصطحبهم إلى عشاءٍ في الخارج.

المصروف:

ينبغي أن يحصل الأولاد على مصروف بحسب أعمارهم. لا تُعطِ طفلًا في الخامسة دولارًا كاملًا، لكن يمكن أن تعطي طفلًا في الثامنة دولارًا. وكلّ سنة، يجب أن يزداد المصروف بنصف دولار على الأقل. ابدأ بإعطاء الطفل مصروفًا (مثل رُبع دولار) منذ سنّ الخامسة، لكي يتعلّم قيمة المال، لكن يجب أن يعمل للحصول عليه، بأن يُنجز بعض الأعمال المنزليّة.

كيف تتحدّث مع أولادك:

تحدّث مع أولادك بلُطف، ولا تُكثِر الكلام. دعهم هم يتحدّثون. وإن كانوا بحاجة إلى تشجيعٍ كي يتحدثوا، فابدأ أنت الحديث، ثم دَعهم يُكملونه. وفي النهاية، ينبغي أن يتحدّث الأولاد أكثر من الأهل، وعلى الوالدين الاكتفاء أحيانًا بقول: "ممم"، "نعم، نعم".

كيف أرى أداء أمّي في دورها كأمّ:

أمّي تقوم بدورها بشكل لا بأس به، لكنّي أعتقد أنّها لا تُعطيني مصروفًا كافيًا، ونحن لا نتناول العشاء معًا، ولم نضع جدولًا للواجبات المدرسيّة. بشكل عام، هي أمٌّ جيّدة. وأعتقد أنّ أداءها كأمّ سيتحسّن أكثر إذا قرأَتْ هذا المقال...

مُلحَق: عن المؤسّسة

مخيّم "قوبي ويوسف" هو مخيّم صيفيّ يَجمع حوالي خمسمئة طفلٍ وشابّ من أبناء العائلات الثكلى والأيتام، الذين قُتل أحد والديهم أو إخوتهم في هجمات إرهابية. يمزج هذا المخيّم بين اللعب والمتعة وفعاليّات الشفاء النفسيّ، ويُقام خلال العطل الصيفية والعطل المدرسيّة. كما يتبعه برنامج متابعة بعنوان "الأخ الأكبر – الأخت الكبرى"، يهدف إلى دعم المشاركين بشكل مستمر.

خلوات شفاء للنساء تُمكّن مجموعات من الأرامل والأمهات الثكالى من المشاركة في ورشات شفاء تمتدّ ليومين في فندق يقع في مكان بعيد عن منازلهنّ، لتكون بمثابة استراحة حقيقية لهنّ. تعتني هذه اللقاءات بالنساء من النواحي الجسديّة والنفسيّة والروحيّة، وتتضمّن جلسات في العلاج السرديّ، والإرشاد الجماعي، والتدليك، واليوغا. وتلي هذه الخلوات متابعةٌ فرديّة عبر الهاتف أسبوعيًّا مع مرشدة مختصة فيما يتعلّق بحالات الحداد، إضافة إلى لقاءات شهريّة جماعيّة.

في خلوات شفاء العائلات، تتمكّن العائلات المتضرّرة من العمليات الإرهابية من قضاء عطلة لمدّة ثلاثة أيام، تشمل أنشطة ترفيهيّة مثل قيادة سيارات الجيب، والتنزّه في الطبيعة، وركوب القوارب، إلى جانب جلسات دعم مخصصة لكلّ فئة عمريّة: الأطفال، واليافعين، والأمهات، والآباء. وتهدف هذه اللقاءات إلى تعزيز التواصل داخل العائلة.

مجموعات الشفاء الروحيّ للأهالي الثكالى والأرامل: وهي جلسات علاجيّة يُشرف عليها كلّ من أخصائيّ نفسيّ وقائد روحيّ، بدعم من "اتّحاد نيويورك اليهودي".

برنامج تعليم أسبوعيّ للنساء: دراسة نصوص يهوديّة أسبوعيّة موجّهة للأمّهات الثكالى.

مؤسّسة قوبي ماندِل

للمزيد من المعلومات عن مؤسّسة قوبي ماندل وبرامجها العلاجيّة:

يرجى التواصل عبر البريد الإلكتروني:
info@kobymandell.org

أو زيارة موقعنا الإلكتروني:
http://www.kobymandell.org

أو مراسلتنا / الاتصال بنا:

في الولايات المتحدة:

The Koby Mandell Foundation

PO Box 156

Tenafly, NJ 07670-0156

Tel 201-699-9944

usinfo@kobymandell.org

في إسرائيل:

Keren Koby Mandell

Tchelet Mordechai 587

POB 367

Tekoa, 90908

Tel 058-648-3758

Fax 02-648-1370

info@kobymandell.org

الشكر والتقدير

إلى زوجي: محبّتُك هي سكينة قلبي.

وإلى أولادي: دانيئيل، وإليعانَه، وغافي، أرواحكم ممتلئةٌ بالفرح، وقلوبكم لا تنكسر. وإلى رينَاه وعزرا إشران، فقدنا فلذتَي أكبادنا في الهجوم الإرهابيّ ذاته، فأصبحنا إخوةً في الفقد.

إلى عائلتي، والديّ: پول ليدرمان، طيّبَ اللهُ ذِكرَه، وماريلين ليدرمان، اللذَين علّماني أن أحتفي بالفرح، وأُدرِك أن الحياةَ مملوءةٌ بالمفاجآت. وإلى أُختي، نانسي ليدرمان، التي كانت معنا في أيام الـ"شِّيڤعاه"، لتمنحني لحظاتٍ من الضحك وسط الدموع. وإلى أختي لورين وزوجها ريتشي فوغلسون، على محبّتهما، وعلى إعارة سيارتِهما لنا، وتوصيلنا إلى المطار.

وإلى عائلة ماندل: مارسي، ولاري، وماريلين، وريتشارد، لِأنّهم دائمًا ما جعلوني أشعر كأنني في بيتي؛ وإلى حماتي، ليليان ماندل، بشكل خاصٍّ، التي كانت من أكبر من دعموني وشجّعوني، والتي شاركتني الحزنَ، فبكينا معًا من القلب.

إلى شيراه تشيرنوبل، المُعالجة والحكيمة؛
إلى ڤاليري سَيْدنِر، على محبّتها لي التي كنتُ أشعر بها كلّ يومٍ وعلى طيبة قلبها؛
إلى آن بريسلاو، على تفَهمها العميق لي ورحلتِنا إلى الشاطئ؛
إلى شولاميت لانداو، التي علّمتني عن أحلامِ اليقظة وساعدتني على التحرُّر من الصدمة؛
إلى أندريا پيسكوڤ، على رقّتِها وذكائِها ومحادثاتِنا الهاتفيّة؛
إلى روث ميسون وبوب تراختنبيرغ، على عنايتِهما المُتفانية والمعروف الجميل الذي قدّماه لنا؛
إلى شانتال دانينو هولت، على حبّها وتشجيعها واحتفالاتِ أعياد ميلادي؛
إلى أستير وولفسون، على اتصالاتها ومساهماتها النابعة من القلب؛
إلى شاري روزنفِلد، لحرصِها على أن تنال عائلتُنا الرعاية الكاملة؛
وإلى فران آكرمان، التي بقيَت إلى جانبي في أشدّ لحظات الألم.

إلى جيراني الذين أصبحوا قريبين منّا وظلّوا إلى جانبنا... لا أستطيع أن أذكر أسماءكم جميعًا، لكنّكم في قلبي. هدارَه رايسينغر، روتي وولفيش، ليندا براون، جودي لاو، لياه بيرنباوم، روشيل تمپلمان، بيڤرلي أونغار، داناه ميلستاين، ميشيل بيبر، وباربرا سوتنيك - هؤلاء هنّ النساءُ اللواتي أحطنني بعطفِهنّ واعتنينَ بي.

إلى أڤيڤاه سوتنيك التي نامت في منزلي في تلك الليالي العصيبة، وإلى تانيا التي أعادت طلاءَ المنزل وزيّنتَه من جديد. إلى جيري فرويند الذي لا يَكُفُّ عن إهدائي الكتبَ والبروكلي العضويّ، وإلى روتشي كوهلنبرغ، التي حرصت على أن أعود من السفر لأجد البيت نظيفًا ومُرتَّبًا بكلّ محبّة.

إلى شمعون سَيْدنر، على مشاعره الدافئة والدجاج المقليّ الذي أعدّه لنا. إلى إيلي بيرنباوم، على دروسِه في التاريخ؛ إلى يوسي تمپلمان، على مساعدته لنا في تشغيل الطابعة؛ إلى مايكل پومرانتس، على كتبِه

حول النبي إلياهو، وإلى أريِه بريسلاو، على تعليمي فنّ التاي تشي؛ إلى ستيف پيسكوڤ، على محادثاتِنا بالإسبانيّة؛
وإلى ستيف وديبي ڤويرشتاين، صديقَينا الجديدَين، على اصطحابنا في جولة في هونغ كونغ، وتوجيهاتِهما لنا في كلّ ما يتعلّق بالإعلام.

إلى أڤراهام وشوشانَاه هاكوهين، على دعمِهما ووجودِهما المُطمئِن قربنا، وإلى مجموعةٍ من نساءِ بلدةِ إفرات، اللواتي كُنَّ يرسلن إليّ وجباتٍ منزليّةٍ ليومِ الـ"شبات" كلّ أسبوع، طيلة ستّة أشهر، دون أن أعرف مَن هنّ.

شكرٌ إضافيٌ إلى: ياعئيل سولومون، وتود وآيمي سوكول، ورِني إيسر، وليندا زورندورفر، وديبي وآرت ساپر، وتوڤيا وفيغي غراومان، وروشيل إديلسون، وجيني تْويرْسكي، وليمور هيرشكوڤيتس، وديبي نوديف.

شكرٌ كبير لآلان وريتشيل سيلڤرمان، على حسنِ ضيافتهما في Camp Moshava، ولبطَلِ ابني قوبي في رياضة البيسبول، اللاعب كال رِبكن، الذي قرأ قصّتنا في Baltimore Jewish Times وتواصل معنا لأنه أراد أن يكون جزءًا منها، وأن يبني ملعبًا للبيسبول في إسرائيل تخليدًا لاسم قوبي.

شكرٌ خاصّ لمعلّماتي: ميخال شير إيل، لغنائها معي في أيام الـ"شبات"، ومالكَه پتروكوڤسكي، على دروسِها وزياراتِها لنا في أيام الـ"شبات"، وهَداسَا فرومان، على دفئِها وحكمتِها؛ ويَرديناه يوسف، على كلّ ما تعلّمته منها؛ وميراه كوهين، التي شاركتني محبّتَها لسِفر المزامير؛ وشكرٌ خاصّ لديان ليف، التي علّمتني أنّ التعلّم الحقيقيّ قد يعني أن ترفع قدمًا عن الأرض، دون أن تفقد توازنك، بل لترتقي في روحك وفَهمك.

وأحمل امتنانًا عميقًا لسارَه شنيدر، التي أضاءت لي من خلال معرفتها بالتصوّف اليهوديّ بعضَ الغموض الذي يكتنف الفقد، وأشكر أڤيڤاه غوتليب زورنبيرغ، على محاضراتِها التي ساعدتني في تصوّر البنية السرديّة لهذا الكتاب ورحلة تطوّره.

كما أشكر سارَه آيزن، على تدقيقِها وتحريرها العميق للمسوّدة، والحاخام آڤي وولفيش، على ملاحظاته التحريريّة البنّاءة.

وأشكر ماثيو ميلر وفريق Toby Press، على معاملتهم الراقية وتفهّمهم العميق. وشكرٌ خاصّ لوكيلتي الأدبيّة ديبورا هاريس، التي وجدت "العُشّ" الملائم لهذا الكتاب، ولمحرّرتي ألومَاه هالتر، التي تفاعلت مع هذا الكتاب بكلّ حبٍّ وذكاء.

وأتوجه بجزيل الشكر أيضًا إلى ميخال رزنيك ومؤسسة "همزة الوصل" على ترجمة هذا العمل بمهنية بالغة ومحبة عظيمة، وعلى الرؤية التي تتبناها المؤسسة المتمثلة في ترجمة أعمال الكتّاب اليهود إلى اللغة العربية، فاتحةً نافذةً على حياة الشعب اليهودي.

والشكر أيضًا لفريق عمل مؤسّسة قوبي ماندل، على اهتمامِهم وعملِهم الاستثنائيّ، لا سيّما ريؤوڤين أَنغستريش، ولكلّ الأمهات اللواتي شاركن في خلوات الشفاء المخصصة للأمهات التي جمعتنا، ولكلّ من ساهم ودعمَ مؤسّسة قوبي ماندل، أُهديكم شكري هذا، فقد باركتُم عائلتي بسَعةِ قلوبِكم.

لم يكن قوبي ماندل يتجاوز الثالثة عشرة من عمره في 8 أيّار/مايو عام 2001، حينما تغيّب هو وصديقه عن المدرسة ليذهبا في نزهة سيرًا على الأقدام، فقُتلا بوحشية رجمًا بالحجارة داخل كهف في قلب صحراء يهودا. وقد عُثِر على جثتيهما في اليوم التالي، ليُكشَف عن جريمةٍ إرهابيّةٍ صدمت العالم بقسوتها، لا يمكن أمامها سوى أن نتساءل: كيف يُمكن لأيّ عائلة أن تتعامل مع فقدان طفلها بطريقةٍ مروّعةٍ ومأساويةٍ كهذه؟

بأسلوبٍ مشبعٍ بالألم، يشوبه في الوقت ذاته جمالٌ يُدهِشُ القارئ، كتبت شيري، والدة قوبي، هذا الكتاب المشوّق لتسرد خلال صفحاته قصة الفقدان، وتشارك أفكارها ومشاعرها العميقة خلال المراحل الأولى من الحداد. حيث ناضلت في شقّ طريقها وسط الآلام من أجل استمرار الحياة، فانطلقت في رحلة اكتشافية في أعماق الإيمان، ساعيةً إلى فهم ألمها ضمن سياق من التاريخ والتقاليد اليهودية التي تمتد لأكثر من ثلاثة آلاف عام.

"نِعمَةُ القلبِ المُنكَسِر" يجمع بين كونه عملًا عن المأساة ونشيدًا للحياة في آنٍ واحد، فرغم الألم العظيم الذي يتخلّل صفحاته، إلّا أنّ سطوره قد خُطّت بجمالٍ وشجاعةٍ لا يقلّان عظمةً. وإنّ إصرار شيري على التمسّك بالأمل والإيمان بدلًا من اليأس والكراهية يُثير الإعجاب، ورحلتها نحو النور والشفاء تُلهم القلب وتوقظ الروح.

نبذة عن المؤلفة:

وُلِدت **شيري ماندل** في نيويورك وتخرّجت من جامعة كورنيل عام 1977. حصلت على درجة الماجستير في الكتابة الإبداعية من جامعة ولاية كولورادو، ودرّست الكتابة الإبداعية في جامعة ميريلاند وجامعة ولاية بنسلفانيا (بن ستيت). وهي مؤلفة كتاب **"كُتّاب الهولوكوست"** (منشورات "فاكتس أون فايل"، 2000)، كما كتبت في العديد من المجلات والصحف، من بينها صحيفة واشنطن بوست، ودنفر بوست، وجيروزاليم بوست. انتقلت إلى إسرائيل عام 1996، حيث تعيش مع عائلتها في قرية تكواع، وتدير اليوم خلوات الشفاء للنساء الثكالى والأرامل في إطار مؤسسة قوبي ماندل.

إشَادَةُ النُّقَّادِ بِـ"نِعْمَةِ القَلْبِ المُنْكَسِرِ":

"أعترف أنني كنت مترددًا في قراءة كتاب 'نعمة القلب المُنكَسِر' لشيري ماندل، لعلمي بأنه سيحكي قصة مأساوية مليئة بالألم الذي لا ينتهي. وهو كذلك. ولكن بطريقةٍ ما، يمرّ هذا السرد الذي تصفه أمٌّ فقدت ابنها قوبي، الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، عبر المأساة إلى الجانب الآخر منها، مقدمًا انعكاسًا مُلهِمًا عن دروس الحياة المستخلصة من موت عبثي ولا مبرر له... إنها حكمة اكتسبتها من التصالح مع المأساة وقبولها، وهي تشاركها معنا بسخاء." - غاري روزنبلات، صحيفة 'الجويش ويك' The Jewish Week

"إنه كتابٌ مؤثّر للغاية - سيبقى رفيقًا لروحك لزمنٍ طويل." - أهرون أبلفيلد

"لا تملك شيري ماندل موهبة الكلمات فحسب، بل تمتلك روح شاعرة عظيمة. 'نعمة القلب المُنكَسِر' كتابٌ نادرٌ للغاية؛ من النوع الذي لا يمكن للقارئ أن يدخله دون أن يغادره شخصًا أفضل. إنه هديةٌ ونِعمةٌ حقيقيّةٌ لقارئيه." - نعومي ريغن

"كتاب شيري ماندل المؤلم والشجيّ والعميق والجَميل ليس مجرد عملٍ من أعمال الذكرى، بل هو عملٌ من أعمال النعمة." - جون بودهوريتز

Toby